إيميلي توماس
سفر الفلاسفة
معنى السفر
مكتبة
ترجمة: نشوى ماهر كرم الله

لتكن رحلة رائعة ..

شادن

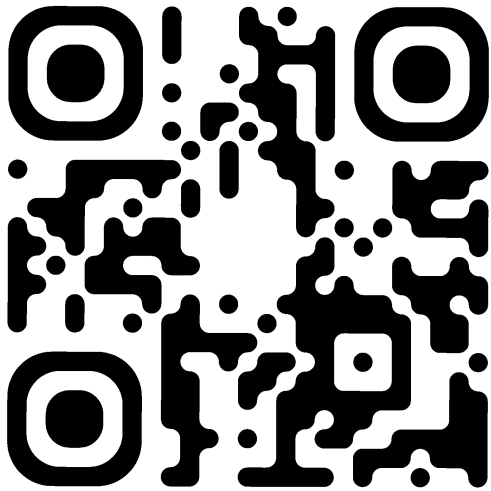

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

مَعْنى السَّفر

سَفرُ الفَلاسِفة

مَعْنى السَّفر
سَفرُ الفَلاسِفة

إيميلي توماس
ترجمة: نشوى ماهر كرم الله

الطبعة الأولى - 2024
978-603-04-4313-0
رقم الإيداع: 1444/9943

هذا الكتاب ترجمة لـ
The Meaning of Travel
Emily Thomas
2020 © Emily Thomas

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للناشر

منشورات نادي الكتاب
المملكة العربية السعودية - الرياض
طريق الملك عبد العزيز - مجمع الفناء الخلفي
publications@club-book.com

مكتبة
t.me/soramnqraa

يمكنك شراء الكتاب من الموقع
www.club-book.com
@BC__Pub

(جميع آراء المؤلف الواردة في هذا العمل وخلافه تُعبِّر عنه وحده وليست مسؤولية دار النشر
أو أي جهة أخرى متصلة بها من الجهات والهيئات الثقافية التنظيمية أو المانحة وغيرها)

إيميلي توماس

مكتبة
t.me/soramnqraa

مَعْنى السَّفر

سَفرُ الفَلاسِفة

ترجمة

نشوى ماهر كرم الله

منشورات نادي الكتاب

المحتويات

السَّفر كما يجب أن يكون: أفضل عشر نصائح قديمة 9

1 لماذا يهتم الفلاسفة بالسَّفر؟ 15

2 ما الخرائط؟ براين هارلي عن خداع رسم الخرائط 29

3 فرانسيس بيكون في فلسفة العلم والدجاجة المجمدة 49

4 الأفكار الفطرية عند ديكارت ولوك وآكلي لحوم البشر 73

5 لماذا بدأت السّياحة؟ الجنس والتعليم والجولة الكبرى 97

6 أدب الرحلات، والتجارب الفكرية، وعالم مارغريت كافندش المتألق 121

7 السَّفر عبر الجبال وفلسفة الفراغ عند هنري مور 149

8 إدموند بيرك والسّياحة السامية 171

9 فلسفة البراري، هنري ثورو وصور الأكواخ المُغْرية
أريد أن أعيش في كوخ 189

10 هل السَّفر مفهومٌ ذكوري؟ 215

11 أخلاقيات سياحة الفُرصة الأخيرة 233

12 هل سيبين السَّفر إلى الفضاء الخارجي أن الأرض لا قيمة لها؟ 247

العودة إلى الوطن أفضل عشر نصائح قديمة 261

شكر وتقدير 265

إلى إيرين وإيفا ومار

أفضل عشر نصائح قديمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

1. **امنع صغار السن من السَّفر:**

لا يُسمح لمن هم تحت سن الأربعين بالسَّفر خارج البلاد تحت أي ظرف، ولا يُسمح لأي شخص بالسَّفر لأسباب شخصية، إلا لعملٍ عام، كأن يكون مبعوثًا أو سفيرًا أو مراقبًا من نوعٍ أو آخر.

أفلاطون، الجمهورية [حوالي 300 ق. م]

2. **تجنَّب البدع والعادات والتأثيرات الأجنبية:**

إياك يا سيدي أن تغريك أي بدعة في الأخلاق أو السلوك، تلك التي تروق للشباب، وإياك أن تصيبك عدوى البدع التي تجعلنا نحتقر عاداتنا، والزم ما اعتدنا عليه، وإياك والتصنّع (وهو خطأ يقع فيه أغلب مسافرينا من الإنكليز)، فهو مدعاة للنفور والسخرية.

فرانسيس بيكون، مقالات، [1597]

3. **احذر الوحوش:**

هل فكرتَ في كل مخاطر هذه المغامرة العظيمة، من نفقات، وصعوبات، وتوقعات، ونتائج، وكل ما له صلة بها، ووزنت الأمور كما ينبغي بحكمة وتروٍ؟ تقول: إن ثمة جنة، ولكن لا يمكنك رؤيتها بوضوح عبر الظلام المتواصل. وتوجد أرض، لكنك قد لا تجرؤ أن تطأها؛ بسبب كثرة الوحوش فيها والأفاعي. وعندك رجالٌ، لكنك قد لا تفضل صحبتهم. فماذا

لو مزقتك فراشة باتاغونيا عملاقة إربًا، والتهمت على الفور الأجزاء النابضة التي لا تزال حية؟

چوزيف هال، عالمٌ آخر لكنه هو نفسه [1605]

4. امنع السفهاء وسريعي الغضب والنِّساء من السَّفر:

لعل تحمل كل النَّاس السَّفر... أمرٌ مشكوك فيه... فالرضع وكبار السن... والسفهاء والمجانين وسريعو الغضب لديهم قصور عقلي، فلا يُرجى منهم خير. ومؤخرًا تحظر الأنوثة في معظم البلدان السَّفر على النِّساء؛ لأنهن خُلقن للبيت لا للحقل.

"الرحالة" توماس بالمر، مقالة في جعل سفرنا إلى البلدان الأخرى، أكثر نفعًا وشرفًا [1606]

5. ارسم خارطة للعالم:

يجدر بالمرء أن يتزود (قبل أن يشرع في السَّفر بالبحر) بأفضل خارطة وصفية وجغرافية لحال البلد التي سيسافر إليها في الداخل وموقعها في العالم.

إدوارد لي، ثلاث رسائل، (1671)

6. ارتدِ الزي المحلي، واحذر أن يأكلوك:

على كل مَن يسافر إلى تركيا أن يبدل بملابسه ملابس ذلك البلد، فيضع القبعة جانبًا ويعتمر العمامة. وكلما كانت الملابس أرث، كنتَ أبعد عن اللصوص والنهابين... وأفضل ما يمكن حمله من المال هو قطعة الثمانية الإسبانية*، شريطة أن يكون وزنها كاملًا، وليست عملة بيرو... ومن

(*) الدولار الإسباني الذي كان يُعرف أيضًا باسم قطعة الثمانية، هو صنف من النقود الفضية التي كانت متداولة زمن الإمبراطورية الإسبانية منذ القرن السابع عشر. كانت قطعة الدولار الإسباني مصنوعة من الفضة، وقطرها حوالي 38 مليمتر، وتكافئ 8 ريال إسباني. (المترجمة).

الضرورة القصوى أن يحمل المسافر سلاحًا مناسبًا للدفاع عن نفسه إذا اقتضى الأمر، ولاسيما لقتال **العرب**، وغيرهم من الصعاليك. والأهم هو ضرورة أن يتسلح المسافرون إلى تركيا بالصبر؛ لتحمل ما سيكيله لهم غير النصارى من إهانات، وبالحكمة والاعتدال لمنع هذا السلوك الوقح بقدر الإمكان.... وعند السَّفر في قافلة، يجب الحرص على عدم الابتعاد عنها مطلقًا؛ لئلا تلتهمهم الوحوش الضارية، أو **العرب** الأشد ضراوة.

مجهول، "تاريخ الرحلات البحرية"
في مجموعة من الرحلات البحرية والأسفار (1704)

7. **لا تخشَ الموت:**

الشاب قوي البنية الذي يندفع إلى مغامرة يجيزها المسافرون الخبراء، لا يتعرض لمخاطر شديدة. ومن يشك في كلامي، فليرجع إلى تاريخ الرحلات الاستكشافية كافة التي شجعتها "الجمعية الجغرافية الملكية"، وسيرى أن الوفيات كانت قليلة... فنادرًا ما يقتل المتوحشون الوافدين الجدد.

فرانسيس غالتون، فن السَّفر، (1855)

8. **لا تبالغ في الأمتعة عند السَّفر بالقطار، وتذكر أن السيدات يستغرقن وقتًا أطول:**

قسِّم أمتعتك إلى حِزَمٍ، والصق داخل غطاء كل حزمة قائمة بمحتوياتها المختلفة، ثم أعطِ لكل حزمة رقمًا، وفي النهاية دوِّن مذكرة بهذه الأمتعة في مفكرتك.

ضع بطاقةً باسمك على أمتعتك مكتوبة بشكلٍ مقروء وواضح. ولاحظ، أيضًا، أن اسم المكان ينبغي أن يكون بخطٍّ أكبر من اسم الشخص، فمهما كان هذا قد يسيئ إلى تقدير الذات عندنا، يجب أن يؤخذ في الحسبان أن عند العجلة والصخب في الرحيل، تكون الوجهة أول ما يستوجب المعرفة، ويأتي مالك الأمتعة في مرتبة ثانوية.

لا تتأخر عن الموعد، فالقطارات لا تنتظر أحدًا. وإن كانت معك سيدات، فمن الضرورة القصوى تخصيص فترة أوسع من المعتاد لإعدادات السَّفر. إذ **لابد** للجنس الناعم أن ينتهين من زينتهن كاملة على نحو يرضيهن، أيًّا كانت العواقب. وينبغي تذكر أنهن لا يتمتعن بروح الالتزام بدقة المواعيد التي تتبعها سلطات السكك الحديدية، فإن ذُكر في جدول المواعيد أن المغادرة في تمام الساعة 1:20، فإنهن يقرأنها بالغريزة 1:45.

الكاتب مجهول، دليل المسافرين بالسكك الحديدية، (1862)

9. تجنب العجلة والقلق:

قد يكون الأمريكي الذي يزور أوروبا لأول مرة في عجلة من أمره، ويسعى إلى مشاهدة أشياء أكثر مما ينبغي. وسيعود على الأرجح بفكرة مشوشة عن خبراته، وسيضطر إلى الرجوع إلى مفكرته ليعرف ما فعله. فثمة حالات لسياح لم يتمكنوا من تحديد ما إذا كانت كاتدرائية سانت بول موجودة في لندن أم روما، وكان لديهم انطباع غامض بأن قبر نابليون كان تحت قوس النصر.

لا تزعج نفسك بأفكار سيئة عما يمكن أن يحدث في الضباب. وتذكر، بدلًا من ذلك، أن من بين آلاف الرحلات البحرية التي عبرت الأطلنطي، كان بضع عشرات فقط تعساء الحظ، وأن سبعًا فقط من بين كل البواخر التي حرثت هذه المياه، **الرئيس، ومدينة غلاسكو،والمحيط الهادئ، والعاصفة، والمملكة المتحدة، ومدينة بوسطن، والإسماعيلية**، لم نعرف مصيرها. ومن ثم، ففرصة عدة آلاف إلى واحد في صالحك.

وفي المناطق التي يوجد بها قطاع طرق، يطلق عليهم أهل كاليفورنيا ساخرين: "وكلاء الطرق"، لا تحمل من المال إلا القليل قدر الإمكان، واترك ساعتك الذهبية الثمينة... وبصفة عامة يكون أول تنبيه بوجودهم هو إدخال بنادق أو مسدسات عدة من نوافذ العربة، مع طلب، مهذب إن جاز

التعبير، بتسليم كل مقتنياتك الثمينة، فإن لم يكن لديك أي خيار سوى تسليمها، فافعل ذلك فورًا، واجعل مهاجميك يظنوا أنها أسعد لحظات حياتك.

توماس دبليو. نوكس، كيف تسافر: ملحوظات ونصائح واقتراحات للمسافرين برًا وبحرًا في كل أرجاء الأرض، (1881)

10. احذر القبعات وشطائر اللحم في القطارات:

يُحب كثير من النِّساء قبعة الصيد، لكنها لا تناسب إلا قلة منهن.

فرّي من المعجنات فرارِك من الطاعون.... يمكن أن تأكلي الشطائر، شريطة ألا تكون شطائر لحم.

الشاي في استراحات محطات السكك الحديدية، وعلى ظهر القوارب البخارية، مجرد محاكاة للشاي الحقيقي - مادة مغلية بشعة.

ليلياس كامبل ديفيدسون، نصائح للمسافرات من النِّساء، (1889)

1

لماذا يهتم الفلاسفة بالسَّفر؟

«تولد أروع لحظات السَّفر من الجمال والغرابة».

روبرت بايرون، **روسيا أولاً، ثم التبت**، (1933)

لم يكن القطار مزدحمًا، لكن كان الركاب صاخبين. في مقعدين خلفي زوجان يتشاجران حول ترامب وهيلاري. وفي مقعدين أمامي زوجان في موقف عاطفي قد ارتفع صوتهما.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أدى هذا إلى نقاش هامس عبر الممر.

- "إنها تنظر إليه بكل جرأة".

- "هذا سبب وجيه لعدم التحدث إليها، يا عزيزي".

جعلني الهمسُ أحدّق في النافذة مجددًا. كنا في بواكير الربيع، وهو فصل ذوبان الجليد في ألاسكا. تطايرت أصابع الجليد المتجمدة على الزجاج، واكتست الأشجار بالثلوج، وظهر الثلج كالبقع فوق التلال. كنت قد ركبت قطار أرورا الشتوي* من أنكوريج، أكبر مدن الولاية، وأتجه الآن عبر الولاية إلى فيربانكس. قد تستغرق رحلتي يومًا كاملًا، لكن معظم الركاب يستقلون القطار بضع ساعات، وربما أقل. قام البعض بإيقاف القطار عند جرف جليدي؛ ليهبطوا

(*) يوفر قطار أرورا الشتوي الذي تديره سكك حديد ألاسكا، خدمة نقل الركاب بين مدينتي أنكوريج وفيربانكس. وهو قطار موسمي يعمل طوال العام عدا أشهر الصيف. (المترجمة).

منه عند جرف جليدي يبدو أنه يشبهه تمامًا بعد عشرين دقيقة. نظرت عبر الأجراف إلى الغابات، وتخيلت طرقًا محاطة بالأشجار تؤدي إلى أكواخ خشبية.

عدتُ إلى كتابي في محاولة لتجاهل أصوات الهمهمة والتذمر التي تتصاعد من حولي، إنهم يقولون: إن السَّفر يوسع الأفق.

ثمة أسطورة تقول: إن الفلاسفة لا يسافرون. وقد أكد سقراط هذا، فهو لم يخط بقدمه قط خارج أسوار مدينة أثينا، وكذلك كانط، فهو لم يسافر قط أكثر من مئة ميل بعيدًا عن مسقط رأسه كونيجسبيرغ. فضلًا عن ذلك، فإن "فلسفة السَّفر" ليست مجال بحثٍ معترفًا به. كذلك لا توجد: كتبٌ، ولا مقررات جامعية، ولا مؤتمرات عن فلسفة السَّفر.

وبالرغم من هذا كله، اهتم عدد كبير من الفلاسفة بالسَّفر. وفكرة "الفيلسوف الرحالة" قديمة. فكتابات العالِم الجغرافي والرحالة سترابو Strabo في مطلع القرن الأول الميلادي، كانت تضم أولئك الذين "يبحثون عن معنى الحياة" بين من أدمنوا "التجوال في الجبال". ويقول سترابو "كان أشد الأبطال حكمة هم مَن زاروا بقاعًا عديدة؛ لأن الشعراء يرون أن مشاهدة المدن والتعرف على أفكار البشر إنجازٌ عظيم"[1].

كان بعض الفلاسفة كثيري الأسفار، فقد قضى كونفوشيوس سنوات مرتحلًا عبر دول هي جزء من الصين حاليًّا، وتقول الأسطورة: إن معاصره لاوزي Laozi كتب معظم تعاليمه في أثناء عبور الحدود. وقد حارب ديكارت، حين كان جنديًّا، في أوروبا الشرقية، وأصبح بعدها جوّابًا للآفاق.

أما كل من: توماس هوبز، ومارغريت كافنديش، وجون لوك، فقد تجولوا في أرجاء أوروبا في نفي سياسي. وفي القرن العشرين، استخدم دبليو. ڤي. كوين البواخر والطائرات في زيارة 137 قُطرًا، واستغلت سيمون دي بوڤوار رحلتها إلى الصين لتؤلف أحد كتبها.

---

(1) للاطلاع على موضوع التجوال في الجبال، انظر:
Leed (1991: 58-9); on the wisest heroes, see Strabo (1917: I.30).

كذلك كان الفلاسفة يرون أن السَّفر ضروري، فقد زعم فرانسيس بيكون أن السَّفر قد يؤدي إلى نهاية العالم - نهاية طيبة، وكان جان جاك روسو يعتقد أنه أمر لازم للتعليم، وكان هنري ثورو يرى أننا جميعًا سنكون أسعد لو أننا خضنا مغامرة في البرية وقطفنا التوت البري.

والسَّفر يتعانق مع الفلسفة، ويطرح أسئلة فلسفية. هل يمكن أن نتعلم شيئًا جديدًا عن العقل البشري حين نقابل أناسًا من بلادٍ أخرى؟ هل زيارتنا للحاجز المرجاني العظيم ستكون أخلاقية إذا كان ذلك سيدمر شعابه المرجانية؟ هل السَّفر أمر خاص بالرجال وحسب؟ فضلًا عن ذلك، أثرت الفلسفة في السَّفر، فلقد شجعت فلسفة المكان السّياحة الساحلية، وحفزت أفكار السمو الفلسفية تسلق الجبال ودخول الكهوف، وأخرجت فلسفة العلم علماء السَّفر، مثل: جون راي وتشارلز داروين، وشجعت كل بحّار في أعالي البحار على جمع الصخور التي تطرحها الأمواج على اليابسة، وكذلك النباتات والأشياء الغامضة الناتجة عن "عمليات غريبة".

وليس للسفر مبحث فلسفي، وينبغي أن يكون له. فطرح أسئلة عن السَّفر، واستكشاف السبل التي غيرت بها الفلسفة السَّفر، يمكن أن تساعدنا في التفكير في رحلاتنا بشكل أعمق، فإن التفكير بشكل أعمق في الأمور جدير باهتمامنا دائمًا، إذ إنه يمكن أن يزيد من تقديرنا لها واستمتاعنا بها. وعبر كتابنا هذا، ستبين لنا رحلتنا الاستكشافية أن الفلاسفة ليسوا جميعًا جافين بقدر ما كنا نظن ـــــ فكثير منهم خاض حياة أخرى بعيدًا عن كرسي المكتب، فلقد صارع جورج باركلي الذئاب في ممر جبلي فرنسي، وخاض إسحاق بارو معركة ضد القراصنة حين كان يبحر إلى تركيا (بالرغم من أنه نسي مكان العصابة في وصفه هذه المناوشة لاحقًا في شعرٍ كتبه باللغة اللاتينية).

لماذا يهتم الفلاسفة بالسَّفر؟

في القرن السادس عشر، قدَّم الفيلسوف الفرنسي ميشيل دي مونتين إجابة عن هذا السؤال، فقد قضى مونتين سنوات طويلة يجوب أنحاء: سويسرا،

وألمانيا، وإيطاليا، ويعج كتابه **مقالات** *Essays* (1580) بأفكار عن السَّفر[2]. وهو يرى أن السَّفر يبيّن لنا اختلاف العالم وتنوعه، ويجبر النفس على أن تلاحظ باستمرار "كل جديد ومجهول"، والسَّفر يرينا **الغيرية**.

إننا نعرف الغيرية حين نتواصل مع غير المألوف، إنه الشعور بأن الأشياء مختلفة، وغريبة. وأنا أفضّل كتب الرحلات التي تصف أماكن نائية.

فكتاب سارة ويلر **الأرض المجهولة** *Terra Incognita* يستكشف القارة القطبية الجنوبية (أنتركتيكا). وكتاب بول ثيروكس **سوق السكك الحديدية العظيم** *Great Railway Bazaar* يشمل أوروبا والشرق الأوسط وآسيا.

وكتاب إيريك نيوبي **نزهة قصيرة في هندو كوش*** *A Short Walk in the Hindu Kush* يصف فيها رحلته الجبلية في أفغانستان.

تنقل هذه الحكايات شعورًا غامرًا بالغيرية، إذ تكتب ويلر أن، في أنتركتيكا، تلاشت نقاط مرجعيتها، مثل: أعمدة إيريبس البركانية. أما ثيروكس، فيصف طبق حساء يحتوي شرائط وقطعًا من الأمعاء "مقطعة على شكل معكرونة".

ويكشف نيوبي، باقتباس من كتابٍ لتفسير العبارات الشائعة باللغة الباشغالية، قسوة الحياة اليومية في الجبال الأفغانية: "صباح اليوم، رأيت شخصًا شديد الهزال في أحد الحقول، كان قزمًا يطلب طعامًا قائلًا: "لديّ تسعة أصابع، ولديك عشرة".

ويمكن أن تفسِّر الغيرية الفروق التي نجدها بين الرحلات. وكل الرحلات تتضمن حركة، وتغيير المكان من حينٍ لآخر. وحياتنا تمتلئ بالحركات البسيطة؛ فنحن نتحرك من حجرة النوم إلى المطبخ، ونقود السيارة لنرى أصدقاءنا، وننزه

---

(2) اقتبستُ هذا من طبعة عام 1845 من أعمال مونتين الكاملة.

(*) سلسلة جبال في أفغانستان وشمال غربي باكستان، يبلغ ارتفاع أعلى قممها 7960 مترًا فوق سطح البحر، وهي جبال قاحلة، لكن تنبع منها أنهار عدة، مثل: نهر كابول، ونهر هيرمند. (المترجمة).

كلابنا في الحدائق. لكننا حين نتحدث عن "السَّفر"، نفكر على نطاق أوسع: نفكر في رحلات تشبه رحلات ويلر أو نيوبي. فما الفرق بين رحلة إلى البقال ورحلة إلى الصحراء الكبرى؟ ولماذا تختلف القيادة لزيارة العائلة عن القيادة عبر دولة بوتسوانا؟

الفرق بين الرحلات الروتينية ورحلات السَّفر ليس مجرد اختلاف المسافة، فكثير من رحلات السَّفر تقطع مسافات طويلة، وقد سافر ويلر ونيوبي وثيروكس آلاف الأميال. مع ذلك، فالسَّفر بمعناه العام لا يتضمن دائمًا هذه المسافة.

فقد سافر صامويل جونسون بضع مئات من الأميال فقط، ليكتب **رحلة إلى جزر إسكتلندا الغربية**، وشرع بيل برايسون في كتابة **القارة المفقودة** في مسقط رأسه. كذلك يمكن أن يقوم المرء برحلات طويلة لا سفر فيها، ففي رواية جول فيرن **حول العالم في ثمانين يومًا** جاب فيلياس فوغ أنحاء الأرض، ومع ذلك يحاول تجنب استكشاف البلدان التي يمر بها؛ لأنه "أحد أولئك الإنكليز الذين اعتادوا رؤية البلدان الأجنبية بأعين قومه". ولنأخذ مثالًا عاديًّا، تخيل أحد المحامين يسافر من لندن إلى هونغ كونغ، ليحضر بعض الاجتماعات، ثم يطير عائدًا. قطعت رحلته نحو 6000 آلاف ميلًا، مع ذلك، فهي رحلة عادية، وليست رحلة سفر.

أعتقد أن الفرق بين الرحلات العادية ورحلات السَّفر يكمن في قدر الغيرية التي يَخْبُرها المسافر. فالرحلات العادية بها قدر قليل من الغيرية، في حين أن رحلات السَّفر بها قدر كبير منها، ويهدف كتّاب الرحلات في أغلب الأحيان إلى زيادة معرفتهم بغير المألوف، ففي مقابلة مع الرحالة السويسرية إيلا مايارت، أجريت في عام 1950، تفسر تفضيلها السَّفر بمفردها، إذ إن أي رفقة تصبح "قطعة تصحبها معها من أوروبا".

وستكون ردود أفعالهم أوروبية، وسيجعلها ذلك تحبس نفسها في إطار تفكير أوروبي، وسيبنون معًا زنزانة أجنبية.

وتقول: "أريد أن أنسى مظهري الأوروبي، وأن أشعر تمامًا بتأثير كل

جديد أقابله في كل خطوة أخطوها"[3].

وينصح كثير من الرحالة اليوم بالسَّفر "على الطريقة القديمة"، أي: السَّفر للخارج بلا هواتف خلوية، ولا أجهزة حواسب محمولة[4].

فالتكنولوجيا قد تستحوذ علينا، فيحيط بنا جوٌ التطبيقات ووسائل التواصل الاجتماعي المألوف. وأحد دوافع السَّفر بعيدًا عن الشبكة هو تجنب عزل نفسك عن الجديد.

فأين ومتى يشعر النَّاس بالغيرية؟ هذا يتوقف على مَن نكون، فلدى كل إنسان مجموعة فريدة من: الذكريات، والرغبات، والمعتقدات، واللغة، أو الطعام، أو الطراز المعماري المألوفة لدى شخصٍ ما قد تكون غريبة بالنسبة لشخصٍ آخر، ولهذا تدور كتب السَّفر حول كتّابها بقدر ما تدور حول أماكنهم. فإن كانت عالِمة جليد تعيش في أنتركتيكا، وكتبت كتاب رحلات عن هذا الموضوع، فسيختلف كتابها اختلافًا شديدًا عن كتاب ويلر **الأرض المجهولة**. وسبب اختلاف تجربتها أن ما تراه **مختلفًا** كان بالفعل مختلفًا بالنسبة إليها.

يكرر مونتين تذكير قرائه بأن ما يراه شخصٌ ما جديدًا، هو أمر معتاد لدى شخصٍ آخر.

فهناك مجتمعات تدين ممارسات، مثل: الجنس خارج إطار الزواج، أو قتل الوالد، أو قتل الولد، بينما تسمح بها مجتمعات أخرى، وينتقد "استغراب" الشعوب الغريبة، وكذلك تصويرهم بِعَدِّهم مختلفين تمامًا عن الشعوب العادية، ويتحدث مونتين في مقاله "أكلة لحوم البشر" عن مجموعة من النَّاس في البرازيل ورد أنهم يأكلون لحوم البشر، فيقول: إن هذا الفعل ليس بالغرابة التي يبدو عليها في أول الأمر، إذ إن الجنود الأوروبيين، في أزمنة قديمة، أكلوا جثثًا وقت المجاعات. فلا ضرر من "استغلال" جثث موتانا،

---

(3) Maillart (1950: 121).

(4) https://www.lonelyplanet.com/travel-tips-and-articles/how-to-go-off-the-grid-when-you-travel/40625c8c-8a11-5710-a052-1479d276568e

وذلك أقل "وحشية" من فن التعذيب الفرنسي. ويمضي مونتين في وصف طبيعة المكان الذي يعيش فيه النَّاس، وبيوتهم، ورقصاتهم، وطرائق زواجهم، وآلهتهم. فلعل هذه الجوانب من حياتهم تبدو مألوفة لدى قراء مونتين، ففي حياتهم: رقص، وزواج، وعبادة.

وينهي مونتين حديثه عن هذا الشعب النائي بسخرية، فيقول: "كل هذا ليس سيئًا تمامًا، وإنما الأسوأ بلا شك هو أنهم لا يرتدون ملابس داخلية".

لعل السَّفر يكون أمرًا حسنًا لنا؛ لأن الغيرية أمرٌ حسنٌ لنا، فمونتين يخبرنا بأن للسفر منفعة، فهو يعلمنا فوائد الاغتسال، وأن "حرارة" الصداقات الزوجية "تزيد بالغياب".

والأهم من ذلك أن تجربة الآخر تشحذ أذهاننا، والتفكير في أمور جديدة غير مألوفة يجبرنا على توسيع معارفنا، وإعادة النظر فيها، فكما قال الرحالة جيمس هاول James Howell في عام 1642: إن من ثمار السَّفر إلى الخارج "أفكار مبهجة، وألف فكرة مختلفة"[5].

ويوافق ديكارت على أن تجربة كل غريب مفيدة، فهو يكتب عن نفع معرفة عادات الشعوب المختلفة؛ لكيلا نظن أن كل ما يخالف أساليبنا "سخيف غير عقلاني"[6]. فالعادات هي طرائق التصرف التقليدية. على سبيل المثال: يأكل الإنكليزي عادة رقائق البطاطس مع البازلاء الناضجة، أما الهولندي، فيأكل شرائح البطاطس مع المايونيز، وبالرغم من غرابة العادتين، فإن أيًّا منهما لم تكن سخيفة ولا معقولة. ويبين لنا السَّفر أن عاداتنا قد لا تكون الأفضل، فهو يجبرنا على التشكك فيما نعدُّه بديهيًا.

كذلك يرى فيلسوف القرن العشرين برتراند راسل أن السَّفر أمرٌ حسنٌ، وأن الحياة خارج بلادنا تقلّص التحامل، لكن راسل يحذر من اكتساب كل العادات الأجنبية:

---

(5) Howell (repr. 1869: 74).

(6) Descartes (1984: I.113-16).

في القرن السابع عشر، حين غزت منشوريا الصين، كان من عادات الصينيين أن تكون قدم المرأة صغيرة، ومن عادات المنشوريين أن يضع الرجال جديلة، فبدلًا من أن يتخلى كل منهما عن عادته البلهاء، اكتسب كل منهما عادة الآخر البلهاء، وظل الصينيون يضعون الجديلة إلى أن تخلصوا من حكم المنشوريين بثورة عام 1911[7].

إن السَّفر والتبادل الثقافي أمر مرغوب، لكن علينا دائمًا أن نحذر الجدائل.

شبّه العديد من الفلاسفة تحقيقاتهم بالرحلات، وأرى أنهم يستهدفون نفس الفكرة. فقد شبّه بيركلي أحد تحقيقاته "برحلة طويلة"، بها سفرٌ طويل عبر "متاهات الفلسفة المقفرة"، وفي منتصف كتابه **رسالة في طبيعة الإنسان**، يتأمل ديفيد هيوم الرحلة التي قطعها بالفعل، وما لمَّا يأت بعد. "بدا لي أنني كرجل خاض مساحات من المياه الضحلة، وبعد أن نجا بشق الأنفس من غرق سفينة... لا تزال لديه الجرأة على السَّفر بحرًا في نفس السفينة التي يتسرب إليها الماء ويتلفها الطقس". إنه يميل إلى البقاء على "صخرته الصماء" الحالية، بدلًا من الخروج إلى "ذلك المحيط الذي لا شاطئ له، والذي ما ينفك يتسع". يقطع بيركلي وهيوم، كالرحالة، عبر فلسفتيهما، طرقًا جديدة في القفار. إنهما ينطلقان نحو المجهول غير المألوف، لكنهما يعتقدان ضمنًا أن المكافآت تستحق العناء. فيوسعان أفقيهما، ويبحثان عن حقائق جديدة. ويصف بيركلي استنتاجاته الفلسفية بفخرٍ بأنها عودةٌ إلى الوطن، وكان هيوم الشكوكي أقل رضًا عن نفسه، بالرغم من أنه أضاف أنه حين تصبح تأملاته الفلسفية في غاية البرودة ومجهدة، كان دائمًا يلهو مع أصدقائه، ويلعب دور طاولة[8].

للأسف، أظن أن "خوض" رحلات السَّفر في عصر مونتين تستحق هذا

---

(7) Russell (2009: 67).

(8) انظر: Berkeley (1713: Preface) and Hume (1739: 457-467).
وللمزيد عن استعارات فلسفة السَّفر، انظر:
Van Den Abbeele (1991) and Winkler (2004).

الوصف أكثر مما تستحقه في عصرنا؛ ذلك لأن كثيرًا من الإجراءات التي تتخذ في القرن الحادي والعشرين يسّرت السَّفر، وقلصت الغيرية في الوقت نفسه، ولشرح ذلك، سنلقي نظرة على مناقشة للمؤرخ بول فوسيل.

ففي كتابه الرائد **الخارج** *Abroad* يتناول فوسيل السّياحة، ويرى أن السَّفر يختلف عن السّياحة. فالسَّفر كان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكان يدمج إثارة الاستكشاف غير المتوقعة مع شعور السائح الممتع "بمعرفة مكان وجوده"، وفي رأي فوسيل أن السَّفر لم يعد موجودًا، بل السّياحة وحدها. وهو يتتبع جذورها إلى منتصف القرن التاسع عشر "حين سطعت في ذهن توماس كوك فكرة الإبحار بمجموعة من النَّاس لمشاهدة معالم القارة"، فالسّياح يبحثون عن أشياء "اكتشفتها المشروعات التجارية"، وأعدتها "فنون الدعاية الجماهيرية"، ويشير فوسيل إلى هيئات سّياحية، مثل: "معسكرات العطلات في بوتلين" أو قرى "كلوب ميد" السّياحية الفرنسية، "حيث يحل العري والخرز المثقوب محل الملابس والنقود"[9].

نشر فوسيل تمييزه بين السَّفر والسّياحة في ثمانينيات القرن العشرين، وكانت به مشكلات عدة، فإن كان فوسيل على حق، فإن معظم "المسافرين" كانوا ذكورًا أوروبيين، أثرياء، بيض البشرة[10].

ومهما كان طول مسافة السَّفر التي قطعها شخصٌ ما أو مدته في القرن الحادي والعشرين، فلن يكون "رحالة" أبدًا.

وبالرغم من أنني لا أظن أن فوسيل كان على حق في ذلك، فإنه قال شيئًا مهمًا، وأنا أشارك فوسيل حدسه بأن سفر أي أوروبي في رحلة إلى قرية سياحية في فرنسا لا يرقى إلى معنى "السَّفر" المقصود في رحلة ميلار، على سبيل المثال إلى بيچين عبر صحراء تكلامكان. والاختلاف يكمن في الغيرية.، فباقات

---

(9) Fussell (1980: 38-41).

(10) انظر: Bohls & Duncan (2005: xvi-xvii) and Thompson (2011: 13-23).

العطلات والقرى السّياحية تخفف غير المألوف، فإنك لا تتعامل مع مواقع الحجز بلغة أجنبية، ولا تقرأ اللافتات المحلية لتعرف إلى أين تتجه، إذ يمكنك أن تمضي وقتك مع منظمي الإجازات من بلدك، وأن تطلب وجباتك المعتادة بلغة تعرفها، أما السَّفر، فهو تجربة الغيرية، وبعض الآليات السّياحية تعترض طريق ذلك.

منذ أيام مونتين تغير وجه العالم، وكثيرًا ما يتحسر كتّاب الرحلات على إضفاء "التجانس العالمي" الوشيك، فسيصبح العالم هو نفسه في كل مكان، فيصف بيل برايسون "أي مكان" بأنه الولايات المتحدة الأمريكية. "فالأماكن التي لا مكان لها، والتي تبرز على طول تقاطعات الطرق السريعة بين الولايات جُزرٌ مضاءة بلون أرجواني فيها: فنادق رخيصة، ومحطات نفط، ومراكز تجارية، وأطعمة سريعة"[11].

هذه النتوءات يمكن أن تجدها في أنحاء العالم، وتعج عادة بنفس الفطريات: بِست ويسترن، وشل، وماكدونالدز، ودجاج كنتاكي. لكن للشكوى من شيوع التجانس تاريخ أطول مما تتصور.

يقول روسو في القرن الثامن عشر شاكيًا: "كل العواصم الآن متشابهة تمامًا، فإن باريس ولندن بالنسبة لي هما نفس المدينة"، ويعرب ميل عن مخاوف مماثلة في القرن التاسع عشر قائلًا: إن أوروبا تفقد "اختلاف طابعها وثقافتها المميز"، إذ "تجعل جميع النَّاس متشابهين"[12].

كلما ازداد تجانس العالم، ازدادت صعوبة تجربة أشياء جديدة في السَّفر. لكن الأمر ليس مستحيلًا. فالفكرة هي أن تبتعد عما تعرفه، فبالنسبة للرحالة الغربي هذا يعني الابتعاد عن المطارات الفخمة، وتجنب المقاهي الإيرلندية ومحال ستاربكس، والاختلاط بالنَّاس والأماكن بشكل مباشر. فكما تقول

---

(11) Bryson (1989: 187).

(12) Rousseau (1921) and Mill (2015: 71).

مايارت: يمكنك أن تشعر بأنك جسور كالمستكشفين الذين يشرعون من المجهول، في أول مرة تخاطب فيها سائق سيارة أجرة "حاذق" في باريس، أو تغامر بالنزول إلى حانة في التبت من أجل وجبة "رائحتها كاللحم الفاسد"[13]. وقد يكون من الصعب علينا أن نجد الغيرية، لكنها قطعًا موجودة في مكانٍ ما.

بدأت رحلتي إلى غير المألوف من غرونغن، وهي مدينة في أقصى شمالي هولندا. إنها في أقصى شمالي البلاد لدرجة أن الليل يهبط عليها في الثالثة عصرًا، وقد عشت هناك سنوات عديدة، وأمضيت أغلب ذلك الوقت في كتابة تاريخ نظريات الزمن في القرن السابع عشر. عشت مع الكتاب حتى مللته، وقد كان ضخمًا وصعبًا، لكنني في **آخر المطاف** أنهيت مسودته كاملة. وضغطتُ على زر "إرسال" في بريدي الإلكتروني، وأرسلته إلى الناشر، ثم تسللتُ في الظلام.

تجولت حول القنوات و"الطبقات" المفروشة بالحصى، أشاهد المتاجر والمقاهي المضاءة. كنت في حاجة إلى استراحة وإلى البدء في التخطيط لإجازة في مكانٍ ما يختلف تمامًا عن غرونغن التي تشبه علبة الشوكولاته الغريبة الجميلة.

مررت في فيسماركت بكشك يبيع منحوتات من الورق المقوى، وكان غزال أمريكي ضخم فضي (موظ) يحدق بي، وفي خطمه كل المسطحات والزوايا، وكانت القرون الزرقاء المصنوعة بطريقة الورق المطوي (الأوريغامي) تبرز إلى أعلى، فقررت أن أزور ألاسكا.

في الأسابيع التالية، اختلط بحثي عن رحلتي إلى الولاية التاسعة والأربعين إلى حدٍّ ما بفلسفة السَّفر. وقبل أن أفهم ما كان يحدث بالضبط، غادرت المكتبة ومعي كومة من الكتب: **كيف تتعامل مع الخرائط البريطانية والجولة الكبرى,فكرة البرية؟**

كنت أزوّد عيني بالمعرفة، وسرعان ما صار عقلي محشوًا بحقائق ملونة،

---

(13) Maillart (1950: 115).

لكن لا نفع منها، مثل: علبة عليها غبار من زينة عيد الميلاد، وكان ديكارت قد حزم ألفي كتابٍ في رحلته الأخيرة إلى السويد التي مات فيها، وكانت للمستكشِفات في العصر الفيكتوري دوافع خفية للسفر بالتنورات.

ونسي السّياح في أنتركتيكا كل ما كانوا يعرفونه عن البطاريق، وهذا ما انتهيت إليه في أرض شمس منتصف الليل، وأنا أقرأ مونتين.

كانت رحلة القطار إلى فيربانكس ساحرة كما جاء في الإعلان عنها، فقد توغلت العربات في الغابات المكسوة بثلج كبلورات السكر، ومرت ببحيرات تتناثر فيها حيوانات الرنة.

يمتد أحد مساري القطار فوق جسر إعصار جولش، وهو جسر يتقوس على ارتفاع ثلاثمائة قدم. تشبثت بالنافذة، وقد أحاطت أطراف القبعة الصوفية بأذنَي، وأنعمت النظر في عالم من الصخور أحادية اللون، وأشجار الصنوبر الممتدة في الأسفل.

وبالرغم من جمال رحلة القطار هذه، كانت عادية ومألوفة بالنسبة لمعظم الركاب.

كانوا يزورون أقاربهم في مدينة وسيلا، أو يتجهون إلى منطقة تالكيتنا، أو يتسوقون. كنت واحدة من القلائل اللواتي يقمن برحلة إلى أراضٍ مجهولة، مسافرة إلى بلد ترامب القطبية، فالآخر بالنسبة لشخصٍ ما ليس كذلك بالنسبة لغيره.

أخيرًا، انتهى الصخب حولي، وفي آخر الأمر، وجد المعلقون السياسيون أرضية مشتركة لاشمئزازهم من بيرني ساندرز، إذ توصلوا إلى: "أنه اشتراكي".

كنا جميعًا نسافر عبر نفس الطريق في نفس المكان، لكن كلًا منا كان يقوم برحلة مختلفة.

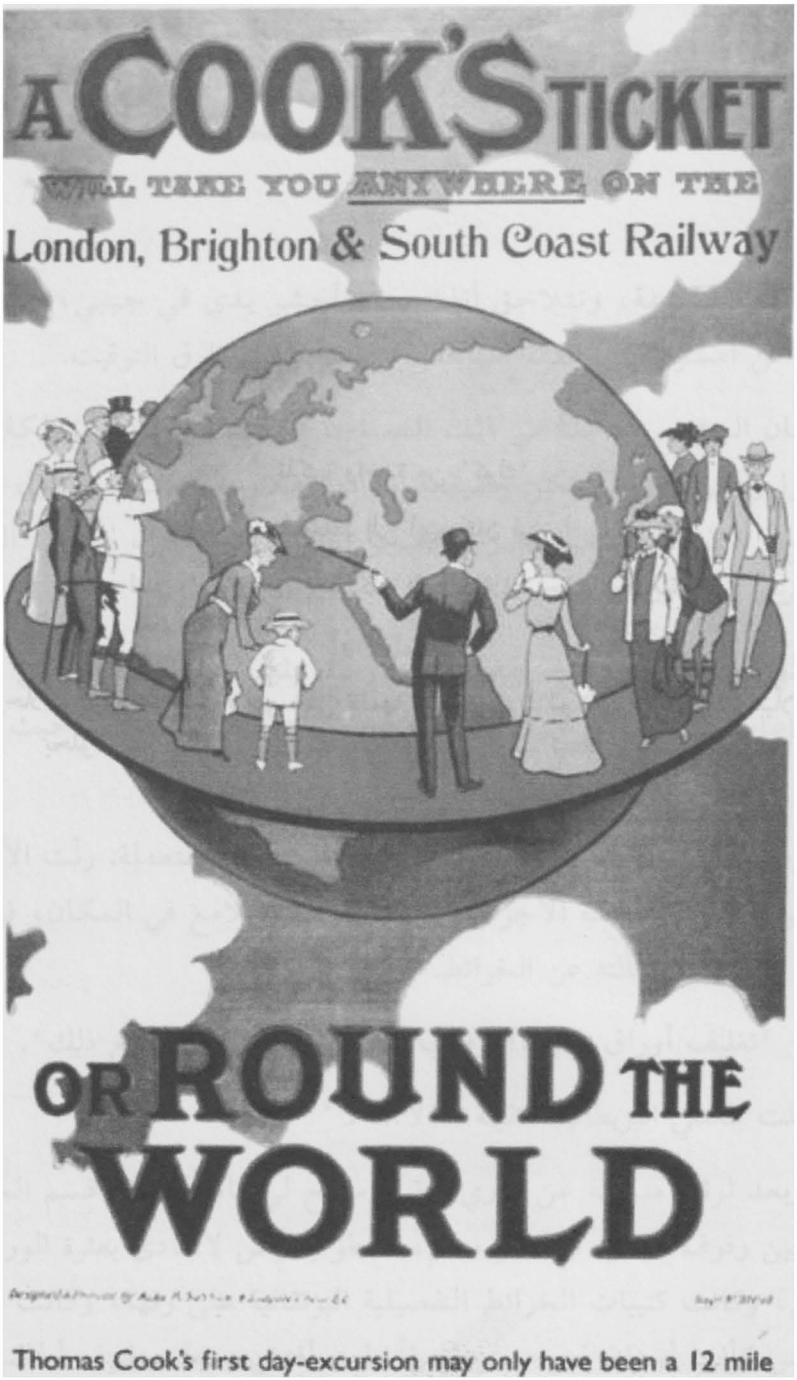

Thomas Cook's first day-excursion may only have been a 12 mile

تذكرة واحدة من "كوك"

ستأخذك إلى أي مكان في

لندن، وبرايتون، والسكك الحديدية الساحلية الجنوبية

أو حول العالم

لعل رحلات اليوم الواحد الأولى التي نظمها توماس كوك لم تكن تتجاوز 12 ميلًا، لكن بحلول عام 1872، كان ينظم رحلة حول العالم تستغرق ثمانية أشهر.

إعلان تذكرة رحلات كوك عام 1904.

2

ما الخرائط؟

براين هارلي عن خداع رسم الخرائط

كنت أركض بسرعة، وتتلاحق أنفاسي، وأحشر يدي في جيبي، وكنت قد سافرت من أمستردام في الليلة السابقة، فأصابني إعياء فارق التوقيت.

كان المؤتمر قد بدأ في ذلك الصباح، لكنني شعرت كأن الكلام عن سبينوزا والفراغات لم تكن حقيقية، كأنها هلاوس، وكنت أحاول طردها بالخروج، كان الهواء معبّأً بـ: رائحة نيويورك، ورائحة الخبز، واللحم المقدد، والنفايات.

ظهرت شمس آذار الضعيفة تطلي الأرصفة بلون ذهبي، فنظرتُ إلى الأعلى عبر فراغات سلالم الطوارئ الحديدية، وسمعت هديل الحمام، حيث تألقت السماء بلون أزرق.

وجدت، بمساعدة جوجل، متجرًا لبيع الكتب المستعملة. رنّت الأجراس فوق الباب، وكانت هذه الأجراس الشيء الوحيد اللامع في المكان، فوجدت موظف المبيعات وسألته عن الخرائط.

- "تغليف أوراق تغليف؟ وقطب جبينه قائلًا: "إننا لا نبيع ذلك".

قلت بلكنتي البريطانية الثقيلة: "لا... لا".

وبعد ثرثرة سريعة عن **هاري بوتر**، سمح لي باستكشاف قسم الخرائط. سرت بين رفوف الكتب في ممر معتم، أخطو بحرص لأتفادى بعثرة الورق على الأرض، وكانت كتيبات الخرائط التفصيلية البرتقالية على رفها، وكانت صفوف الأطالس كأنها أسنان غير مستوية، فأخذت أفتش وسط صفوف أطالس راند

ماكناللي Rand McNally الحمراء، كان مقررًا أن أصل إلى أنكوريج بعد أسبوعين، فأردت أن أعدَّ خططي.

في طرف الصف وجدت **خارطة ولاية ألاسكا**، ففتحت الطيات التي تشبه "الأكورديون"، فسقطت الورقة متموجة فوق حذائي.

ما إن فتحت الطيات، حتى أضاءت الخارطة المكان نتوءات الجزر والضفاف الساحلية تتجه نحو البحر.

والمناظر الطبيعية تتألق باللونين الأبيض والأخضر، وتتخللها الطرق والأنهار بانسيابية كأنها شرايين. ويتفرع نهر يوكون على الورقة، وكانت بها نقاط تمثل مسار خط أنابيب النفط في ألاسكا، وتبدو أسماء الأماكن، كما لو كان صانع الخارطة يستمتع بالمغامرات: ليفينغود (رغد العيش)، وديدهورس (الحصان الميت)، وموس كريك (جدول الموظ)، وكولدفوت (القدم الباردة).

الخرائط حولنا في كل مكان طوال الوقت، ونادرًا ما خطر في ذهني التفكير في طبيعتها. ما الخرائط؟ في نسختي المُصْفرّة من كتاب جيمس مونتيث James Monteith دروس في الجغرافيا تعرّف الخارطة بأنها: "صورة لكل سطح الأرض أو جزء منه"[1].

وقبل أن أبدأ البحث، كان هذا يبدو صحيحًا، إذ انطبق الوصف على خارطة مانهاتن التي وجدتها على جوجل، وقطعًا لا يفترض أن تكون الخرائط **صورًا** بالمعنى المتعارف عليه، فيمكنك أن تشكّل خارطة من الصلصال، أو تنسجها من القماش والخيوط، بل يمكنك أن ترسم خارطة وشمًا على جسدك (كان وشم خارطة العالم[2] شائعًا في عام 2016).

كذلك لا تصف الخرائط سطح الأرض، وإنما يمكن أن تصف أشياء فوقنا أو تحتنا: أنظمة الطقس، قطارات الأنفاق (المترو)، خزانات النفط، كما يمكن

---

(1) Monteith (1866: 16).

(2) https://www.popsugar.co.uk/smart-living/Map-Tattoos-41902743#photo-41902743.

أن تصف أيضًا أشياء بعيدة عن الأرض، مثل: الأقمار، والنجوم، والثقوب السوداء. ولو أراد مونتيث أن يكون أشد دقة، لقال: إن الخارطة "تمثيل مرئي" يمثل "أي جزءٍ من الواقع"، لكنني أظن أنه قدم الأمور الجوهرية.

كان هذا ما أعتقدُه حين بدأت القراءة عن فلسفة الخرائط، فكلمة "خارطة" 'map' مشتقة من الكلمة اللاتينية *mappa* التي تعني: "قطعة قماش بيضاء"، كمفرش طاولة، وقد صنع البشر الخرائط قبل اللاتينية، فقد رُسمت أقدم خارطة موجودة للعالم قبل حوالي 8000 سنة على جدار كهف في چاورا في منطقة ماديا براديش بالهند. وحتى القرن العشرين، كان النَّاس يعرّفون الخرائط بصفة عامة بنفس تعريف مونتيث[3].

وبحسب هذا التعريف تكون الخرائط "واضحة"، فهي تبدو كما ينبغي لها أن تكون، أي: تمثيلات للواقع.

ولا يعني هذا أن الخرائط لابد أن تتسم بالكمال أو الدقة، فالخرائط التاريخية لا تتسم بهذا ولا ذاك. ففي القرن الأول الميلادي، اشتكى بلوتارخ من الجغرافيين الذين يملؤون حواشي خرائطهم بعبارات، مثل: إن خلف العالم الذي نعرفه لا توجد إلا "صحراء رملية تعج بالحيوانات المفترسة، ومستنقعات لا يمكن الخوض فيها، وجليد منطقة سكيثيا، أو بحر جليدي".

انظر إلى إحدى تلك الخرائط في الشَّكل 2-1 من كتاب توماس بيرنت **نظرية الأرض** (1684) *Theory of the Earth*.

وضع بيرنت لعددٍ كبير من تلك الخرائط عنوانًا **مجهولاً** أو **غير معروف**، ونحن نضع لها عناوين: ولاية واشنطن، وكندا، وأنتركتيكا. الخرائط لا تتسم

---

(3) يجمع أندروز 321 Andrews (1996) تعريفًا للخرائط، بدءًا من عام 1649. على سبيل المثال: يعرّف ناثان بايلي في كتابه المعجم البريطاني Dictionarium Britannicum (1730) الخارطة بأنها: "شكل بسيط يمثل سطح أنحاء الأرض العديدة... أو إسقاط لسطح الكرة الأرضية، أو جزء منه". وبعده مئات السنين، تصف باربارا تايلور في كتابها الخرائط ورسمها Maps and Mapping (1992) بأنها: "رسم مسطح للعالم عند النظر إليه من أعلى".

بأي دقة. معظم أستراليا غير موجودة، وقام مَن رسَم الخارطة بفصل جزيرة عن الطرف الغربي للولايات المتحدة، وكانت خرائط القرن الثامن عشر بها عدد كبير من التفاصيل غير الدقيقة، لدرجة أن المسافرين كانوا يُنصحون بحمل بوصلات معهم، وبتدوين موضع الخطأ في الخرائط[4]. وعندما تطور العلم البشري والتكنولوجيا، زادت دقة خرائطنا بالتبعية، فالقمر الصناعي (الساتلايت) يصور كوكبنا بدقة لم نرها من قبل، فيمكن أن نثق تمامًا أننا لا تفوتنا أي كتل ضخمة من اليابسة.

كانت فكرتي عن الخرائط بهذا القدر من الوضوح دائمًا الأطالس، مجرد نوع من الكتب، خرائط البلدان؟ مفيدة في التخطيط للرحلات البرية. خرائط المدينة، مفيدة في العثور على المتاحف. لكنني كنت مقتنعة بمقالة برايان هارلي (1989) Brian Harley "تفكيك الخارطة". يستخدم هارلي الفلسفة ليبين لنا الجانب المظلم للخرائط.

"الميتافيزيقا" أحد فروع الفلسفة التي تبحث في الحقيقة، فهي تسأل: ما الحقيقة؟ وما الذي يمكن أن يكون حقيقيًّا؟ وكيف تبدو الأشياء الحقيقية؟ وتدرس الميتافيزيقا غالبًا ما حولنا: الذرات، والأجسام المادية، وعقولنا.

لكن يمكننا فرض النظرة الميتافيزيقية على كل شيء، وقد فرض هارلي هذه النظرة على الخرائط، فهو يرى أن بوسعنا تقسيم الخرائط إلى أجزاء، وبيان أن الخرائط معقدة ومبهمة، وتبتعد إلى حدٍّ كبير عن الدقة، وهي أهداف للنفوذ والسلطة، كما أنها مضللة من الجهة الميتافيزيقية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(4) بدون اسم، نقلًا عن Churchill (1704: lxxvi).

الشَّكل 2-1 بيرنت: **نظرية الأرض**

يقدم هارلي خطين للجدل:

الخط الأول: يبين هارلي أن الخرائط أدوات "بلاغية"، فالخرائط تسعى إلى إقناع قرائها أو التأثير فيهم. وعبر التاريخ، كان رسامو الخرائط يضعون بلادهم في مركز الخارطة حين يرسمون خارطة العالم، ويرى هارلي أن ما يوجد في مركز الخارطة، وما لا يوجد اختيار بلاغي، فرسمُ أثينا أو القدس في مركز خارطة ما يضيف مغزىً ضمنيًّا "لقوة جيوسياسية" لما يُدَّعى أنه تمثيل دقيق للكوكب.

وعلى المِنوال نفسه، ضع في حسبانك ما تمثله الخرائط، وما لا تمثله. خُذ أطلسي لطرق **هولندا**، ستجد أن هذه الخارطة تُظهر القلاع والكنائس، في حين أن منازل البلدات غير واضحة، وهي تتتبع حدود القصور الريفية، لكنها تتجاهل الحدود بين المزارع، ويتم ذلك على الخارطة بتكبير بعض الرموز وتقليص رموز أخرى، وجعل بعض أسماء الأماكن بالخط العريض، والبعض الآخر بخطٍّ مائل. وبعض الخطوط منقطة، وبعضها سميك وملون. ويقول هارلي: إن الخرائط تجسّد قواعد "النظام الاجتماعي"، فإن "من المُسلَّم به" في مجتمع رسامي الخرائط أن القلعة أهم من منزل فلاح، وقصر أحد الأعيان أهم من منزل مُزارع، وهذا معناه أن من يرسم الخارطة لا يسجل شكل المنظر المادي أو البشري وحسب، بل يسجل أيضًا تضاريس الإقطاع أو الطبقة الاجتماعية[5].

ويمكننا أن نتصور فكرة هارلي باستخدام خرائط العالم[6]. ففي عام 1569، صنع رسام الخرائط الفلمنكي چيراديوس ميركاتور Geradus Mercator خارطة 'ميركاتور' للعالم، انظر الشَّكل 2-2.

---

(5) Harley (1989: 6).

(6) يشير هارلي نفسه إلى مناقشة خارطة الطريق السريع الرسمية لولاية نورث كارولاينا في Wood and Fels (1986)، وقد نوقشت الموضوعات نفسها في كتاب قوة الخرائط Woods, 1992, The Power of Maps، وكتاب كيف تتعامل مع الخرائط Monmonier, 1996, How to lie with Maps

وفيها كانت أوروبا الغربية في المركز تمامًا، وكانت خارطة ميركاتور تُستخدم في المدارس، بالرغم من أنها تفتقر إلى الدقة من مناحٍ عدة، إذ تنكمش فيها إفريقيا وإستراليا، بينما تهيمن أنتركتيكا (القارة القطبية الجنوبية) على الكل.

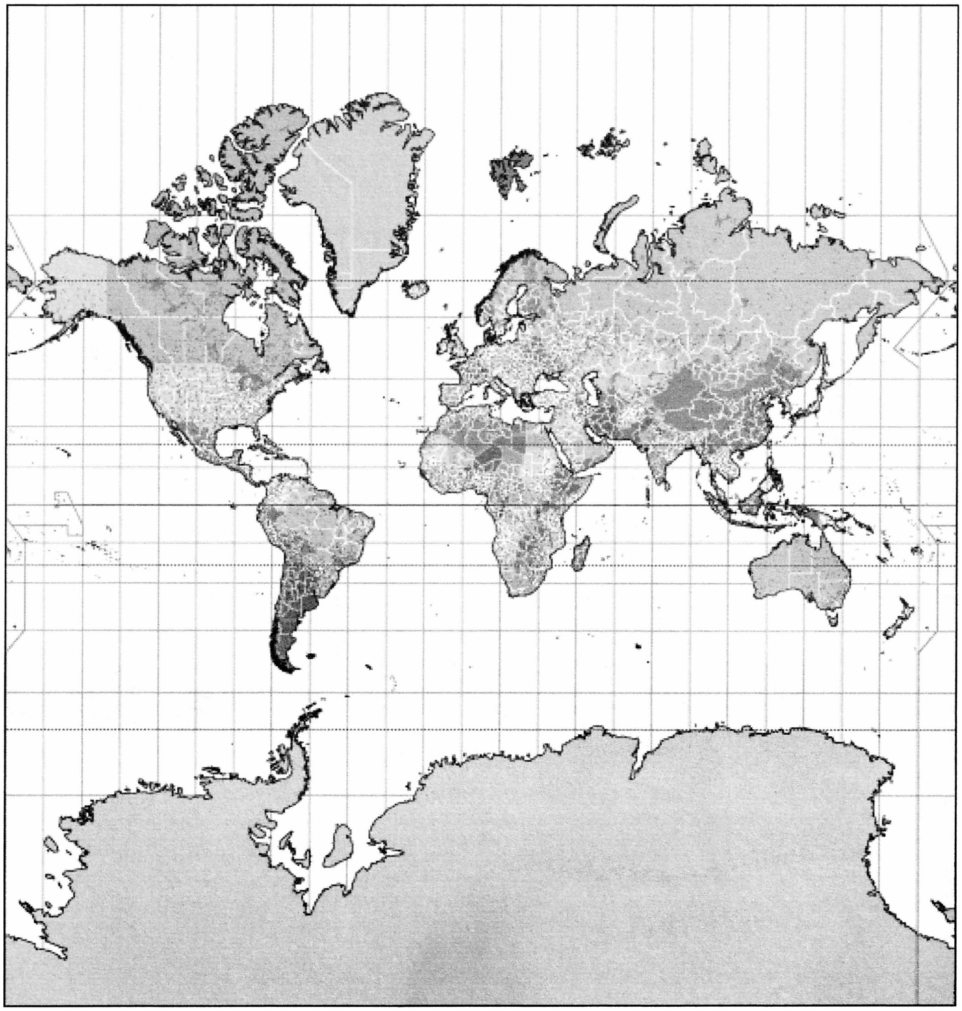

الشَّكل 2-2: خارطة ميركاتور

الشَّكل 2-3 خارطة الأوثاغراف

كانت خارطة "الأوثاغراف" التي قدمها مؤخرًا رسام خرائط ياباني*، تهدف إلى تصحيح هذه الأخطاء. انظر الشَّكل 2-3. لكن هذه الخارطة جعلت اليابان أيضًا أقرب إلى المركز.

إذا كتبتَ على محرك بحث صور جوجل عبارة "خارطة العالم الأمريكية"، سترى عددًا كبيرًا من خرائط العالم تضع الولايات المتحدة في المركز، وبالمثل تضع خرائط العالم الصينية الصين في المركز. وفي عام 2006، قام وزير الخارجية النرويجي بتمويل مجموعة جديدة من الخرائط، تركز على "أقصى شمال" الكرة الأرضية، أي: على النرويج والمناطق القطبية المحيطة. وشرح الوزير في إحدى خطبه أنه ينبغي ألا يُنظر إلى أقصى الشّمال بعد الآن بوصفه "برية باردة مقفرة"، فهو مكان له أهميته في أوروبا، إذ إنه "منطقة طاقة" صاعدة[7]. ويهدف الوزير النرويجي إلى وضع النرويج في مركز الخارطة بطرائق عدة لا واحدة.

ما أهمية ما تمثله الخرائط؟ خذ الحدود على سبيل المثال، فبعض الخرائط تضع التبت داخل حدود الصين، وبعضها يضع الحد الفاصل بين فلسطين وإسرائيل بعيدًا جدًا عن القدس، وثمة خرائط أخرى تجعل كشمير جزءًا من باكستان، ويحقق الباحثون في وضع الحدود عند المناطق المتنازع عليها على خرائط جوجل، وقد بينوا أن موقع هذه الحدود يتغير، بحسب مكان خادم الشبكة الذي تستخدمَه. على سبيل المثال: إذا كان الخادم روسيًّا تُظهر خرائط جوجل المنطقة المتنازع عليها في القرم بوصفها روسية وليست أوكرانية[8].

(*) هو إسقاط لخارطة العالم ابتكره المهندس المعماري هاجيمي ناروكاوا Hajime Narukawa عام 1999، ويقول: إنه عالج بها مشكلة استمرت لقرون، وهي كيفية رسم الأرض الكروية على سطح مستوٍ. يؤطر هذا الإسقاط المكونات المادية للعالم في مستطيل ثنائي الأبعاد في محاولة لتمثيل أحجامها النسبية بأكبر قدرٍ ممكن من الدقة، وذلك عن طريق تقسيم العالم إلى 96 مثلثًا، ما يجعله رباعي الأسطح، ثم يفتحه ليصبح مستطيلًا. (المترجمة).

(7) https://www.regjeringen.no/en/aktuelt/the-high-north-top-of-the-world-top-of-t/id420872/.

(8) https://www.dur.ac.uk/ibru/news/boundary_news/?itemno=21759.

وعلى نحو أقل وضوحًا، تعيد المملكة المتحدة ترسيم الدوائر السياسية الانتخابية، وبالرغم من أن هذا يفترض أن يكون استجابة لتغير ديموغرافية السكان، يرى النقاد أن الحكومة تحاول اكتساب ميزة سياسية على حساب المعارضة[9].

وإذ بيّن هارلي أن الخرائط تسعى إلى التأثير في النَّاس، انتقل إلى خط جدله الثاني: الخرائط تجسد القوة، فقد كانت الممالك والحكومات والكنائس تموّل رسم الخرائط لتعزيز غايتهم الخاصة، وتسمى وكالة الخرائط القومية البريطانية "فحص العتاد Ordnance Survey". وهو اسم غريب؛ لأن كلمة "Ordnance" تشير عادةً إلى المعدات الحربية، ويكمن السبب في أصول "فحص العتاد" التي تعود إلى أربعينيات القرن الثامن عشر، ذلك أن دوقًا إنكليزيًّا، اسمه 'بوتشر' (الجزار) كومبرلاند، قرر أن رسم خرائط المرتفعات الإسكتلندية أمر جوهر في قمع المتمردين الإسكتلنديين.

وتحتوي الخرائط معلومات تحظى غالبًا بالحماية، كـ: المعلومات الاستخباراتية.

ويشير هارلي إلى مقال في صحيفة **نيويورك تايمز** في عام 1988: "ضابط سوفييتي يعترف: كانت الخرائط تُفبرك طوال خمسين عامًا"[10]. وتصف المقالة كيف كانت الخرائط الروسية العامة تزيّف عمدًا.

كانت الأنهار والشوارع تُرسم في غير مكانها، وكانت الحدود تحرّف، والمعالم الجغرافية تحذف، (وقد لاحظ الجيش الأمريكي هذه الأخطاء، فأعد قائمة بالمدن "المُرحّلة"؛ لتكون الطرق مربكة لمن يتجول).

وفي عام 2016، كشفت وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA عن دفعة ضخمة من الخرائط التي رفعت عنها السرية مؤخرًا، وفيها خرائط لموسكو،

---

(9) http://www.bbc.co.uk/news/uk-politics-37337175.

(10) http://www.nytimes.com/1988/09/03/world/soviet-aide-admits-maps-were-faked-for-50-years.html.

وبرلين المقسمة [شرقية وغربية]، وبغداد، وكوبا. فالخرائط تجسد معرفة وقوة.

أمدنا هارلي بميتافيزيقا بديلة للخرائط، ففي وصفه "الغامض" للخرائط، الخرائط ليست تمثيلات للحقيقة، وإنما هي حزم من المعلومات، ينتجها البشر للتواصل مع غيرهم من البشر، وتسعى هذه الاتصالات إلى إقناع قرائها، وهذا الجزء من العالم مركز عسكري أو فكري، فدولةٌ لها هذه الحدود، إذًا فمستودع النفط هنا، وبدلًا من أن تمثل الخرائط الحقيقة، قد تسعى إلى اختلاقها.

لو أن كل الخرائط في هذا العالم أُتلفت وتلاشت على يد حاقد، لعاد كل إنسان أعمى كما كان، ولَأصبحت كل مدينة غريبة عن المدينة المجاورة لها، ولأصبح كل معْلمٍ علامة لا معنى لها تشير إلى لا شيء.

> لكن عند النظر إليها، والإحساس بها، وتمرير الإصبع فوق خطوطها، نجدها شيئًا باردًا، خارطة، كئيبة ومملة، ولدت من فرجار ولوح رسم، ذلك الخط الساحلي هناك، الالتواء الوعر بالحبر القرمزي، لا يُظهر الرمال، ولا البحر، ولا الصخور، ولا يخبرنا عن أي بحّار، جاب بحارًا واسعة لا حدود بينها، ليهدي إلى مَن بعده رسمًا لا يقدر بثمنٍ على جلد غنم أو لوح من الخشب، وهذه البقعة البنية التي تدل على الجبال، لا تعني شيئًا مهمًّا للعين العادية، بالرغم من أن عشرين رجلًا، أو عشرة أو حتى رجل واحد، يمكن أن يكونوا حتى أهدروا حياتهم في تسلقه .
>
> - بيريل مركهام، **الغرب ليلًا**، (1942).

وليس هذا هو كل الغريب في الخرائط، فقد تحدى النَّاس في الآونة الأخيرة فكرة أن الخرائط خارج العقل، فلعلك تتساءل حين تدرس ميتافيزيقية أي شيء: هل وجوده يعتمد على العقل؟ وإن كنت **واقعيًا** تجاه أي شيء، فإنك ترى أن وجوده لا يعتمد على العقل، فأنا أتبع المذهب الواقعي تجاه: الأشجار، والجبال، والنجوم. وأعتقد أنه إذا قضى وباء ما على الكائنات الواعية على الأرض، فإن هذه الأشياء ستبقى.

وعلى العكس من ذلك، إن كنت **مثاليًا** تجاه شيءٍ ما، فإنك ترى أن وجوده يعتمد على العقل. ويمكنك أن تتخذ المذهب المثالي في شتى الأمور، فبعض فلاسفة العقل مثاليون فيما يتعلق بالعاطفة. وهم يرون أنه إن لم يوجد عقل، فلا يمكن أن يوجد حزن ولا سعادة، وبعض فلاسفة الإدراك مثاليون فيما يتعلق باللون، فهم يرون أن اللون ميزة ذهنية غريبة لدى الكائنات الواعية، وفي الواقع ليس بالعالم إلا أشعة ضوء وجزيئات، فالألوان: الزرقاء، والخضراء، والصفراء، لا توجد إلا في رؤوسنا.

فهل ينبغي أن نتخذ المذهب الواقعي أم المذهب المثالي فيما يتعلق بالخرائط؟ قد نظن أن علينا صراحةً أن نكون واقعيين تجاهها، فهي أشياء مادية يمكن أن نحملها بأيدينا، وليست أفكارًا ولا تصورات.

لكن روب كيتشن ومارتن دودج ذكرا مؤخرًا أن الخرائط **لا تصير** خرائط إلا عند قراءتها، فالخارطة غير المقروءة ليست إلا "مجموعة من: النقاط، والخطوط، والألوان... مجرد حبر على ورق". وهما يزعمان أن هذه الورقة لا تصير خارطة إلا إذا قُرئت أو فُسرت، "فقد صُنعت لتؤدي عملًا في العالم"[11]. وعندئذٍ فقط تُفك شفرة النقاط والخطوط، وتوضع في سياق بشري، ويصبح لها معنى. ولعلك ترى أن ذلك ينطبق على الكتاب أيضًا، فرواية **الكبرياء والتحامل** *Pride and Prejudice*، من دون أن يقرأها أحد، هي مجرد حبر مطبوع على رقائق من لب الأشجار.

فإن كان كيتشن ودودج على حق، فإن الخرائط أشياء **تعتمد** على العقل، فإذا كانت الخرائط تعتمد على قراءتها، ولا يستطيع القراءة سوى العقل البشري، فإن الخرائط تعتمد على العقل البشري، وينبغي أن نكون مثاليين تجاهها، وحين تفنى البشرية، سنخلف وراءنا أوراقًا مخربشة وليس خرائط.

والشيء الغريب الأخير في الخرائط، أنها ربما لا تكون **أشياء** حقيقية على

---

(11) Kitchin and Dodge (2007). For commentary, see Fern?ndez & Buchroithner (2014) and Rose-Redwood (2015).

الإطلاق، ففي حالة الخرائط الموجودة على الإنترنت على سبيل المثال: لا نعرف متى صنعت أول خارطة، لكننا نعرف بالتأكيد متى صنعت أحدث خارطة: منذ جزء من الثانية. وقد اخترعت شبكة الإنترنت العالمية في عام 1989، في نفس العام الذي نشر فيه هارلي مقاله. (أنا لا أكاد أتذكر الحياة قبل الإنترنت، لكن لا أحد من طلابي يتذكرها)، وقد أحدث الإنترنت ثورة في رسم الخرائط، فقبل اختراعها، كانت الخرائط تعتمد على الورق وتقنيات الطباعة، وكان ثمن صنع الخرائط وشرائها باهظًا.

أما اليوم، فيمكننا رسم الخرائط واستخدامها بلا مقابل، وهي عملية تنتزع سلطة صنع الخرائط من الملوك والحكومات، وتضعها في أيدي النَّاس[12].

ويقدّر الخبراء عدد الخرائط التي تنشر على الإنترنت يوميًّا بأكثر من مائتي مليون خارطة، وهذا أكثر من عدد الخرائط المطبوعة على الورق في العالم بأسره[13].

ليست خرائط الإنترنت مجانية وحسب، وهي تحمل صفة **العمليات**.

فالميتافيزيقا تميز بين "الأشياء" و"العمليات". فالأشياء تشمل: المقاعد، والغلايات، والمزهريات، أي: الأشياء التي لا تتحرك ولا تتغير، أما العمليات، فتشمل الأنهار والعواصف الرعدية، فالعاصفة ليست جامدة، بل تنتشر وتتغير باستمرار.

فهل الخرائط أشياء أم عمليات؟ إننا نظن عادة أن الخرائط أشياء، فالخرائط في هذه الصفحات تقبع ساكنة، لكن خرائط الإنترنت لا تظل ساكنة،

---

(12) انظر منصة تابعة للويكيبيديا أنشئت عام 2004. ويتواصل تحديث مشروع رسم الخرائط عبر الإنترنت هذا عن طريق مجتمع مصممي الخرائط. وباستخدام أدوات نظام تحديد المواقع العالمي (GPS)، يسهم فيه مصممو خرائط متطوعون ويحدثون بيانات: الطرق، والممرات، والمقاهي، ومحطات السكك الحديدية في كل أرجاء العالم. ولهذه الصيغ الجديدة من تصميم الخرائط أهمية خاصة في بلاد التي لا توجد بها هيئات الرسم الخرائط المدنية، مثل: بيرو. انظر Gerlach (2015).

(13) See Peterson (2003: 1-2)

فخرائط جوجل وخرائط آبل وأوبن ستريت ماب OpenStreetMap تتغير باستمرار وتُحدَّث من دقيقة إلى أخرى.

فيمكننا أن نفكر في خرائط الإنترنت بِعَدِّها قصيرة العمر للغاية، ففي كل مرة يتم تحديث خرائط جوجل، وتولد خريطة. وعندما تُحدَّث الخرائط مجددًا، تزال الخرائط القديمة، وتولد أخرى مكانها، فإن كان هذا صحيحًا، فإن كل خريطة من خرائط جوجل لا يستمر وجودها إلا بضع ثوانٍ مهما كانت المدة الفاصلة بين التحديثات.

والمشكلة في تصور أن برنامج "خرائط جوجل" يضع الخرائط ويزيلها باستمرار هي أن ذلك لا يناسب خبرتنا في استخدام البرنامج.

إذ لا **يبدو** الأمر كأن الخرائط تأتي وتذهب باستمرار، بل كأن خريطة واحدة تتغير على الدوام عن طريق تحديثها.

ولعل الأفضل لنا أن نتصور أن "خرائط جوجل" عمليات، فبين خرائط الإنترنت والعواصف الرعدية أو الأنهار عوامل مشتركة أكثر من تلك التي بينها وبين المقاعد أو الغلّايات.

توجد خرائط أقدم أقرب إلى العمليات أيضًا، فلقد رأيت مرة في المكتبة البريطانية خارطة حربية لوسط لندن، وكانت الخطوط الأصلية في الخارطة محجوبة جزئيًا بقطع مستطيلة من الورق، مطوية وملصقة بعناية، فحين دمرت قاذفات القنابل شوارع لندن، أزالها النَّاس من الخارطة، وهذا ما حدث أيضًا لخرائط الأرض الوسطى [التفاعلية] التي ابتكرها جيه. آر. آر. تولكين، فبينما يتطور تفكير تولكين، يلصق أجزاء جديدة على الخريطة فوق الأجزاء القديمة[14].

---

(14) Wood (1992: 30-1).
يناقش وود عملية إنشاء خارطة تولكين، لكنه يرى أن مسألة أن الخرائط تنمو وتتطور "لا يحدث دائمًا"، وإنني لأتساءل هل كان وود سيراجع رأيه في ضوء خرائط الإنترنت.

وبالرغم من أن الخرائط كائنات غريبة، فإنني أستمتع بها، ولست وحدي في ذلك. ففي عام 1589، علق الجغرافي توماس بلانديفيل قائلًا: إن كثيرًا من النَّاس "يسرهم النظر إلى الخرائط"، بالرغم من أنه أضاف أن كثيرًا من النَّاس لا يفهمونها[15].

اتخذ كثيرٌ من الكتّاب من الخرائط موضوعًا للكتابة، ففي قصيدتها "الخارطة" تخلط إليزابيث بيشوب بمرح بلدات نوفا سكوشيا بالخرائط التي تصفها. (تجد بيشوب أيضًا جمالًا في دروس مونتيث الجغرافية الصعبة، وتستخدمها في عملها). وتصف قصيدة شارون أولد "طبوغرافية"* أجساد المحبين بأنها خرائط[16].

واليوم، يمكنك أن تشتري خرائط غريبة لمصانع تقطير الويسكي في إسكتلندا، وخرائط لمنازل الجنيات في آيسلندا.

ويمكن أن تقلق من نظرة هارلي إلى الخرائط بوصفها كائنات سلطوية محملة بالدمار تراقب هذه السخرية، فلنأخذ مثلًا خرائط موردور التي أنشأها تولكين، فهي تصف مكانًا يُسمى: "جبل الهلاك"، لكنها بعيدة تمامًا عن أن تكون محملة بالدمار، فثمة جانب أخف وطأة في رسم الخرائط[17].

أقنعتني الفلسفة أن الخرائط تكذّب مظهرها البسيط، ففي الشَّكل 2-4 يوضح أول درس في كتاب مونتيث **دروس في الجغرافيا** أن هذه صورة **للعالم** أو **للأرض** التي نعيش عليها، إنها **كرة عظيمة**، وما تراه منها هو الجزء الخارجي أو السطح، وهو إما يابسة وإما مياه.

---

(15) Blundeville (1589: To the Reader).

(*) رسم ملامح سطح الأرض رسمًا دقيقًا. (المترجمة).

(16) See Bishop (2014) and Olds (2005).

(17) See Dodge and Perkins (2015) and (1987).

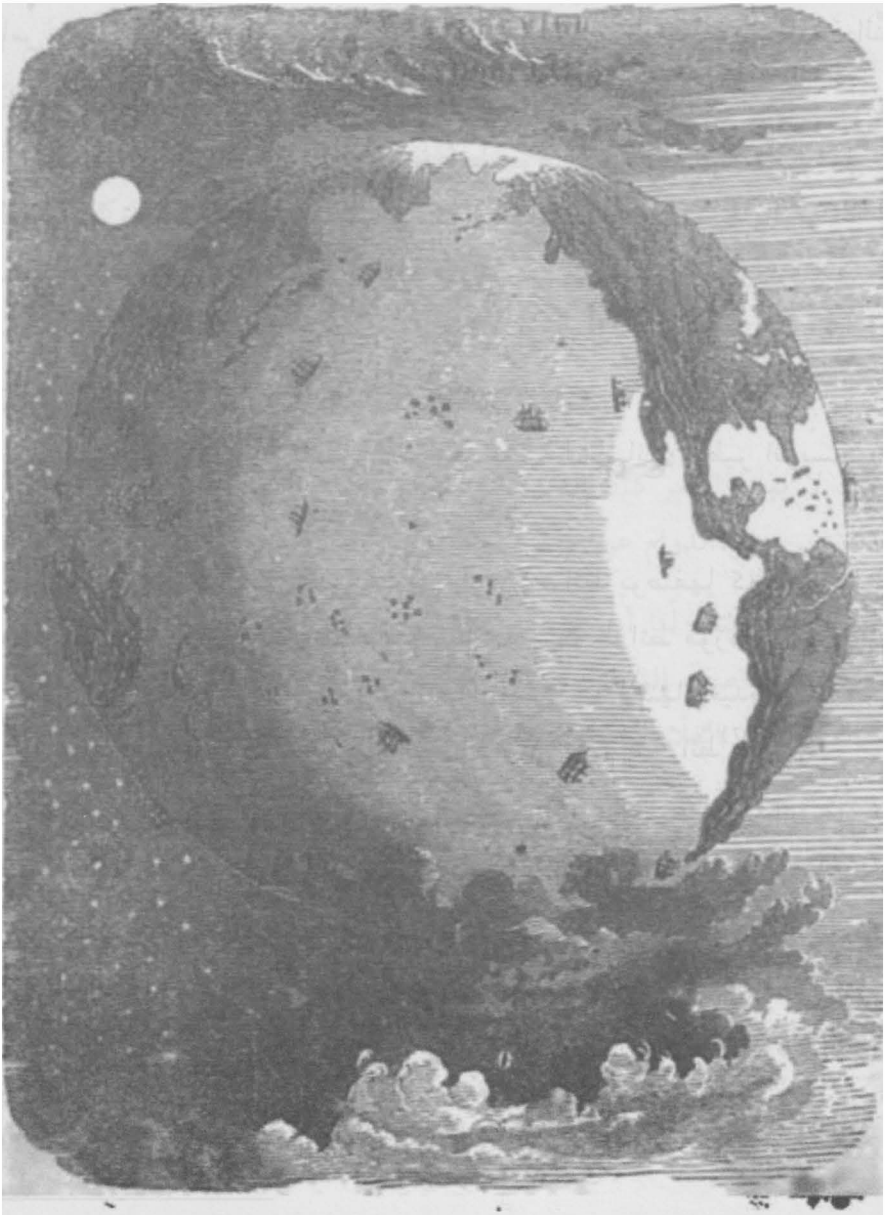

الشَّكل 2-4 **دروس في الجغرافيا** لمونتيث

وبالرغم من وصف مونتيث المتميز، فإنه يفتقر إلى تعقيد الخريطة التي تعج بالتفاصيل الدقيقة. فالخرائط تشبه العجينة الهشة (باف باستيري): بها طبقات رقيقة غير مرئية، وإنني لأتساءل إن كان لهذا علاقة بسحر الخرائط، فإننا ننجذب غالبًا إلى ما يتسم بالقوة: النَّاس، والسيارات، والعواصف. ويمكن أن تكون الخرائط بنفس القوة؛ بسبب طبقاتها.

قبل أن تغادر الوطن

خذ معك كمية من

مقوي الزنجبيل من باركر

فإن استعمال هذا الدواء اللذيذ من حينٍ لآخر سيحميك من أي تبعات ضارة قد يسببها تغير الطعام أو الماء، وسيجد فيه المسافرون فاتحًا للشهية لا مثيل له، ومنشطًا على أعلى مستوى دون أي مواد سامة. وهو يحفظ: المعدة، والأمعاء، وأعضاء الجهاز الهضمي ويقويها، وهو علاج فعال لـ: دوار البحر، وعسر الهضم، والدوسنتريا، وغيرها. كما أنه

أفضل علاج يمكن استعماله

لاستعادة الصحة والقوة

فزجاجة من هذا المقوي تجعلك بصحة جيدة ومزاج طيب، وهكذا تزيد متعتك في أي رحلة.

يُباع لدى جميع تجار العقاقير مقابل 50 سنتًا أو 1 دولار

استفد بالتوفير عند شراء حجم الدولار

المالك هيسكوكس وشركاه

163 شارع وليام، نيويورك

BEFORE LEAVING HOME

PROVIDE YOURSELF WITH A SUPPLY OF

PARKER'S GINGER TONIC.

The occasional use of this delicious medicine will prevent any dangerous consequences from changing diet or water, and travelers will find it an unequalled appetizer and an invigorant to the highest degree, without intoxicating properties. It strengthens the Stomach, Bowels, and Digestive Organs, builds up the system, is a sure remedy for Sea Sickness, Dyspepsia, Dysentery, etc., and is the

BEST MEDICINE YOU CAN USE FOR

RESTORING HEALTH AND STRENGTH.

A bottle of this Tonic by keeping you in good health and spirits will greatly increase the pleasure of any journey

Sold by all Druggists at 50 Cents, and $1.00.

LARGE SAVING IN BUYING THE DOLLAR SIZE.

HISCOX & CO., PROPRIETORS,

163 WILLIAM STREET, N. Y.

3

فرانسيس بيكون في فلسفة العلم والدجاجة المجمدة

حين نزلت من القطار في فيربانكس، لفح وجهي هواء شديد البرودة طعمه معدني، ومع خفوت ضوء النهار تألقت العربات بلون الغسق الوردي، وحاولت ألا أبتسم حين مر بي الزوجان مندفعين ليوقفا سيارة أجرة، حملت حقيبة الظهر، وسلمت على مَن تحدثت معهم خلال الرحلة. تلك المرأة ذات القلنسوة الصوفية الزرقاء التي كانت تقتسم البيض المسلوق، حين كانت تقول: إن أوباما زوّر شهادة ميلاده. ومحصل التذاكر الذي كان يعتقد أن الحكومة تحوّل الشفق القطبي إلى أسلحة.

ولأنني كنت محشورة في مقعدٍ طوال اليوم، قررت أن أذهب إلى فيربانكس سيرًا. كان الجو دافئًا إلى حدٍّ ما حين بدأت السير، لكنني لم أرَ أي مخلوق آخر في الشوارع.

بدت ضواحي المدينة فقيرة وخاوية، وكانت الثلوج عالقة بالأسطح والمساحات الخضراء، وكان النهر لا يزال متجمدًا.

كانت معظم الأبنية مكعبات رابضة في مكانٍ واحد، إذ يفترض أن ذلك أسهل في التدفئة، وعندما دخلت الضواحي المحاطة بالأشجار، ظهرت المنازل الخشبية، وكلها خطوط ومثلثات.

كنت أقيم في أحدها، منزل عتيق الطراز، بالمبيت والإفطار، وبه موقد من نوع "أجا"، وحوض استحمام بأرجل أسد.

كان المكان بسيطًا كما تمنيت، وكان منمقًا على الطراز الأمريكي القديم،

ويعج بالحليات المذهبة والدانتيل، وعدد كبير من المفارش.

كنت الوحيدة المقيمة في المبنى، فحتى الفتاة التي قامت بإجراءات إقامتي لا تنام هناك.

شرحت لي الفتاة: "إنه آخر الموسم السّياحي، وقد انتهت الفعاليات الشتوية، لكن الوقت مازال مبكرًا جدًا لبدء الفاعليات الصيفية".

- "جميل، ألا يوجد ما يمكن عمله في المساء؟"

جفلت الفتاة، ورمت بي بنظرةٍ مفعمة بعبارة: "سائحة غبية".

- "صحيح".

قضيت المساء في الكتابة، وجلست في البهو الذي كان واسعًا، لكنه يعطيك إحساسًا بأنه ضيق، فهناك طاولة بالغة الضخامة من خشب الماهوجني تحتل الفراغ، وخزانات عرضٍ غير مُتناسقة تصطف على الجدران، وتبرز إلى الأمام بزوايا عجيبة، وكانت الثريات تلقي أشكالًا مُستطيلة من الضوء، تضفي لمعانًا على إطارات الصّور المُذهبة وأواني الشاي الفضية. لم تكن الإضاءة ساطعة بحيث تضيء الغرفة بالكامل، فظلت أطرافها مُظلمة، فكانت كتل الظلال تقبع في الزوايا. سَطَع ضوء جهاز الحاسوب المحمول إلى أعلى، فظهر ما بدا أنه ثور مسك* مُحنّط، فتساءلت عما كان يمكن أن يصنع به العلماء الأوائل.

يدين العلم الغربي بدَين ضخم لفرانسيس بيكون مفكر أوائل العصر الحديث، فذات يوم، اعتقد الأوروبيون أن بوسعنا فهم النباتات والحيوانات بمجرد التفكير فيها، أي: يمكنك أن تجلس على كرسي مريح و"تستنتج" أنَّ الطحالب نوع من النباتات، بينما الأشنات خليط من الطحالب والفطر، وقد دحض فرانسيس بيكون هذه الخرافة مع بداية القرن السابع عشر، إذ أحدث

(*) نوع من الظباء الضخمة له فراء كثيف أشعث وقرون كبيرة قوية منحنية، موطنه غابات التندرا في أمريكا الشّمالية وغرينلاند. (المترجمة).

تحولًا في فلسفة العلوم الأوروبية بإثباته أننا لا يمكن أن نفهم العالم الطبيعي بمجرد دراسته دراسة نظرية، وكان السَّفر أساس رؤية بيكون.

درس بيكون في جامعة كامبريدج، وسافر إلى أنحاء فرنسا قبل أن يبدأ مساره السياسي، وقد سطع نجمه، وخفت على مدار حياته، فعند سطوعه، كان بيكون عضوًا في البرلمان، ومستشارًا للملكة، ووزيرًا للعدل، وفي فترات خفوته، سُجن بسبب الديون، واتهم بالفساد، وفي مساره المهني، كتب بيكون في: الدين، والأخلاق، والقانون، والمجتمع والفلسفة، والعلوم، بل وجد وقتًا يكتب فيه جزءًا من رواية خيالية هي **أتلانتا الجديدة**.

خلال عصر بيكون، لم يكن "العلم" كما نعرفه اليوم موجودًا. لكن كانت الفلسفة. والفلسفة، بمعناها الواسع، دراسة الحقيقة، وعلاقاتنا بها. أما اليوم، فالفلسفة تضم كل شيء، من الميتافيزيقا إلى الأخلاق. ومن الجهة التاريخية، كانت الفلسفة أوسع نطاقًا، إذ كانت تشمل أيضًا "الفلسفة الطبيعية". والفيلسوف الطبيعي يدرس عالم الطبيعة، فيبحث في: بيولوجيا النبات والحيوان، وكيمياء السوائل الغريبة، وفيزياء الأجسام المتحركة والكواكب.

ثمة فروق عديدة بين الفلسفة الطبيعية والعلوم التي نعرفها اليوم، بالرغم من أنها تبدو شديدة الشبه بها، فحالما كان الفلاسفة الطبيعيون يدرسون الطيور والصخور، كانوا يدرسون أيضًا خلود أرواح البشر، وما خلقه الله في الأرض. وهذا هو سبب أن العلوم القديمة تتشابك إلى حد بعيد مع الفلسفة واللاهوت، فنظرية ديكارت الرائدة عن مد المحيطات تقوم بالأساس على ميتافيزيقية المادة عنده. ونظرية نيوتن في الجاذبية، ورصدها الرائد لحركات الكواكب، ترجع أصولها إلى الإيمان بالله.

ويفترض أن العلوم الغربية نشأت بوصفها منظومة مستقلة في القرن التاسع عشر: وقد سكَّ وليام ويويل William Whewell كلمة 'scientist' الإنكليزية (عالِم) عام 1833 (بعدما لاحظ أن السيد كوليريدج حذر السادة المشتغلين بالعلم من

أن يصفوا أنفسهم "بالفلاسفة")[1]. وعن طريق فلسفة العلوم، ضرب بيكون ضربة البداية في العملية التي ميزت بها العلوم نفسها عن الفلسفة.

إن الطاولات، والطيور، والتلال، والصخور، والنجوم، وما شابه تكوّن العالم المادي الذي نعيش فيه. ولأنَّ تدارس هذا العالم يتم عادة عن طريق العقل، فإن فلاسفة العصور الوسطى الذين أرادوا أن يفهموا أشجار البلوط كان سيفكرون في تلك الأشياء، فهم يبدؤون بتأمل طبيعة **المادة**، ثم طبيعة **المادة الحية**، ثم ينتقلون إلى طبيعة **الأشجار**.

كان بيكون يرى أن منهج العصور الوسطى هذا منهجًا أحمق، إذ قارنه بأسلوب صنع شبكة العنكبوت، حيث تسحب العنكبوت خيطها من أحشائها، ويطرح بيكون "المذهب التجريبي" ليحل محل هذا الأسلوب التقليدي، فأصحاب المذهب التجريبي يجمعون المعلومات عن العالم بالملاحظة والتجريب، ويشبّه بيكون أصحاب المذهب التجريبي بالنحل الطنان، فالنحل يجمع ما تنتجه الطبيعة من "أزهار الحدائق والحقول"، ويحوله إلى عسل المعرفة الحقيقية[2].

لم يكن بيكون مهتمًا بجمع البيانات العلمية وحسب، بل كانت تشغله أيضًا الفلسفة التي يقوم عليها التجريب، فأنشأ تدريجيًّا فلسفةَ علمٍ جديدة، وكان يرى أن علينا جمع المعلومات عن العالم عن طريق الملاحظة والتجريب، واستخدام هذه المعلومات في إيجاد مُسلّمات (مبادئ)، ويمكن أن نختبر المسلَّمات من خلال المزيد من الملاحظة والتجريب، فيتولد المزيد من المُسلَّمات العامة.

يمكنك تصور منهج بيكون كأنه سُلمٌ، في أدنى درجات السلم، يجمع العلماء معلومات عن أشياء محددة. على سبيل المثال: يلاحظ عالِم الأحياء الذي يراقب حيوانات أمريكا الشّمالية تساقط شعر أغلب غزلان الموظ في شهر

---

(1) Whewell (1834: 59).

(2) Bacon (1964: 97).

أيار، فيصعد درجة على السلم، ويصيغ مسلَّمة: "تسقط غزلان الموظ في ألاسكا معاطفها الشتوية في الربيع"، وكان يمكنه اختبار هذه المُسلَّمة بالمزيد من الملاحظة، فإن كانت المسلمة تبدو صحيحة، كان يمكنه أن يضمها إلى مُسلَّمات أخرى عن غزال الموظ، فقد توجد مُسلِّمة أخرى بأن "موظ الشيراس يسقط معطفه الشتوي في الربيع"، فينتقل العالِم إلى درجة أعلى في السلم، حيث يتمكن من الوصول إلى ملاحظة أعم: "كل أنواع غزلان الموظ تسقط معاطفها الشتوية في الربيع".

وبجمع البيانات واستخلاص مُسلَّمات منها، يتقدم العلم، وبالرغم من أن بيكون كان يركز على الملاحظة وإجراء التجارب، فإنه لم يسعَ قط إلى استبعاد التفكير النظري تمامًا، إذ تقتضي طبيعة بعض الأمور في عالمنا ألا نفهمها إلا بالتفكير، ومنها العلم نفسه.

في صباح اليوم التالي، ركبتُ الحافلة إلى متحف الشّمال في فيربانكس، وهو مبنى لافت، قمته ومنحنياته كلها بيضاء اللون.

يقع بين دار أوبرا سيدني وأحد جبال الجليد.

قضيت نحو ساعة أتجول في معرض ألاسكا أتطلع إلى صناديق العرض، وأقرأ البطاقات الأنيقة.

كان التركيز على التاريخ الطبيعي: عظام المستودون*، أشكال عجيبة من الذهب وغيره من المعادن، النسور المحنّطة، والقنادس، والأيائل.

يسيطر "بلو بيبي"، على كل شيء، وهو حفرية حيوان من العصر الجليدي يشبه ثور البيسون وجد محفوظًا في التربة الصقيعية*.

(*) حيوان منقرض من العصور القديمة يشبه الفيل. (المترجمة)

(*) في عام 1979، اكتشف عمال مناجم الذهب جثته المحنطة في الجليد في التندرا في ألاسكا وتبرعوا بها للمتحف. ويرجع تاريخ الكولاجين من جلد الحيوان المحفوظ جيدًا إلى 36000 عام عند اكتشافه في الثمانينيات. لكن هذا الرقم سيكون أكثر دقة قريبًا بعد انتهاء الدراسات التي تجرى عليه وعلى المنطقة التي وجد فيها. (المترجمة)

أعتقدُ أن فرانسيس بيكون كان سيعجب بهذا المتحف، فقد ذكر في كتابه **التجديد العظيم** (1620) أن على البشر إنشاء تاريخ طبيعي كامل، ويعمل مُتحف الشّمال على وضع قطعة صغيرة من قطع هذه الأحجية [البازل]، بأن يقدم تاريخ ألاسكا الطبيعي.

كان بيكون على وعي تام بأن التاريخ الطبيعي **للعالم** لابد أن يكون هائلًا، وقد وصف المشروع بأنه مشروع "ملكي"؛ لأنه كان سيتطلب جهدًا عظيمًا ونفقات باهظة[3].

ويسلط كتاب **التجديد العظيم** الضوء على الموضوعات التالية للدراسة:

- تاريخ الأجرام السماوية، أو التاريخ الفلكي.

- تاريخ البرق، والصواعق، والرعد، والأجسام المضيئة.

- تاريخ وابل الأمطار، والزخات العادية، والعواصف الممطرة، والأمطار الهائلة، وأعمدة الماء (كما تسمى) وما على شاكلتها.

- تاريخ السُّحب، كما تُرى في الأعلى.

- تاريخ الهواء [الأثير] ككل، أو في تكوين العالم.

- تاريخ البَرَد، والثلج، والصقيع، وندف الثلج، والضباب، والندى، وما على شاكلتها.

- تاريخ اليابسة والمياه، وشكل كل منهما ونطاقها، وتكوين كل منهما مقارنةً بالأخرى، وضيق كل منهما واتساعها، وتاريخ الجزر في البحار والمحيطات، وتاريخ الخلجان فيها، والبحيرات المالحة داخل اليابسة، والبرازخ والنتوءات الصخرية.

- تاريخ حركات الكرة الأرضية والبحر (إن وجدت)، والتجارب التي يمكن تجميع هذه الحركات عن طريقها.

---

(3) Bacon (1900:144).

- تاريخ اللهب والأشياء المشتعلة.

- التاريخ الكيميائي للمعادن والمواد غير العضوية.

- تاريخ الأسماك وأجزائها وتكاثرها.

- تاريخ المد والجزر في البحار، والتيارات المائية والتموجات وغيرها من حركات البحار.

- تاريخ صفات البحار الأخرى، ودرجة ملوحتها، وألوانها المختلفة، وعمقها، وتاريخ الصخور والجبال والوديان تحت البحار، وما شابهها[4].

كان الطموح أهم صفات بيكون، فقد طالب حتى بتاريخ طبيعي للشعوذة.

كان السَّفر هو مفتاح هذا المشروع، ففي رأي بيكون، ليس بوسعنا فهم المحيطات وأسماكها نظريًّا، فعلى النَّاس أن يخرجوا إلى العالم، وينظروا حولهم. وفي الشَّكل 3-1، تؤكد الصفحة الأولى من كتاب **التجديد العظيم** على أهمية السَّفر، وكانت إحدى السفن تُبحر بعيدًا في المحيط المفتوح، بينما تبحر أخرى عائدة، تخوض في الماء ببطء؛ نظرًا للثروة التي تحملها.

كانت السفن راسيةً عند أعمدة هرقل، تلك الصخور التي تحيط بمضيق جبل طارق، فهرقل الجسور هو ابن الإله زيوس أو جوبيتر، في الأساطير اليونانية والرومانية.

وفي إحدى هذه الأساطير، سافر هرقل مسافة طويلة إلى أن وصل إلى هذه الأعمدة، فأصبحت تمثل حدود العالم المعروف.

وقد نُقشت على الأعمدة عبارة "لا شيء وراءها" (*nec plus ultra*)، تحذير للسفن بألا تُبحر فيما وراءها. (يشكو كتاب مارك توين "**أبرياء في الخارج**" من أن القدماء ألفوا كتابًا تلو الآخر عن الأعمدة، لكن لم يرد أي ذكر بها عن وجود القارة الأمريكية: "مع ذلك، لابد أنهم كانوا يعرفون أنها موجودة").

---

(4) Bacon (1900: 372-81).

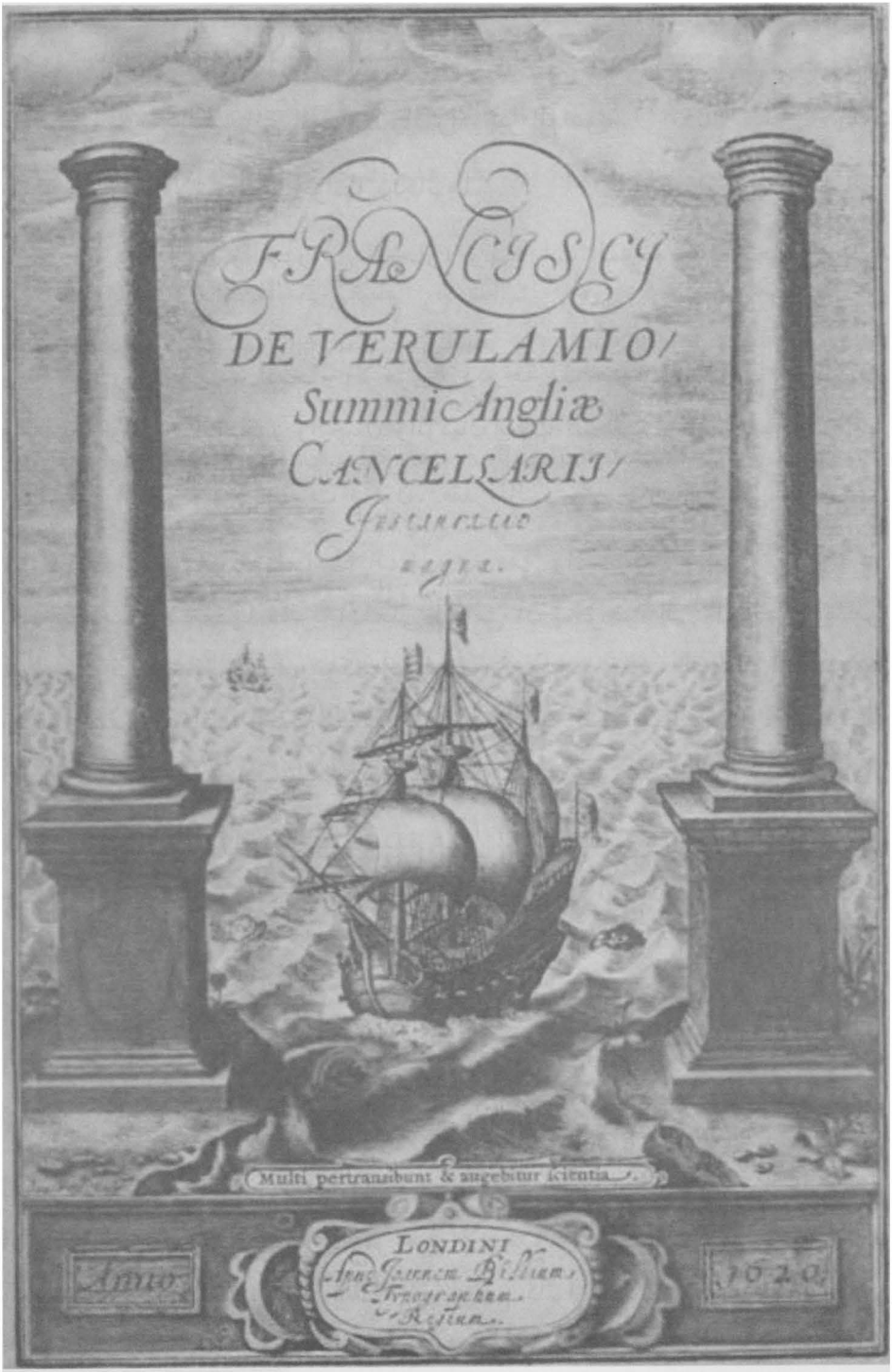

الشَّكل 3-1 كتاب بيكون **التجديد العظيم**

في الصفحة الأولى من كتاب بيكون، تُبحر السفن فيما وراء الأعمدة، وهذا يرمز إلى رأي بيكون بأن علينا أن نوسع حدود معرفتنا، فقد نُقش تحتَ صورة السفن سطرٌ يقول: (*Multi pertransibunt et augebitur scientia*) "سيذهب كثيرون ويعودون، فتزداد المعرفة"، وبالسَّفر يزيد فهمنا للعالم.

جاءت مطالب بيكون في وقتها تمامًا، فقد كانت أوروبا تعيش "عصر الكشوف الجغرافية"، تلك الحقبة من تاريخ الغرب التي تمتد من أواخر القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر، فقد تطورت أساليب بناء السفن والملاحة إلى أن صارت الرحلات البحرية الطويلة آمنة إلى حدٍّ معقول، وانطلقت السفن لترى ماذا يكمن وراء الأفق، كانوا يبحثون عن طرق تجارية جديدة، وأراضٍ جديدة لاستعمارها من دون اكتراث بالشعوب التي تعيش عليها بالفعل.

قاد المسيرة الملاحون: البرتغاليون، والفرنسيون، والإسبان، والهولنديون، والإنكليز، ففي تسعينيات القرن الخامس عشر، أبحر كريستوفر كولومبس إلى الأمريكيتين في محاولة فاشلة للعثور على ساحل آسيا الغربي، وفي عام 1500، أبحر بيدرو ألفاريس كابرال من الهند إلى البرازيل، للاستيلاء على البرازيل للبرتغال، واستكشف مارتن فروبيشر كندا، وحاول العثور على الممر الشّمالي الغربي الوعر: وهو طريق تجاري مريب من أوروبا إلى آسيا عبر المحيط المتجمد الشّمالي، وفي حوالى عام 1520، أبحر فرديناند ماجلّان حول العالم، أما فرانسيس دراك، فوصل في عام 1578 إلى المحيط الهادي، فأصبح أول إنكليزي يُبحر في المضيق الجديد الذي سُمي: "مضيق ماجلان". وفي ستينيات القرن السابع عشر وسبعينياته، رسم جيمس كوك أجزاء من: ألاسكا، ونيوزيلندا، وإستراليا، واستولى عليها.

أثارت هذه الرحلات البحرية ضجة لدى الأوروبيين، فضم جون سيلر في **الأطلس البحري** البريطاني عام 1670 بفخر قائمة "بالكشوف الجغرافية التي تمت خلال المائتي عام، على يد رجال عظام من أمتنا ومن غيرها"[5].

---

(5) Seller (1670: 12).

ويصف سيلر كيف عثر ريتشارد تشانسلور على ممر مائي إلى روسيا، ووصل هنري هدسون إلى خط عرض 81 في محاولة لاكتشاف القطب الشّمالي، واكتشف خليج هدسون، كذلك اكتشف هيو ويلوبي غرينلاند، وقبل أن "يتجمد حتى الموت"، أهدى "الملك جيمس أرضه الجديدة".

كان بيكون يؤمن تمامًا بأن على المفكرين أن يخرجوا من إطار إرث العصور الوسطى، مثلما خرج كولومبس من أوروبا، وأحيانًا كانت الرسوم التوضيحية التالية للأعمدة تغير ما نُقش عليها من "لا شيء وراءها" إلى: "اذهب إلى ما ورائها".

هل كان من باب المصادفة أن يبدأ بيكون الإشادة بالسَّفر فيما يُسمى: "عصر الكشوف الجغرافية"؟ قطعًا لا. فبيكون مثل سيلر تمامًا، جرفه المد الذي اجتاح العالم الأوروبي، والذي ساعدني في الإجابة عن سؤال أثير في بحثي، فقد أدركت منذ البداية أن هذا الكتاب لن يستكشف سوى فلسفة السَّفر الغربية، وسنحتاج كتبًا فيما بعد لاستكشاف فلسفة السَّفر: الصينية، والهندية، والإفريقية. (بالرغم من أن الفلسفات تسافر أيضًا، فترجع أصول الفلسفة الغربية إلى الفلسفة اليونانية القديمة التي قد تكون بدورها مأخوذة عن الفلسفة الإفريقية، فأرسطو ينسب إلى المصريين أفكارًا مهمة عدة[6].

وبالرغم من ملاحظة أفلاطون الغريبة، كان أقدم تناول وجدتُه للفلسفة والسَّفر في كتابات: مونتين، وبيكون، وديكارت. فما سبب ذلك؟ وماذا حدث خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ليوجِّه الفلاسفة الأوروبيين نحو السَّفر؟ وأدركت أن الإجابة هي عصر الكشوف الجغرافية الأوروبي.

كان السَّفر يتحول إلى جانب كبير من المجتمع الأوروبي، وكان الفلاسفة يشاركون فيه مثل غيرهم تمامًا.

---

(6) على سبيل المثال: ينسب أرسطو إلى "الطبقة الكهنوتية" المصرية اكتشاف فنون الحساب (Metaphysics 1.981b23-4). ولمناقشة أوسع عن ألأصول المصرية للفلسفة اليونانية، انظر: Coetzee & Roux (2005: 5).

لا يمكن الاستهانة بطموح بيكون، ففي حين كان المستكشفون الأوروبيون يستهدفون إنشاء خرائط جديدة للعالم، كان بيكون يهدف حرفيًّا إلى إنشاء عالم جديد، فلم يكن بيكون يؤمن بأن فلسفته الجديدة في العلم يمكن أن تؤدي إلى صنع تاريخ طبيعي كامل وحسب، بل كان يؤمن أيضًا أنها ستؤدي إلى نهاية العالم apocalypse.

واليوم تعني كلمة apocalypse نهاية العالم بأسوأ طريقة، فهي تبرز عند الحديث عن حرب نووية، أو تغير جذري في المناخ.

وفي أوروبا القرن السابع عشر، كانت الكلمة تعني أيضًا نهاية العالم، لكن مع إمكانية تجديده، وكان بيكون يؤمن، ككثير ممن عاشوا في عصره، بأن البشر خرجوا من رحمة الله، لكن يمكنهم أن يعودوا إليها، ففي سفر التكوين وصف "لسقوط" البشر. إذ خلق الله آدم وحواء في الفردوس، في جنة عدن، فأغرت الحية حواء بأكل التفاحة المحرمة*، فأقنعت حواء آدم بأن يأكل منها أيضًا، فأخرجهما الله من الجنة، ولاحقًا كُتب في الإنجيل أن الرب سيعيد البشر إلى الفردوس في آخر الأمر، و"يخلق كل شيء من جديد"، وتشير نصوص مثل سفر الرؤيا 21: 1-5 إلى تجديد القدس، وهكذا ستكون هذه المدينة مركز الفردوس الجديد، وفي وسط القدس يوجد هيكل سليمان الذي سيُعاد بناؤه.

لعل الحيرة أصابتك من عنوان بيكون **التجديد العظيم**، فإن الكلمة القديمة 'instauration' معناها التجديد أو الاسترداد، وترتبط بصفة خاصة بإعادة بناء هيكل سليمان، وقد أهدى بيكون كتابه **التجديد العظيم** إلى الملك جيمس الذي اشتهر بأنه "سليمان الجديد".

وهكذا، يبين بيكون لقرائه أن منهجه العلمي الجديد في النهاية سيستعيد هيكل سليمان، ويعيد البشر إلى الفردوس.

ما إن ترى رموزًا دينية في أعمال بيكون، ستجد أنها منتشرة، ولنعد إلى الصفحة الأولى من كتاب **التجديد العظيم**.

(*) تختلف تفاصيل هذه القصة عما ورد في القرآن الكريم من عصيان آدم وتوبته وغفران الله له.

السطر المكتوب تحت السفن مأخوذ من نبوءة من الكتاب المقدس بما سيعقب نهاية العالم:

(1) وفي ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك، ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت، وفي ذلك الوقت يُنجّي شعبك، كل من يوجد مكتوبًا في السَّفر.
(2) وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي.
(3) والفاهمون يضيئون كضياء الجَلَد الذين رَدُّوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور...
(4) كثيرون يتصفحونه والمعرفة تزداد". (سِفر دانيال 12: 1-4)

فزيادة السَّفر والمعرفة علامة على أن نهاية العالم تقترب، لكنها نهاية طيبة.

كان بيكون واعيًا تمامًا بالرمزية التي يطرحها، فقد كتب في موضعٍ آخر:

سيكون عارٌ علينا الآن أن طُرقت واكتُشفت تلك المساحات الشاسعة من العالم المادي، اليابسة والمياه، إذا كانت حدود العالم الفكري ينبغي أن تحددها لنا اكتشافات القدماء الهزيلة، أو إن كان هذان المشروعان، انفتاح الأرض وانفتاح العلوم الجديدة، يرتبطان ويقترنان معًا بأي طريقة عادية، فقد سلّطت الرحلات البحرية والأسفار البعيدة الضوء على أشياء عديدة في الطبيعة، عندما تسلط ضوءًا جديدًا على فلسفة الإنسان وعلومه، وتصحح بالتجربة آراء الأقدمين وتخميناتهم، وليس العقل وحده هو ما يربط بين الاثنين، بل النبوة أيضًا، فأي شيء آخر يمكن للنبي أن يقصده في حديثه عن الأزمنة الأخيرة، بقوله: "كثيرون يتصفحونه والمعرفة تزداد"؟ ألا يلمّح إلى أنه يعبر الأرض أو يطوف حولها، وأن زيادة العلم أو تضاعفه مقدرٌ له أن يكون في نفس العصر؟[7]

(7) Bacon (1964: 131-2).

وتؤيد هذه النبوءة ما يراه بيكون من ارتباط بين السَّفر والعلم[8].

أكد بيكون طوال حياته أهمية الخروج إلى العالم، وقد قتله هذا في النهاية، ففي سرد لأواخر أيامه، كان بيكون مسافرًا بعربة تجرها الجياد عبر منطقة "هايغيت"، وكانت الثلوج تتساقط بصورة غير مُعتادة في ذلك الوقت من العام، وكان يعرف أن اللحم يمكن حفظه بالملح، وأراد أن يختبر إن كان يمكن حفظه بالتبريد أيضًا، فاشترى دجاجة من امرأة فقيرة، و"جعل المرأة تُخرِج أحشاءها"، ثم حشاها بالثلج بنفسه، وعاد إلى العربة حاملًا الدجاجة، ولعل حمل الدجاجة المثلجة في حِجره كان السبب في إصابته ببرد مميت.

وقد كتب بيكون وهو على فراش الموت لأحد أصدقائه:

> الأرجح أنني نلت حظ غايوس بلينيوس الأكبر الذي فقد حياته وهو يحاول إجراء تجربة عن احتراق جبل فيزوف. إذ كانت لديّ رغبة عارمة أيضًا في أن أحاول إجراء تجربة أو اثنتين عن حفظ الأجسام وتيبّسها، أما عن التجربة نفسها، فقد نجحت نجاحًا باهرًا[9].

اكتشف بيكون تجميد الدجاج، وفي تطور غريب، يقال: إن شبح الدجاجة يطوف بميدان بوند في المكان الذي ماتت فيه، وشُوهد شبح الدجاجة التي نتف بعض ريشها لقرون، ورصد مراقبو الغارات الجوية مشاهدات عدة لها في أثناء الحرب العالمية الثانية[10].

تنبه البحث العلمي إلى فلسفة العلم عند بيكون بعد وفاته، وبدأت سلسلة من الأحداث التي أدت، من بين أشياء عديدة، إلى متاحف التاريخ الطبيعي كما نعرفها اليوم، ووصل تأثيره إلى ذروته خلال القرن السابع عشر، حين أسست مجموعة من فلاسفة الطبيعة، باستلهام بيكون، الجمعية الملكية البريطانية.

---

(8) للمزيد عمَّا يحتويه عمل بيكون من لاهوت، انظر: McKnight (2006).

(9) Bacon (repr. 1874: 550).

(10) Wood (2010: 95-6).

وكان من أبرز أعضائها علماء أمثال: روبرت هوك، وروبرت بويل، وكانوا يهدفون إلى تنفيذ رؤية بيكون لتاريخٍ طبيعي كامل.

وكانت الجمعية الملكية تُعنى، مثل: بيكون، بجمع المعلومات عن الأراضي النائية، وكان أعضاؤها يجتمعون لمناقشة أحدث كتب الرحلات، و"غرائبيات" الأسفار مثل: أحدث مجموعة من بذور النباتات، وكانوا ينشرون استنتاجاتهم في مجلة الجمعية الدورية *Philosophical Transactions of the Royal Society* (**العمليات الفلسفية للجمعية الملكية**)، وغالبًا تُعد هذه الدورية أول مجلة علمية.

وبالرغم من ازدهار عمل الجمعية، فإنه كان يخرج عن مساره في بعض الأحيان؛ بسبب السُّكْر.

ففي عام 1664، أنشأ الأعضاء لجنة خاصة لقراءة أدب الرحلات، ووضعوا قائمة بالكتب، واختار كل عضو كتابًا من القائمة ليطّلع عليه، ولكن حكى أحدهم بعد ذلك في خطاب، أنهم بدلًا من أن يقرأوا دخلوا قبو الخمور في بيت المضيف: "سأدعكَ تخمن كيف كانت حواراتنا وتسليتنا تحت الأرض، في هذا الكهف، وقُرب أوعية حفظ الخمور، حيث كان هذا المكان الذي تحفظ فيه العشرات من زجاجات النبيذ".

وفضلًا عن قراءة كتب الرحلات الجديدة (أو محاولة قراءتها)، بدأت الجمعية الملكية تنشر إعلانات عن طلب معلومات، وكان رائد الكيمياء روبرت بويل مسؤولًا عن إحدى هذه الإعلانات التي كانت بعنوان: **رؤوس موضوعات عامة عن التاريخ الطبيعي لبلدٍ ما، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة**، وطلب بويل النوع التالي من المعلومات عن الدول الأجنبية:

- خطوط طول المكان وعرضه.
- درجة حرارة الهواء.
- أي الشهب في الهواء هي الأكثر أو الأقل شيوعًا وظهورًا.

- ما أنواع الأسماك الموجودة في البلد: توافرها، وحجمها، وجودتها، ومواسمها، وأماكن وجودها، وأي خصائص لأي نوع؟[11]

وعلى المِنوال نفسه، يسأل إدوارد لي عن: مناخ بلدٍ ما، و"خصوبة الأرض أو جدبها"، وكثافة سكانها وبضاعتهم، والأعشاب، والحيوانات، والطيور، والأسماك، والحشرات[12].

وقد أثر فهم الجمعية الملكية الجديد للسفر بوصفه جمعًا للمعلومات في السَّفر الأوروبي بطرائق شتى: أولها: إنه أدى إلى ظهور رحالة من نوع جديد: العالِم، ولتوضيح هذه الفكرة، نلقي نظرة على تصنيف الرحالة الذي قدمه فارسٌ إنكليزي عام 1601.

يركز "الرحالة" سير توماس بالمر على السَّفر "المعتاد"، فهو "عمل أمين ومشرّف يقوم به الرجال"، ولم يوضح بالمر ما يقصده بالسَّفر "الشاذ"، بالرغم من أنه يكتب بغموض "أغلب الرجال سيعرفون ما هو بالخبرة"، ويميز بالمر بين ثلاثة أنواع من المسافرين المنتظمين: مَن يسافرون إلى الخارج **على غير إرادتهم**، فهم إما مُبعدين وإما منفيين، من **يضطرون** إلى السَّفر إلى الخارج لأداء مهام للدولة: وفود السلام، والسَّفراء، "رجال الحرب"، والجواسيس. (ينصح بالمر الجواسيس نصيحة مفيدة بأن "يتحاشوا أن يعرفهم رجال الاستخبارات")، من اختاروا السَّفر إلى الخارج **بإرادتهم** لتحقيق مصالحهم الخاصة: والمرتزقة، والتجار، والطلاب، والأطباء[13]. أما نوع المسافر ين الذي لا يوجد في تصنيف بالمر على الإطلاق، فهو فيلسوف الطبيعة أو العالِم. لم تكن فكرة هذا النوع من المسافرين قائمة في مستهل القرن السابع عشر، لكنه صار موجودًا في نهايته بفضل الجمعية الملكية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(11) Boyle (1665-6).
(12) Leigh (1671: 7-9).
(13) Palmer (1606: 1-17).

كان من بين أوائل العلماء الرحالة: هنري بلاونت، وجون راي، وفرانسيس ويلوبي.

وفي القرن التاسع عشر، واصل تشارلز دارون هذا التقليد من خلال حملة أسطول البيغل التي قام بها. وقد استهل داروين كتابه **أصل الأنواع** باقتباس من بيكون يذكر فيه أن لا أحد يمكنه أن "يبحث باستفاضة أو يدرس بدقة" الألوهية أو الفلسفة[14]. مكتبة سُر مَن قرأ

أسهمت أنواع أخرى من المسافرين أيضًا في مشروع الجمعية الملكية، مثل: قباطنة السفن، وحكام المستعمرات، والسَّفراء، والتجار، وقد رحبت الجمعية الملكية بمساعدتهم بصفة خاصة؛ لأنها كانت مساعدة **مجانية**، إذ كانت جهات أخرى تدفع رواتبهم.

أما الأثر الثاني للجمعية الملكية في السَّفر، فيتعلق بوجهات السَّفر، فمنذ ستينيات القرن السابع عشر، بدأت الجمعية تطلب معلومات عن أماكن محددة، ومنها: غرينلاند، وجزر الكاريبي، والمجر، وترانسيلفانيا، وإفريقيا، ومصر، وبلاد فارس، وفيرجينيا، والبرازيل.

فجمع الأعضاء معلومات عن هذه الأماكن من كتب الرحلات، لكن كان ما وجدوه من معلومات هزيلة يؤدي بهم غالبًا إلى طرح المزيد من الأسئلة:

- "هل يوجد بالفعل أقزام صغار في سراديب جزر الكناري، كما يقال"؟
- هل هناك مكان في البرازيل، حيث "توجد تلك الغابة الذي تجتذب الأسماك، وفيها سمكة تشير إلى اتجاه الرياح عند ربطها بخيط"؟
- وفي البرازيل، هل يمكن خلق الضفادع عن طريق "إلقاء نوعٍ من المياه المغربية"؟
- وهل في مصر مازالت 'تخرج أرجل وأذرع رجال يظهرون من تحت

---

(14) Darwin (1859: preface).

الأرض، بأعدادٍ كبيرة، في مكان يبعد خمسة أميال عن مدينة القاهرة يوم الجمعة العظيمة؟ وكيف تحدث هذه الخدعة"؟

- وهل في آيسلندا، "ما يقال عن أمطار الفئران"؟[15]

استمرت *الصلة بين السَّفر والعلم طوال زمن الاستكشافات البريطانية*، وقد أخذت السباق إلى القطب الجنوبي، وكثيرًا من التواريخ المكتوبة باللغة الإنكليزية تزعم أن أموندسن لم يكن مهتمًا "إلا" بالوصول إلى القطب وحسب، في حين أُشيدَ بسكوت؛ بسبب اهتمامه بنفس الدرجة بالبحث في أنتركتيكا.

أما الأثر الثالث، فكان ظهور الهوس بالغرائبيات. وعلى المستوى العلمي بدأ الرحالة المفكرون يتوافدون على الجمعية بالمصنوعات اليدوية، ففي عام 1704، قال أحد الأوروبيين مبتهجًا:

> تزيّن التاريخ الطبيعي والأخلاقي، وانتفع انتفاعًا شديدًا بجلب آلاف النباتات التي لا مثيل لها، وعدد كبير من العقاقير والتوابل، وكذلك مجموعة متنوعة من: الحيوانات، والطيور، والأسماك، ومثل هذا التنوع في المعادن والجبال والمسطحات المائية، وتباين لا تفسير له في المناخ والبشر[16].

وكلما كانت تلك المصنوعات اليدوية غريبة كانت أفضل؛ ذلك لأن الأشياء النادرة مهمة في فلسفة العلم عند بيكون، والأشياء النادرة قد تكون طبيعية أو مصنوعة يدويًّا، أي: أفيال أو ساعات البندول الحديثة، وكان بيكون يرى أن علينا أيضًا دراسة "الوحوش".

وإن جمع المعلومات عن الكائنات الشاذة بيولوجيًا، مثل: العنزة ذات

---

(15) استعرت هذا من Carey (1997) الذي يقدم المزيد من المعلومات عن السَّفر والجمعية الملكية بصفة عامة.

(16) لم يذكر الاسم، نقلًا عن Churchill (1704: lxxiii).

الرأسين، يمكن أن تحسّن فهمنا للكائنات الطبيعية، وأصبحت مجموعات هذه الأشياء الغريبة تشتهر باسم "خزانات الغرائبيات".

في منتصف القرن السابع عشر، جمع روبرت هوبرت كنزًا من هذه الأشياء، ووصفها في كتاب **قائمة مصورة للعديد من النوادر، مع صنعة رائعة وتكلفة وثلاثين عامًا من السَّفر إلى المناطق الأجنبية.**

وكانت خزانته تحتوي "أسماك كاملة" و"أجزاء من أسماك"، ومومياء مصرية "مزينة بالهيروغليفية"، و"أحجار بأشكال غريبة"، وقطعة من "لحاء شجرة قديمة أكلته الديدان داخل حجر"، وعظمة عملاق سرياني، و"زهرة من أريحا عمرها مائة عام"، فضلًا عن كثير "من الأشياء المُصنّعة". وقد اشترى العالم والمهندس المعماري روبرت هوك مجموعة هوبرت للجمعية الملكية، وولدت فكرة متحف التاريخ الطبيعي.

لم تكن "الغرائبيات" من الجماد دائمًا، فقد أحضر المستكشفون إلى الوطن نباتات وحيوانات حية، ومن بينها أنواع من: الصبار، ونمور.

والمفزع أن بعض المستكشفين كانوا يجلبون **بشرًا** إلى الوطن، فقد عاد كريستوفر كولومبس إلى إسبانيا بسبعة من الهنود، وكان البرازيليون الأصليون يُعرضون في المواكب الملكية الفرنسية. كذلك عرض فروبيشر رجلًا من الإسكيمو، ونادرًا ما كان هؤلاء يعيشون طويلًا، وفي بعض الأحيان، كانوا يتعرضون لمزيدٍ من الإهانات بعد موتهم، إذ كانت أجسادهم تُعرض ليشاهدها النَّاس[17].

وأخيرًا، أثرت الجمعية الملكية في أدب الرحلات، فكان بيكون في كتابات مختلفة يغضب من اللغة المنمقة، ويطالب في كتاب **التجديد العظيم** بأن ندع "زخرف الكلام، والحشو والتكرار، وكمّ الأساليب البلاغية التي تشبه

---

(17) Swann (2001: 23-4).

الخواء"، ويحث المسافرين على أن يكتبوا "بإيجاز وتركيز" بدلًا من ذلك[18]. وفي كتاب **مقالات** الذي صدر عام 1669، يشرح بويل أنه حاول الكتابة بنبرةٍ "فلسفية".

كان يرغب في أن تكون كتاباته "واضحة ودالة"، وليست "مفعمة بالفضول"، وهو يشبّه استخدام "الزخارف البلاغية التي لا داعي لها" بطلاء عدسة المنظار الفلكي[19].

وبالرغم من أن طلاء عدسات المنظار الفلكي فكرة جميلة، فإنها لن تساعدنا في رؤية النجوم. والفكرة هي أن التقارير يجب أن تكون واضحة وموثوقًا بها، وينصح بيكون بتوخي الحذر فيما نقبل إدخاله في تاريخنا الطبيعي. على سبيل المثال: يجب على المؤلفين ذكر إن كانوا قد لاحظوا شيئًا ما كان بأعينهم أو نقلًا عن وصف شخصٍ آخر، فإن كان التقرير منقولًا، فيجب عليهم أن يذكروا هل من نقلوا عنه "شخص عابث لا ثقل لكلامه" أم أنه "رزين ودقيق"؟[20]

كانت الجمعية الملكية ترغب في أن تكون الكتابات واضحة وموثقة، لكن كتب الرحلات، في أغلب الأحيان، لم تكن لا هذا ولا ذاك، إذ يصف ماركو بولو في كتابه **الأسفار** المنشور حوالى عام 1300، الجياد وحيدة القرن "القبيحة" التي تعيش في جزيرة جاوه.

وفي كتاب جون ماندڤيل **الأسفار** المنشور في عام 1356، يذكر أن ضلع أحد العمالقة يبلغ طوله "أربعين قدمًا"، ويصف سكان جزر ناتوميران بأن لهم "وجوهًا تشبه وجوه الكلاب". (ويؤكد لنا ماندڤيل أن سكان هذه الجزر "عقلاء تمامًا وأذكياء" بالرغم من هيئتهم).

---

(18) Bacon (1900: 359).

(19) Boyle (1772: I:303).

(20) Bacon (1900: 367).

كان تأثير الجمعية الملكية في كتب الرحلات عميقًا، فنرى الأسلوب العلمي الوصفي الذي أوصت به حاضرًا في كتاب جيمس كوك **الرحلات البحرية**، وفي كتاب داروين **الرحلة البحرية [بأسطول] البيغل**، وفي كتاب شيري-جيرارد **أسوأ الرحلات في العالم**، وكانت ثمة مبالغة كبيرة في هذا الاتجاه، إذ كانت تدخل العلم فيما قد يكون في أحوال أخرى لحظات روحانية، كتب أحد رحالة القرن الثامن عشر عن جبلٍ يقول:

> لم نستطع أن نبعد أعيننا عن ذروة قمته، ولا عن رؤية لون قبة السماء اللازوردي، ويبدو أن كثافته عند الذروة تتوافق مع 41 درجة على مقياس اللون الأزرق (السيانومتر)*[21].

كان مؤلفو كتب الرحلات اللاحقون يعتذرون أحيانًا؛ بسبب مخالفة هذه المبادئ، وقد فعلت الفيلسوفة ماري ولستونكرافت ذلك في تصدير كتابها **خطابات كتب خلال إقامة قصيرة في: السويد، والنرويج، والدانمارك** الذي نشر عام 1796.

تشرح ولستونكرافت أنها لم تستطع تجنب كتابة هذه الخطابات بصيغة المتكلم، لتصبح هي "البطل الصغير" لكل حكاية بالرغم من "أنني حاولت استدراك هذا الخطأ". وليس المقصود من هذا أن ولستونكرافت قد تخلت عن أسلوب الجمعية تمامًا، فقد كانت تقدم عبر خطاباتها معلومات عن: الممارسات الدينية، والرواسب المعدنية، والتنقيب عن الملح، وإمكانية وجود وحوش الماء[22].

(*) مقياس السيانوميتر (اسمه مشتق من اللون السماوي والمتر) هو أداة لقياس "الزرقة"، وتحديدًا كثافة اللون في السماء الزرقاء. يُنسب اختراعه إلى هوراس بنديكت دي سوسور وألكسندر فون هومبولت. يتكون من مربعات من الورق مصبوغة بظلال متدرجة من اللون الأزرق ومرتبة في دائرة ملونة، أو مربع يمكن تعليقه ومقارنته بلون السماء. (المترجمة).

(21) Cited in Leed (1991: 192).

(22) Wollstonecraft (1889).

كانت فلسفة بيكون في العلم وراء الأهمية التي أولاها فلاسفة الطبيعة في القرن السابع عشر للسفر. وأصبح السَّفر أساسيًّا للعلم الحديث في بدايته، وظل أساسيًّا إلى اليوم، ففي عام 2009، فتح مستكشفون في فيتنام أحد أكبر الكهوف التي تقع تحت الأرض في العالم، وهو يحتوي غابة تحت الأرض، ويعكف العلماء على دراسة كائناته ونباتاته "الجديدة"[23].

وفي العام نفسه، رسم جيولوجيون خارطة للجبال المُغطاة بالثلوج في القارة القطبية الجنوبية (أنتركتيكا)، فوجدوا أنها أعلى من جبال الألب[24].

وفي عام 2014، كان أول اتصال بقبيلة أخرى تعيش في غابات الأمازون الممطرة، ويرى علماء الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) أن عددًا كبيرًا من هذه الشعوب مازال موجودًا[25].

وفي المستقبل، سنسافر أكثر تحت المحيطات التي تظل لغزًا سائلًا، فإننا حاليًّا لم نضع خرائط إلا لأقل من 0.05% من قاع المحيط[26].

وهذا ينبغي أن يسبب سعادة أكبر لبيكون الذي كان يتحرى عن الجبال والوديان الموجودة تحت الماء. وسنسافر أيضًا لسبر غور الفضاء الخارجي، لنعود بمعلومات عن أنظمة النجوم البعيدة.

وحين نفعل ذلك، سنصل إلى أبعد مما تصوّر بيكون.

---

(23) ويمكنك زيارته فعليًّا. انظر:
http://news.nationalgeographic.com/2015/05/150520-infinity-cave-son-doong-vietnam-virtual-tour-photography-conservation/.

(24) https://www.theguardian.com/environment/2009/feb/24/antarctica-mountains.

(25) https://www.theguardian.com/world/2014/aug/01/amazon-tribe-makes-first-contact-with-outside-world.

(26) http://www.scientificamerican.com/article/just-how-little-do-we-know-about-the-ocean-floor/.

بيرو بلاد قبائل الإنكا

في ثلاثة أيام

على خطوط بان أمريكا

PERU *of the* INCAS

IN THREE DAYS

Via PAN AMERICAN

4

الأفكار الفطرية عند ديكارت ولوك وآكلي لحوم البشر

ربما يكون سكان جزر الكاريبي وخليج سولدانيا وبيرو ومنغريليا أناسًا طيبين مثل أفضل النَّاس في أوروبا، بصرف النظر عن عاداتهم الغريبة في الطبخ، وأكلهم أطفالهم.

هنري لي، مناهضة الشكوكية (1702)

مد موظف مكتب تأجير السيارات عنقه إلى الأمام، وبيده مفاتيح السيارة، قائلًا: "هل أنتِ واثقة أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأنتِ تقودين على الطريق؟"

- "تمام الثقة".

كنا في نفس العمر تقريبًا، لكن كان يبدو عليه أنه يكبح جماح الرغبة في أن يربت على رأسي. "فليكن إذًا، تعالي معي".

خرجنا معًا اتجاه السيارة، وفتشنا جسم السيارة بحثًا عن أي خدوش.

كانت سحب المطر تتجمع فوقنا، ومن ثم كان الفحص سريعًا، وبينما كنت أوقع آخر استمارة، وضعت حافظة الأوراق فوق غطاء المحرك، فأومأ الرجل وهو ينظر إلى الخارطة التي تعلو حقيبتي.

كانت توجد دوائر بالقلم الرصاص حول أماكن عدة شمالي فيربانكس؛ فسألني: "لماذا تريدين الذهاب إلى هناك؟"

فكرت في المساحات البيضاء في الخارطة واسم "ديدهورس" المثير للاهتمام.

- "يصعب شرح ذلك".

مساحة ألاسكا شاسعة، إذ تبلغ أكثر من 600 ألف ميلًا مربعًا، وهي نفس مساحة منغوليا تقريبًا.

وبها شريط ساحلي يبلغ نحو 34 ألف ميلًا، وأكثر من ثلاثة ملايين بحيرة.

وهي أكبر الولايات الأمريكية، وقد اشترتها الولايات المتحدة في عام 1867 بحوالي سِنْتين للفدان، ولم يكن السكان الأصليون هم مَن باعوها، وإنما الإمبراطورية الروسية[1]. ولعل مساحة ألاسكا تفسر سبب اختيار جيمس ميشنر أن يستهل روايته الصادرة عام 1988 بالحديث عن مكان وُجد قبل وقتنا الحالي بمليار سنة.

وتُبرِز رواية **ألاسكا** تفاصيل تكوينه الجيولوجي، وعصوره الجليدية، وحركات "الديناصورات الخطيرة"، والسمكة التي ستتطور لتصبح ذات يوم سمكة سلمون.

ويبدو أن ميشنر كان يحتاج إلى هذا المنظور البعيد ليتكلم عن هذه الأرض، وقد يفسر حجم الولاية أيضًا افتقارها إلى بنية تحتية، وتظل مجتمعات عديدة في ألاسكا بلا طرق تصل بينها، ومنها جونو Juneau عاصمة الولاية.

ويُقال: إن ألاسكا بها طريق واحد ضخم شهير: طريق دالتون السريع، ولو كان الرومان قد وصلوا إلى ألاسكا، لأدركوا قدر الجهد الذي بذل في بنائه؛ ذلك لأن هذا الطريق يمتد لمسافات طويلة في وقتٍ واحد ليبلغ طوله 414 ميلًا بشكل مستقيم، ويشق ألاسكا إلى نصفين، وينخفض في الوديان ليظهر مرة أخرى أفقيًا على الجانب الآخر، وقد اشتهر عبر مسلسل "**سائقو**

---

(1) لوجهة نظر سكان ألاسكا الأصليين في صفقة البيع، انظر: Worl (2016: 305-8).

الشاحنات عبر الطرق الجليدية *Ice Road Truckers* " الذي عُرض على "قناة التاريخ" التلفزيونية History Channel، فالطريق شهادة على ما يمكن أن يفعله البشر حينما تكون لديهم حاجة مُلِحَّة إلى شيءٍ ما، فقد أنشأه العمال في خمسة شهور بوصفه جزءًا من جهود إنشاء خط أنابيب النفط في ألاسكا، وقد انتهى العمل به في عام 1974، وافتتح للاستخدام العام في عام 1994، وإن وصفه بأنه "بعيد" لهو تبسيط مخل للأمر؛ ذلك لأن الطريق السريع وأنبوب النفط به يمر عبر آلاف الأفدنة في غابات التندرا، ويصف دليل طريق دالتون السريع هذا الطريق في عام 2016 بأنه "شبيه المريخ"؛ لأن درجة الحرارة في الشتاء قد تهبط إلى 60 درجة تحت الصفر، فيكون فعليًّا في نفس درجة برودة الكوكب الأحمر.

حين كنت أقود باتجاه شمالي دالتون، وكانت المناظر الطبيعية المُنبسطة الخضراء تصير وعرة وأشد برودة، وكان الثلج يطرق الأرض، وحملت أشجار التنوب نحو عشرين بوصة من كرات الثلج، مررت بقطع من الأشجار السوداء التي تفحمت بفعل حرائق الغابات، فروع يابسة تبرز من الثلوج.

كان مرور مركبات أخرى حولي نادرًا، لكن خط الأنابيب كان يصحبني، كنت أصعد وأهبط بحسب الطريق الذي كان يلمع بلون فضي في ضوء الشَّمس.

وصلت في النهاية إلى نهر يوكون، فوجدت أن الخط الأزرق المُتعرج الذي كان على خارطتي يتحول على أرض الواقع إلى مجرى مائي هائل، وبعد أن خرجت من الطريق السريع، أوقفت سيارتي جانب جرف ثلجي يصل ارتفاعه إلى الخصر، ووجدت نفسي أبتسم: ها هو نهر اليوكون.

لبست حذاءً ذا رقبة عالية، وسرت بخطواتٍ مُتثاقلة اتجاه الشاطئ.

بعد الدوران حول المنعطف، دخلت عالمًا من البياض. ضفتا النهر، وغابات التندرا، والمياه نفسها، كلها تسطع كالألباستر (المرمر).

كان اللون الوحيد يقبع في قلب النهر، حيث نزيف الأنهار الحبرية بعد

ذوبان الجليد، وحيث تجمعت المياه الخضراء في برك تشبه المرايا.

كان أحد كتبي المفضلة في طفولتي تقع أحداثه على نهر اليوكون، إذ يحكي كتاب ڤيلما واليس **امرأتان عجوزان** قصة بقاء دارت أحداثها في ألاسكا. شا تبلغ من العمر خمسة وسبعين عامًا وتشيدزيغياك تبلغ ثمانين عامًا، مع ذلك تنصبان الفخاخ للسناجب والأرانب، وتتحركان باستخدام أحذية الثلج محلية الصنع، وتجمعان أغصان أشجار التنوب لفراشهما، وتحملان الفحم الحي لإشعال النار، وبالرغم من البرد والتهاب مفاصلهما، أنشأتا السيدتان لنفسيهما مخيمًا مريحًا جوار النهر. المؤلفة واليس من سكان ألاسكا الأصليين من سلالة جويش إن، وهي تشرح في تصدير الكتاب أنها سمعت هذه القصة من أمها، وهي جالسة، حيث يصب تسيت هان (نهر بوركوباين) في جواكون هان (نهر يوكون).

كنت مثل عجوزي واليس، الإنسان الوحيد عبر عشرات الأميال.

كان يبدو أنني الكائن الوحيد العاقل في هذا المشهد، الوحيد الواعي وسط الصقيع، فإن كانت ثمة حيوانات في المكان، فهي مختبئة تمامًا.

ولننظر في غرابة العقول، يبدو أنهم يختلفون اختلافًا بيّنًا عن الأشياء الأخرى التي تشاركهم العالم. فالصخرة لا يمكن أن تشعر بالسعادة ولا الحزن، وبالرغم من أن الصخرة يمكن أن تكون باردة، فإنها لا يمكنها أن **تشعر** ببرودتها، والحواسب الآلية تقوم بتشغيل البيانات، لكن لا تشعر (حتى الآن)، فالحاسب الآلي يمكن أن يسجل لون السماء، لكنه لا **يرى** زرقتها، أما البشر، فعلى عكس الصخور والحواسب لديهم أفكار: رؤى ومعتقدات وانطباعات ذهنية عن الأشياء، فلديَّ أفكار عن سيارتي، وعن برج إيفل، وعن جبل دينالي. ولديَّ أفكار أشد تعقيدًا عن: هاري بوتر، والرب، والأخلاق. وقد تساءل الفلاسفة، منذ أفلاطون عن **أصول** أفكارنا. هل نبدأ حياتنا من دون أي أفكار في أذهاننا، ثم نكتسبها بخوض الحياة أم أننا نولد بأفكار "فطرية" توجد في عقولنا بالفعل؟ في القرن السابع عشر، دخل السَّفر في هذه النقاشات.

على مدار التاريخ، كان الفلاسفة يرون أن كثيرًا من أفكارنا فطرية، وكان لديكارت دورٌ مذهلٌ في هذا التراث.

وقد نشأ في فرنسا، لكنه قرر السَّفر في بواكير حياته، متأثرًا برأي مونتين بأن السَّفر "مفيد للغاية"[2]. يستعيد ديكارت مسار حياته، ويصف عدم رضاه عن تعليمه المبكر، ويشرح قائلًا:

> هذا هو السبب الذي جعلني أفلتُ من تحكم معلمِيّ ما إن أصبح سني يسمح بذلك، فتخليت عن دراسة الأدب تمامًا.
> وقررت ألا أبحث عن أي معرفة بخلاف ما يمكن أن أجدها في نفسي، أو في كتاب العالَم العظيم، فقضيت بقية شبابي في السَّفر، وزرت القصور والجيوش، واختلطت بأناس من شتى الطبائع والمراتب، وجمعت خبرات شتى، واختبرت نفسي في المواقف التي تتيحها المصادفة لي، وكنت أتأمل طوال الوقت كل ما أجده في طريقي علّني أجد فيه استفادة[3].

وفي عام 1618، انتقل إلى مدينة بريدا (في هولندا حاليًّا)، حيث دَرَس الرياضيات والميكانيكا، وبهذا بدأ عِقدًا من الأسفار عبر: ألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا، والدانمارك، والمجر، وبالرغم من أن ديكارت زعم أن أسفاره كانت هادفة، يشير كاتب السِّير ديزموند كلارك إلى أنه كان ينزع إلى السَّفر وحسب[4].

وبعد أن أنهكه السَّفر في آخر المطاف، اختار ديكارت دولة ليستقر فيها، اختار هولندا التي كان يبدو أنها توافق طباعه تمامًا، وبالرغم من أنَّ ديكارت اختار دولة، فإنه لم يستطع تحديد مدينة فيها، فظل يسافر عبر أنحاء هولندا، ولم يُقم قط في مكانٍ واحد أكثر من بضعة أشهر، لكن في نهاية هذه الفترة،

---

(2) للمزيد عن تأثير مونتين في ديكارت، انظر: Foglia (2014: 6)

(3) Descartes (1984: I.115).

(4) Clarkes (2006).
سيرة متميزة تقدم المزيد من المعلومات عن نزوع ديكارت إلى السَّفر (p. 37-8)، وعن عشقه التجوال (p. 93-5)، وعن وفاته (p. 405-10).

كان ديكارت قد أقام في أكثر من عشر مدن هولندية، كما يوضح الشَّكل 4-1[5].

الشَّكل 4-1 الأماكن التي عاش بها ديكارت [في هولندا]

وقد لاحظ أحد أصدقاء ديكارت أن "عشق التجوال" أتعبه.

أقام ديكارت في هولندا إلى عام 1649، حين قَبِل دعوة من كريستينا ملكة السويد.

(5) اقتبستها من Clarke (2006).

كان على ديكارت أن يدعم المجتمع الفكري في استكهولم، ويدرّس الفلسفة لكريستينا، لكن الرحلة لم تَسِر على ما يرام، فلم تكن كريستينا تقابل ديكارت بانتظام، وكانت جلستهما في المكتبة تبدأ في الخامسة صباحًا، وفي خطاب كتبه ديكارت إلى صديقته الفيلسوفة إليزابيث في بوهيميا، قال: "يبدو لي أن أفكار النَّاس هنا تتجمد في الشتاء مثل الماء"، وقد توفي ديكارت في استكهولم، من إصابة مؤكدة بالإنفلونزا واحتمال الإصابة بالتهاب رئوي.

وقد ساعدت الأسفار ديكارت في أن يصبح واسع الأفق:

> في أيام دراستي الجامعية اكتشفت أنه لا يمكن تصور شيء شديد الغرابة، ولا يصعب تصديقه فيما قاله بعض الفلاسفة، ومنذ ذلك الحين أدركت من خلال أسفاري أن من تتناقض آراؤهم تمامًا مع آرائنا ليسوا همجًا ولا بدائيين بناءً على ذلك، بل إن كثيرًا منهم يستخدمون عقولهم بقدر ما نفعل، وربما أكثر[6].

وقد صار فيلسوفًا يشك في **كل شيء**، وفي كتابه **التأملات** Meditations (1641)، يسأل ديكارت قراءه الأسئلة الآتية:

هل يُحتمل أن تكونوا مختلي العقول؟

هل أنتم متأكدون أنكم لا تحلمون الآن؟

ألا يمكن أن يكون العالم من حولكم الآن مجرد هلاوس؟

كان ديكارت يحاول تحديد ما نعرفه عن العالم **بالفعل**، فإن كنت تظن أنه يحتمل أنك تحلم الآن، إذًا، فمن المحتمل أنك لست موجودًا، حيث تعتقد أنك موجود، لا أنك تقرأ هذا الكتاب فعلًا، أنا اعتقدت أنني أقف عند نهر يوكون، لكنني قد أكون نائمة في غروننغن، ولعل الثلوج والجليد كانت مجرد هلاوس. وقد أكون امرأة كبيرة أحلم أنني أصغر سنًّا.

---

(6) Descartes (1984: I.118-19).

ولمناقشة متميزة لهذه الفقرة، انظر: Perkins (2014: 256).

صار منهج ديكارت في الشك في الأمور التي نعدها حقيقةً يعرّف "بالشك الديكارتي"، وهو منهج قاتل؛ لأنك إن بدأت يصعب عليك التوقف، فكل معلومة يعتقد البشر أنهم يعرفونها يمكن الشك فيها.

ويعتقد ديكارت أن ذلك ينطبق على كل معلومة، عدا واحدة. إذ يرى ديكارت أننا لا يمكن أن نشك في وجودنا، ويفسر ديكارت ذلك بأنه ما دام يشك فهو موجود، فهو شيء يَشُك، وهذا ما يكمن وراء مقولة: "أنا أفكر، إذًا أنا موجود"، فحتى إن كنت تشك في أنك تقرأ هذا الكتاب؛ لأن ذلك قد يكون حلمًا أو هلاوس، فإنك لا يمكن أن تشك في أنك تفكر وأنك موجود.

والمشكلة هي أنك إن كنت تعتقد أن وجودك هو المعلومة **الوحيدة** التي أنت على يقين منها، فأنت لا تعرف الكثير على الإطلاق، فأنا أعرف أنني موجودة، لكنني لا أعرف إن كنتُ حقًا أقف عند نهر ولا أن قدمَي باردتان.

كان حل ديكارت لهذه المشكلة هو أن يركب مركبة، حرفيًّا *a deus ex machine*، ويدخل بها إلى نفسه، فعندما يتجول ديكارت داخل نفسه، يجد أفكارًا شتى، وأحدها فكرة عن الرب.

ويرى ديكارت أنها فكرة عن كائن "لامحدود، مستقل، فائق الذكاء، شديد القوة، وهو من خلقني وخلق كل شيء آخر".

ويتساءل ديكارت من أين تأتي الأفكار، ويفسر ذلك بأنه إن كانت أفكار عديدة تأتي من الخبرة، فإن فكرتنا عن الرب لابد أن تكون فطرية، ففكرته عن الرب بالغة الكمال لدرجة أنه لا بد أن يكون من وضعها بداخله كائن كامل: ألا وهو الرب نفسه[7].

وفي النهاية، يستخدم ديكارت وجود الرب في الكف عن الشك، ويرى أن بوسعنا التأكد من أننا لا نحلم ولا نهلوس؛ لأن الرب الكامل لن يسمح بخداعنا.

---

(7) Descartes (1984, II.31-5).

كان تأثير ديكارت في الفلسفة الغربية تأثيرًا هائلًا، وهو يوصف أحيانًا بأنه أبو الفلسفة الحديثة. وبعد ديكارت، توصل أناسٌ كثر إلى الموافقة على أن فكرتنا عن الرب فطرية، ويبدو أنه لم يخالفه أحدٌ.

إلى أن ظهر الفيلسوف جون لوك الذي وُلِد بعد ديكارت ببضعة أجيال، وقد درس لوك في إكسفورد، حيث انخرط مع كثير من العلماء الذين شكلوا الجمعية الملكية لاحقًا، وبسبب أعماله الطبية، انتُخب لوك نفسه بعد ذلك زميلًا فيها، وقد سافر لوك، مثل: ديكارت، على نطاق واسع عبر أنحاء أوروبا، وتُظهر كتاباته حسًّا فكاهيًّا.

على سبيل المثال: في خطاب كُتبت مسودته عام 1676، يصف لوك رحلة على ظهر جواد إلى مدينة بوا الفرنسية وصفًا مفصّلًا، فيقول:

> وبالرغم من أن هذه الطريقة في السَّفر ترهق الرجل الإنكليزي إلى حد كبير، لكننا ما إن دخلنا حجراتنا حتى ظننا أننا وصلنا إلى هناك بسرعة شديدة؛ ذلك لأن الطريق السريع كان مكانًا أجمل وأنظف وأشد قبولًا[8].

ويواصل لوك، فيصف كيف أنه طلب من مضيفيه زوجًا من النعال المنزلية [شبشبًا]، فأرسلوا إليه "قبقابًا خشبيًا" قويًا. وفي وقت لاحق، قدّم مضيفوه للمسافرين "عشاءً من لحمٍ سيئ وطبخًا أسوأ"، ثم يكتب لوك مبتهجًا أن "العطر الفواح" في غرفة نومه "جعله ينسى تمامًا النعلين والعشاء"، ولم يكن ليستطيع قضاء الليلة لولا "فتحة كبيرة مناسبة في الجدار" أتاحت له قدرًا كبيرًا من الهواء الطلق.

تكشف يوميات لوك أيضًا اهتمامه بالعلم، ففي قصر ڤرساي، يلاحظ لوك تنظيم النوافير المعقد في الحديقة، وأن حديقة الحيوان بالقصر بها فيل. فلم

---

(8) Locke (1984: 279).
قمت بتحديث بعض حروف الهجاء عند لوك.

يستخدم لوك كلمات كثيرة لوصف هذا الحيوان الذي يشبه "الجبل الضخم"، لكنه يلتزم بنظامه الغذائي: 50 رطلًا من الخبز يوميًا، و16 رطلًا من العصير والأرز.

بعد ذلك، عاد لوك إلى القارة الأوروبية فرارًا من اضطهادٍ سياسي، وكان قد صار صديقًا مُقرّبًا من لورد أنطوني آشلي كوبر، أول إيرل لشافتسبيري، وهو سياسي بارز سطع نجمه وأفل حين كانت بريطانيا تحدد نوع الحكم الذي تريده (إن وجد): هل ملكي أم برلماني؟

وفي النهاية، فرَّ شافتسبيري إلى هولندا، وتُوفي هناك في عام 1683، وكان لوك قد سافر إلى هناك في العام نفسه، وشرع في السَّفر عبر أنحاء البلاد في أثناء كتابته الفلسفة، وفي عام 1688، غيرت الرياح السياسية اتجاهها مُجددًا، وصار الوضع آمنًا لعودة لوك إلى بريطانيا، وما إن وصل إلى الوطن، حتى بدأ في نشر كمٍّ هائلٍ من المؤلفات، ومن بينها **مقال في الفهم البشري** الذي صدر عام 1690، وكما يوحي عنوانه، يسأل الكتاب كيف يكتسب البشر المعرفة، ويبين الفصل الأول هدف لوك: "للاستفسار عن مدى المعرفة البشرية الأصلية ويقينها، مع أسس الاعتقاد والرأي والقبول ودرجاتها"[9]. وبالرغم من أن هذا موضوع فلسفي، كان لوك يعتقد أن للسفر دورًا كبيرًا فيه.

لم يخرج لوك في أسفاره عن حدود أوروبا قط، لكنه كان مفتونًا بالسَّفر البعيد، فكان يلتقي بالمسافرين العائدين، ويرسل في طلب معلومات ممن في الخارج، على سبيل المثال: كان لوك، مثل بيكون، حريصًا على أن يعرف أصل الألعاب السحرية.

ففي خطاب كتبه عام 1683 عن الهند إلى أحد أصدقائه المسافرين، يشرح لوك أنه سمع "قصصًا غريبة عن الحيل التي يقوم بها بعض الحُواة هناك".

ويبدو أنَّ مآثرهم كانت تتجاوز خفة اليد، ولا علاقة لها بقدرة الفن أو

---

(9) Locke (1690: I.1.2).

الطبيعة، ويسأل لوك إن كان هؤلاء الحُواة يتصفون حقًّا بما يقال عنهم من غرابة"، وكان أيضًا حريصًا على معرفة إن كانت "الأشباح تظهر بين الهنود، وما أفكار الأرواح عندهم"، ويطلب أكبر قدرٍ ممكن من المعلومات عن: "الآراء، والدين، وطقوس الهندوس، وغيرهم من الوثنيين في تلك البلاد"، وكفكرة طرأت له تقريبًا، يسأل لوك كيف تعرف شعوب الشرق الزمن "كالشهور والسنين"[10].

فغمره أصدقاؤه بالمعلومات من أسفارهم، وكذلك أرسلوا له غرائبيات السَّفر التي أعطاها إلى الجمعية الملكية، مثل: البذور، والعظام.

كانت مكتبة لوك تحتوي: خرائط، ومسوحًا جغرافيّة، ونحو مئتي كتاب من كتب الرحلات[11].

وكان لوك يُدوّن حواشي على كتب عديدة منها، ويكلف بنسخ رسوماتها بالألوان المائية، وكان يولي اهتمامًا خاصًّا بالصّور التوضيحية للسكان الأصليين، وقد نصح لوك أونشام تشرشل بطبع كتابه **مجموعة الرحلات البحرية والأسفار**، ولعل لوك كتب فيه مقالة "تاريخ المِلاحة البحرية" بدون ذكر اسمه[12].

تُعدِّد هذه المقالة فوائد السَّفر، فهو يحسن معرفتنا بالعالم، إذ يبين أنه لا توجد بقعة غير مسكونة على الأرض "عدا بعض أجزاء المناطق القطبية"، وبإضافة مجموعة نجوم جديدة إلى علم الفلك، زادت التجارة إلى مستويات عليا، ومدت حدود "إمبراطورية **أوروبا**" إلى أقاصي الأرض[13]. وقد كان كثير من النَّاس في ذلك الوقت فخورين بعملية بناء الإمبراطورية، ولا يأبهون بما تسببه من أذى.

---

(10) Locke (1858: 252-3).

(11) للاطلاع على كتب الرحلات عند لوك ومراسلاته وحواشيه، انظر: Carey (2005: 23-7) and Talbot (2010).

(12) يُرجح أن يكون كاتب المقالة إما لوك وإما إدموند هالي، انظر: Wolfe (2014: 147). وفي رأيي أن أسلوب المقالة الذي يتسم بالغلو لا يشبه أسلوب لوك.

(13) See Anon, cited in Churchill (1704: lxxiii).

قد يبدو أن لوك قارئ نهم لكتب الرحلات، لكن المؤرخة آن تالبوت Ann Talbot ترى أن قراءة لوك لم تكن عشوائية كما تبدو، ففي الواقع، كان لوك ينتقي كتب الرحلات بعناية؛ ذلك لأنها كانت تركز على سلوك البشر الاجتماعي، وكان لوك بالفعل يحاول دراسة سلوك البشر على نهج بيكون[14]. ولشرح ذلك، لنعد إلى منهج بيكون في العلم.

كان بيكون يعتقد أنه علينا دراسة العالم الطبيعي عن طريق الملاحظة والتجريب، وهذه الأساليب لا تُطبق عادة **إلا** على: المناظر الطبيعية، والحيوانات، والنباتات.

أما البشر، فعلى عكس الحيوانات والنباتات، فيُعتقد أنهم "أعلى" من العالم الطبيعي؛ ذلك لأن للبشر نفوسًا غير مادية، خلقها الله على نحو خاص. وعلى ذلك، فإن دراسة البشر كانت في ذلك الوقت تتم عن طريق اللاهوت أو الفلسفة.

إذا طبقتَ أساليب بيكون على البشر، فأنت تُصرّح بأن البشر جزءٌ من العالم الطبيعي، وهذا يوحي بأن البشر ربما يفتقرون إلى الروح، ويلمّح إلى إنكار خالقهم، أي: الرب، وخلال هذه الحقبة، كانت أوروبا تدين الملحدين، وكان النِّساء (وبعض الرجال) يُعدمون؛ بسبب ممارسة السحر، وسجنت محاكم التفتيش الرومانية غاليليو؛ لأنه أصر على أن الأرض تدور حول الشَّمس، على عكس الاعتقاد المسيحي، وتعرض سبينوزا للاضطهاد؛ بسبب تصور أنه ملحد.

في هذا السياق، كان احتواء التاريخ الطبيعي على دراسة البشر أمرًا مثيرًا للجدل إلى أقصى حد، لكن بيكون فعلها، فكان كتابه **التجديد العظيم** يطلب معلومات عن الجسم البشري، وكان ذلك مقبولًا اجتماعيًّا:

- تاريخ الأخلاط (الأمزجة) في الإنسان: الدم، والصفراء، والمذي، وما إلى ذلك.

---

(14) See Talbot (2010: 9-14).

- تاريخ ما يُخرِجه جسم الإنسان: البصاق، والبول، والعَرق، والغائط، وشعر الرأس، وشعر الجسم، والخراريج أو الداحس، والأظافر، وما شابه ذلك.
- تاريخ النوم والأحلام.
- تاريخ الحياة والموت.
- تاريخ طبي للأمراض، وأعراضها وعلاماتها.

لكنه يطلب أيضًا معلومات عن جوانب أخرى في البشر، منها:

- تاريخ المشاعر، كـ: الغضب، والحب، والخزي، وما شابه ذلك.

وقد رأى كثير من النَّاس استحالة اتِّباع مشروع بيكون[15].

أما روبرت بويل، فلم يرَ ذلك، إذ ينصح المسافرين إلى المناطق الأجنبية، بقوله:

> لابد أن يُوجد وصف دقيق للسكان أنفسهم، أهل البلد والأجانب المقيمين بها منذ فترة طويلة، على حد سواء، وبصفة خاصة: القامة، والهيئة، واللون، والسمات، والقوة، والرشاقة، والجمال (أو الافتقار إليه)، والبشرة، والشعر، والعادات الغذائية، والطباع، والعادات التي ليست نتاج التعليم[16].

لكن اهتمام بويل كان منصبًّا على العلوم، ويتضح ذلك من افتتان بويل بتقرير عن سحر الطقس، إذ كانت إحدى السفن الإنكليزية راكدة في غربي جبال الإنديز، فاستجلبت كاهنة (شامان) من سكان أمريكا الأصليين الرياح من أجلها لتتحرك. وذكر القبطان في تقريره أن الساحرة، وهي "عجوز شمطاء"، استخدمت السحر والطقوس، ونفخت في قشرة فاكهة صلدة، فجلبت الغيوم إلى

---

(15) See Carey (2005: 14-23).

(16) Boyle (1665-1666: 188).

السماء الصافية. ونتج عن "السحب القاتمة" "رعد وبرق وعاصفة هوجاء برياح وأمطار".

ولعلك تفترض أن اهتمام بويل بهذا التقرير هو اهتمام بالسحر، لكن أحد الباحثين يدحض ذلك، ويقول: إن اهتمام بويل "بعلم الظواهر الجوية" كان أكثر من اهتمامه "بمقارنة الأديان"[17].

وبسبب هوس لوك بكتب الرحلات، بدا كأنه يُنفّذ منهج بيكون بتطبيقه على البشر، فعن طريق الملاحظة والتجريب، كان لوك يجمع بيانات عن **النَّاس**، فواصل مشروع بيكون بطرائق لم يسبقه إليها أحدٌ[18].

استخدم لوك معلومات الرحلات لتأييد اتجاهات فلسفية شتى، فقد استخدم، على سبيل المثال، أوصاف النباتات والحيوانات الأجنبية لاستكشاف مشكلات في طريقة تصنيفنا الكائنات الحية، وقد أدت هذه المشكلات فيما بعد إلى رأي لوك بأننا لا يمكن أن نعرف جوهر المخلوقات الحقيقي[19].

كذلك استخدم لوك كتب الرحلات لاستكشاف الطرائق المختلفة لإقامة الحكومات. وهو يرى، على سبيل المثال، أن الحكم الاستبدادي يمكن أن يؤدي إلى أكل لحوم البشر، كما استخدم كتب الرحلات لدراسة المعتقدات الفلسفية الشائعة، ومن بينها الإيمان بالأفكار الفطرية.

يقول كتاب لوك **مقالة**: إن للبشر حاجات فطرية: "أعترف أن الطبيعة قد حبت الإنسان برغبة في السعادة ونفور من الشقاء"[20]. لكنه ينفي أن البشر قد وُلِدوا بأي أفكار فطرية. ويبرهن على كلامه بأنه: "إن كانت فكرةٌ ما فطرية، فلابد أن تكون لدى كل النَّاس، فليس من المعقول أن يولد البشر بفكرة فطرية،

---

(17) Talbot (2010: 209-10).

(18) للمزيد عن علاقة لوك بيكون وبويل والجمعية الملكية فيما يتعلق بالسَّفر، انظر:
Carey (2005), Talbot (2010), and Anstey (2011).

(19) See Connolly (2013).

(20) أخذت هذه الإحالة وما يليها من Locke (1690: I.II.3-I.III.9).

ثم يفقدونها بعد ذلك في حياتهم". وبالتالي، يرى لوك إن كان بعض النَّاس يفتقرون إلى فكرةٍ ما، فلا يمكن أن تكون هذه الفكرة فطرية لدى البشر. وليس بوسعنا أن نرى الأفكار داخل أذهان النَّاس، لذلك يرى لوك أننا لابد أن ندرس أفعالهم، فإن كان النَّاس يعتنقون فكرةً محددة، فستبينها أفعالهم.

قال فلاسفة كثر: إن الأفكار والمبادئ الأخلاقية فطرية لدى البشر، ويضرب لوك مثلًا على ذلك فيقول: "يحافظ الوالدان على أبنائهم ويحميانهم"، ويرى لوك أن هذا المبدأ لا يمكن أن يكون مبدأً فطريًّا؛ لأن جماعات كثيرة من النَّاس لا تؤمن به، وباستخدام أبحاث الأسفار، يدلل لوك على وجود أمم كاملة من الشعوب المتحضرة تترك أطفالها في الحقول، "ليلقوا حتفهم؛ بسبب العوز، أو بسبب الوحوش البرية".

وفي بعض الأحيان، يُدفن الأطفال في نفس المقابر مع أمهاتهم، إذا متن في أثناء الوضع، و"يُقتل" الأطفال إذا أعلن منجّمٌ أن "طالعهم مشؤومًا".

ويذكر لوك أن المسيحيين المنغريليين، وهم أناس في جورجيا، "يوأدون أطفالهم دون أن يهتز لهم جفن". كذلك يزعم لوك أن ثمة مناطق يأكل فيها النَّاس أبناءهم.

وفي جزر الكاريبي، كانت لدى السكان "عادة إخصاء أطفالهم؛ بغرض تسمينهم وأكلهم"، وكان من عادة سكان بيرو "تسمين وأكل الأطفال الذين ينجبونهن من السبايا اللواتي يحتفظون بهن كمحظيات لهذا الغرض".

إن ما كان يشغل لوك هو أن هذه الممارسات لم تكن "تُدان أو تُستهجن" في هذه المجتمعات، وكانت كتب الرحلات التي يستخدمها لإثبات مزاعمه، كلما أمكن ذلك، أحدث من الكتب التاريخية، وكان كذلك يفضّل الأبحاث التي تستند إلى مصادر متعددة.

كان العديد من أمثلة لوك تتعلق بمناطق نائية، مثل: جزر الكاريبي وبيرو، وبالتالي، يمكن أن يحتج ناقدٌ ما على استخدام لوك ما ندر من "أمم وحشية

وهمجية" لإثبات وجهة نظره، ولدحض هذا، يشير لوك إلى أن وأد الأطفال كان يحدث لدى الشعوب "المتحضرة" أيضًا، ويزعم أن اليونانيين والرومانيين كانوا في كثير من الأحيان يتخلون عن أطفالهم "بلا شفقة أو ندم".

يرى لوك أن كثيرًا من الأفكار الأخلاقية يُفترض أن تكون فطرية، إذ ينبغي أن نرعى المريض، وأن ندفن الميت، وأن نتجنب ممارسة الجنس خارج الزواج، وباستخدام السَّفر، يرى لوك أن هذه الأفكار ليست فطرية أيضًا:

> في أحد مناطق **آسيا**، حين يُعتقد أن المريض في حالة ميؤوس منها، فإنهم يحملونه، ويرقدونه على الأرض [في الخارج] قبل أن يموت، ويتركونه هناك، معرضًا للرياح والطقس، ليلقى حتفه بلا مساعدة ولا شفقة... ويعتقد التوبينامبيون [شعب التوبينامبا Tupinamb في البرازيل] أن من الفضائل التي يستحق صاحبها الفردوس، الثأر وأكل كم كبير من أعدائهم... ومن كانوا يوصفون بالأولياء بين **الأتراك**، كانوا يعيشون حياة يخجل اللسان من وصفها.

لعل اختيار لوك أمثلة متطرفة: وأد الأطفال، وأكل لحوم البشر، وحياة الأولياء الأتراك المخجلة، وكان مقصودًا ليصدم القراء، فقد رأى الأوروبيون أن أخبار البشر الذين يأكلون بشرًا مخيفة يصعب تصديقها، مع ذلك وصف ماركو بولو ممارسات أكل لحوم البشر بالتفصيل، وأكد المستكشفون لاحقًا بوضوح هذه الحكايات الأولى.

ويخلص لوك إلى أن لا وجود لأفكار فطرية بشأن الأخلاق، فنفس الأفعال المذمومة في مكانٍ محمودة في مكانٍ آخر.

إن الطقوس المختلفة التي تُمارس أمام هذه الأوثان ممارسات خبيثة وشيطانية، ولن يكون ذكرها في هذا الكتاب إلا رجس (عمل بغيض).

مع ذلك ينبغي أن يعرف القارئ أن سكان هذه الجزر الوثنيين حين يمسك أحدهم بواحد من أعدائهم، لا يملك وسيلة لفداء نفسه بالمال، فإنه يدعو كل أقاربه وأصدقائه إلى منزله، وبعدما يقتلون سجينهم يطهون جسده ويأكلونه، بأسلوب احتفالي، مؤكدين أن لحم البشر أطيب نكهةً من لحم أي كائن آخر.

(ماركو بولو، "عن طبيعة الأوثان العديدة المعبودة في زيبانغو [اليابان] وطبيعة الشعب الذي يدمن أكل لحوم البشر"، كتاب **رحلات ماركو بولو**، حوالى 1300م).

كان يمكن أن يرحب لوك بحكاية واليس عن البقاء في ألاسكا بالرغم من أنها قد تكون خيالية. فالجانب المزعج في حكاية **المرأتين العجوزين** هو كيف وصل الأمر إلى أن شا و تشيدزيغياك تُركتا وحدهما في البرية.

في الفصول الأولى نعرف أنهما تنتميان إلى قبيلة تصارع البقاء في الشتاء الطويل الكئيب، وكانت المرأتان مسنتين، ولم يُعد بوسعهما المشاركة بدنيًّا في مهام القبيلة اليوم، وعند الشكوى من عبئهما، يقرر الزعيم التخلي عنهما، وكان هذا يعني ترك المرأتين للموت، فثَم عبءٌ تنبغي التضحية به إن كان في ذلك بقاء القبيلة الأكبر.

هذا الفعل، قتل كبار السن أو تركهم للموت، يُعرف بـ: "التخلص من المسنين" senicide.

وتتخذ الثقافات المختلفة مواقف مختلفة تجاه هذا الأمر، ومن الجهة التاريخية، كان التخلص من المسنين يحدث (نادرًا، لكن بين حين وآخر) بين شعوب القطب الشّمالي، وفي اليابان واليونان. ولعله ما زال يحدث حين يومنا هذا في بعض مناطق الهند[21]. ولنأخذ المبدأ الأخلاقي: "ينبغي أن نحافظ على كبار السن"، وقد يقول لوك، كغيره، إن هذا المبدأ ليس مبدأً فطريًّا؛ لأنه ليس لدى كل البشر.

(21) http://articles.latimes.com/2013/jan/15/world/la-fg-india-mercy-killings-20130116.

وبعد انتقاد الرأي القائل بأن الأفكار والمبادئ الأخلاقية فطرية، يواصل لوك نفي أن لدى البشر فكرة فطرية عن الرب.

فإن كان ديكارت على صواب والبشر يولدون بفكرة عن الرب، فستكون هذه الفكرة عند كل البشر، لكنها ليست لدينا، كما يشير لوك.

ويزعم لوك أن وجود المُلحدين "مطبوع في سجلات التاريخ"، علاوة على ذلك، فإننا اكتشفنا، من خلال كتب الرحلات، "أممًا كاملة" ليس لديها "أدنى فكرة عن الرب"، وأكرر: يدعم لوك هذا الزعم بكتابات الرحلات. على سبيل المثال: يرد في تقرير عن شعب التوبينامبا في البرازيل أنهم "ليس لديهم حتى اسم للرب... ولا اعتراف بأي: إله، ولا دين، ولا عبادة".

ويضيف لوك: إن الإلحاد موجود في البلاد "الأكثر تحضرًا" أيضًا، ومنها الصين وسيام [تايلاند حاليًّا]، ويرى لوك أن لو كان كل إنسان يعتنق فكرة فطرية عن الرب، لمَا احتاج الفلاسفة إلى إقناع الملحدين بأي شيء[22].

للسفر دور كبير في جدل لوك المناهض للأفكار الفطرية، إذ يمضي كتاب **مقالة** في مناقشة أن كل أفكارنا تأتي من **إدراك** العالم، أو التأمل في الأفكار التي لدينا بالفعل. فأفكاري عن السيارات والأنهار تأتي من إدراكي لها، أما أفكاري عن السياسة والفلسفة، فتأتي من التأمل في الأفكار التي لديَّ بالفعل. وبالنسبة للوك، الرب موجود، لكننا ليست لدينا فكرة فطرية عنه.

لعله كان سيكون أمرًا مثيرًا أن تعرف كيف كان ديكارت سيرُد على هجوم لوك على الأفكار الفطرية. لكن لسوء الحظ أن ديكارت مات قبل أن ينشر لوك كتابه **مقال في الفهم البشري**. مع ذلك، هاجم عدد من الفلاسفة آراء لوك عن الأفكار الفطرية. وكان هجوم عالم اللاهوت الإنكليزي إدوارد ستيلينغفليت Stillingfleet في عام 1697 أشدها استفزازًا.

كان ستيلينغفليت مفزوعًا من رأي لوك بأننا نفتقر إلى فكرة فطرية عن

---

(22) Locke (1699: 447).

الرب، وانتقد استخدام لوك كتب الرحلات، وكان يرى أن اختيار لوك الأمثلة "اختيارًا سيئًا" لسببين:

السبب الأول: هو أنه اختار كتب الرحلات التي لم يكن مؤلفوها على دراية كافية بسكان البلد ولا لغتهم، أو الذين كانت شهادتهم تتعارض مع غيرهم من الرحالة الذين أقاموا فترة أطول في بلدٍ ما، وكان فهمهم لها أفضل.

رد لوك على ستيلينغفليت في عام 1699، ودافع بقوة عن تقارير الرحلات. على سبيل المثال: رد لوك ردًّا حاسمًا على أنه استقى معلوماته عن سولدانيا (منطقة في جنوب إفريقيا) من "سفير من **ملك إنكلترا** إلى **المغولي العظيم**"[23]. وبالرغم من رد لوك، كان لستيلينغفليت بعض الحق، إذ كان ما يستخدمه لوك من كتابات الرحلات يفتقر إلى الدقة أحيانًا... ولعل سبب ذلك أن تقارير الرحلات الحديثة الأولى كانت كثيرًا ما تنطوي على توجهات عنصرية أو قومية، وهي توجهات كانت تنعكس بلا شك على قرائها من الفلاسفة[24].

نتيجة ذلك، يسيئ الرحالة والمفكرون غالبًا فهم المجتمعات أو اللغات التي يختلطون بها. على سبيل المثال: بالرغم من صحة أن أممًا مثل الصين وتايلاند ليست مسيحية عادة، فإن لها تاريخًا دينيًّا طويلًا، وأبرز معتقداتها البوذية، وعلى هذا المنوال أسيئ فهم الديانات الإفريقية، فيرى جون مبيتي John Mbiti أن الروحانية الإفريقية لم تلفت النظر؛ **لأنها** تتوغل في مناحي الحياة الإفريقية كافة، ولا يوجد حد واضح بين الديني وغير الديني: "فحيثما يوجد الإفريقي، توجد ديانته"[25]. فضلًا عن ذلك، بالرغم من أن علماء

---

(23) Locke (1699: 449).

(24) يقدم Smith (2015) دراسة كأنها كتابٌ عن نشأة آراء بشأن الاختلاف العرقي بين البشر خلال العصر الحديث، وقد شارك لوك نفسه في تجارة العبيد، انظر: Glausser (1990). ويتناول وينكلر Winkler (2004) العرقية والقومية عند لوك وغيره من التجريبيين البريطانيين، مع مناقشة أوسع لاتجاهاتهم نحو التعددية الثقافية.

(25) Mbiti (1969: 2).

وللمزيد عن الدين في الثقافة الإفريقية، انظر: Oladipo (2004)

الأنثروبولوجيا (علماء الإنسان) سجلوا أكلًا طقسيًّا للحم البشر لدى شعوب مختلفة حول العالم، وكانت التقارير الحديثة الأولى تُبالغ مبالغة شديدة، وكانت الحكايات التي تصل إلى آذان لوك وأقرانه عن: أكلة البشر المرعبين في جزر الكاريبي، وإفريقيا، وبيرو، وجورجيا، غالبًا تتصف بالمبالغة أو الزيف[26]. وكان لدى المستكشفين ميل إلى "إضفاء الغرابة" على الشعوب التي لا يألفونها، عادّين أنهم "آخر"، فماذا يمكن أن يكون أشد غرابة من القبائل المجهولة التي تجوب الغابات المطيرة بحثًا عن لحم بشري؟

مع ذلك، لا تفلح عدم الدقة هذا في حالة ستيلينغفليت؛ ذلك لأن تقارير السَّفر هذه لم تغب عنها الدقة في الفكرة الأساسية، فثمة أماكن عديدة في الخارج ليست لدى سكانها فكرة عن رب **المسيحيين**.

يؤدي بنا هذا إلى السبب الثاني الذي يجعل ستيلينغفليت يعتقد بأن اختيار كتب الرحلات التي كان لوك يستخدمها كان سيئًا. ويقر ستيلينغفليت بوجود شعوب مُلحِدة في الخارج، وهو يذكر "الكافير" في سولدانيا، و"الكايغواي" في باراكواريا (باراغواي)، لكنه يرى أن هذه الشعوب "مجردة على نحو غريب من الحس السليم إلى درجة أنها يمكن ألا تُعد بشرًا"[27]. بعبارة أخرى: هؤلاء النَّاس ليسوا **بشرًا** في الواقع.

وبالرغم من أن هذا التوجه مروّع، لم يكن ستيلينغفليت وحده من اتخذه، ففي عام 1702، يعرض هنري لي لرأي لوك بأن البشر يولدون بلا أفكار، أو "بلا إجماع عام"، وفي نص يبدو أنه قصد به الإساءة إلى أكبر عددٍ ممكن من النَّاس، يكتب لي قائلًا:

لكن إن كان أي إنسان سيجلب أطفالًا أو بلهاء، كمن يولدون صمًّا وبكمًا

---

(26) See Anderson (2005: 131-3).

(27) يمكن أن تجد الاعتراضات في Stillingfleet (1697: 89-90). وعن الأساليب التي رد بها فلاسفة آخرون على لوك، ومن بينهم إيرل شافتسبيري الثالث وفرانسيس هتشيسون، انظر: Carey (2005). وللمزيد عن هذا الخلاف تحديدًا، انظر: Talbot (2010: 161-77).

ويظلون هكذا، بوصفهم حججًا ضد الإجماع العام، أو مجانين خرجوا من بيدلام*، أو متوحشين من الإنديز أو إفريقيا، في إنكار لقوانين الطبيعة تلك، فإنني [لن] أستطيع دحض حججهم[28].

يبدو أن لي يتفق مع ستيلينغفليت، فإن "وحوش البشر" الذين وجدوا في شرقي جبال الإنديز أو في إفريقيا ليسوا بشرًا حقيقيين، فكما أوضح ريتشارد بي. مور ناشط حقوق الإنسان في سبعينيات القرن العشرين: يغذي هذا التوجه ممارسات الرق الأوروبية. وهو يقول، على سبيل المثال: إن كريستوفر كولومبس صوّر أهل جزر الكاريبي بأنهم آكلو لحوم بشر شرهين بقصد تسويغ استعباد هؤلاء السكان الأصليين بالكامل[29].

ومنذ ذلك الحين، تصدى الفلاسفة الأفارقة لفكرة أن الشعوب غير الغربية، ليسوا بشرًا حقيقيين في آخر المطاف؛ معللين ذلك بأنهم بشر ككل البشر[30].

يرجع الفضل إلى لوك في رفض الزعم بأن الشعوب الأجنبية ليست بشرًا، ففي رده على ستيلينغفليت، يحذره لوك قائلًا: "إنك توشك على إنكار أن هؤلاء **الكافير** بشرًا"[31].

إن لوك يدعم إنسانيتهم إلى حد بعيد، وإننا لا يمكن أن نقول: إن بعض البشر، وليس كلهم، بشرٌ.

إن كان لوك على حق في أن البشر يولدون بلا أفكار فطرية، فإن إحدى نتائج ذلك أن البشر ليست لديهم فكرة فطرية عن الرب، وفي هذه الحالة، لا

(*) مستشفى الأمراض العقلية في إنكلترا. (المترجمة).

(28) Lee (1702: 25).

(29) Moore (1973: 121).

(30) على سبيل المثال: انظر مجموعة القراءات التي وردت في الفصل الأول من Coetzee and Roux (2005).

(31) Locke (1699: 496-7).

يمكن لاعتماد ديكارت على هذه الفكرة الفطرية أن يخرجه من الشك، ولعلي أحلم بنهر يوكون أو أهلوس.

واليوم، يعتقد بعض الفلاسفة بأن لدى البشر أفكارًا فطرية عن الرب والأخلاق، لكن ذلك لا يعني أنه لا يوجد شيء فطري، ويعتقد كثير من النَّاس، إتباعًا لنعوم تشومسكي، أنَّ اكتساب لغة البشر أمرٌ فطري[32].

ولعلك أنت أيضًا تظن أن كل عقول البشر مُهيأة للتفكير في سمات العالم "الأساسية" بطرائق خاصة: الألوان، والإدراك المكاني، والأرقام، فإذا كنتُ أستطيع إدراك اللون، ألا يفهمه عقلي بنفس الطريقة التي تدركه أنت بها؟

الإجابات مذهلة، ومازال السَّفر يؤدي دورًا في توليدها. على سبيل المثال: تميز لغات أوروبية كـ: الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية بين اللونين الأخضر والأزرق، ونحن نتخذ هذا التمييز اللغوي لنشير إلى اختلاف حقيقي في العالم، فالأخضر والأزرق لونان مختلفان، أصحيح؟ ربما لا، فقد وجد علماء اللغة عددًا من اللغات **لا** تميز بين اللونين الأخضر والأزرق، فهذه اللغات غالبًا تستخدم كلمة واحدة لتعبر عن الأخضر والأزرق، (وفي بعض الأحيان تُترجم الكلمة إلى الإنكليزية بكلمة 'grue'*)[33] وهذا يفسر سبب أن ألوان بعض إشارات المرور في اليابان: أحمر، وأصفر، **وأزرق**[34].

توصل الباحثون إلى اكتشافات أخرى غير متوقعة أيضًا، فقبيلة البيراها في البرازيل، على سبيل المثال: ليست لديها أي كلمات ترتبط بالزمن، والأغرب من ذلك، أن البيرها لا يستخدمون الأعداد ولا حتى لديهم مفهوم العدّ[35].

---

(32) See Chomsky (1965).

(*) أي كلمة تجمع بين أول حرفين من الأخضر green وآخر حرفين من الأزرق .blue (المترجمة).

(33) الدراسة الكلاسيكية [في هذا الموضوع] هي دراسة Berlin and Kay (1969). والطريف أن كلمة grue مأخوذة عن مقالة فلسفية في موضوع مختلف تمامًا. انظر: Goodman (1955)

(34) http://www.japantimes.co.jp/life/2013/02/25/language/the-japanese-traffic-light-blues-stop-on-red-go-on-what/#.WT-6xsbMy34.

(35) See Everett (2005).

وثمة لغات أخرى تتعامل مع المكان بشكلٍ مختلف، لنفرض أنك تصف لشخصٍ ما الطريق إلى أقرب محطة نفط، فيمكن أن تقول: "انعطِف يسارًا عند نهاية الطريق، ثم انعطف يسارًا مرة أخرى، وستجد المحطة عن يمينك".

هذا النوع من التوجيهات "يتمركز حول الذات": إذ إنه يعتمد على موقعنا، وعلى العكس من ذلك، يمكن أن تقول: "اتجه شمالًا، ثم غربًا، وستكون المحطة جهة الشّمال".

هذه التوجيهات "جغرافية"، فهي ثابتة، ومستقلة عن أجسادنا، ويستخدم الغربيون في حياتهم اليومية دائمًا مفاهيم المكان المتمركزة حول الذات: "ضع الكوب جوارك، "المخرج خلف سيارتك"، لكن لغة Guugu Yimithirr "جووغو يميتهير" التي يستخدمها بعض سكان أستراليا الأصليين، لا تستعمل **أي** إحداثيات متمركزة حول الذات[36]. وقد يعني هذا أنهم يتعاملون مع المكان على نحو مختلف.

لدي أفكار عن الرب والأخلاق، لكنني لا أعتقد أنها فطرية. مع ذلك، يغريني الاعتقاد بفطرية الطريقة التي أفكر بها في الألوان أو الأعداد، هل كان يمكن أن تتغير خبرتي بالعالم إن لم أعِد أرقامًا، أو إن لم أدرك أن السماء زرقاء وأن أوراق الشجر خضراء؟ إحدى طرائق الإجابة عن هذا السؤال هي أن أعيش زمنًا بين شعوب تختلف رؤيتهم للكون عن رؤيتي.

إن زعم ديكارت أن كل البشر يولدون بنفس الفكرة عن الرب زعمٌ خاطئ، لكن ما قاله عما يمكن أن يكشفه السَّفر صحيح، إذ يجدر بنا أن نستمع إلى النَّاس الذين تختلف آراؤهم عن آرائنا.

---

(36) See Haviland (1998).

كولونيا فلوريستون

أرق أنواع العطور وأدومها تأثيرًا، كما أنها تخفف: الصداع، والإنهاك، والهلع الذي يسببه إرهاق السَّفر، إنها رفيق حمام منعش وممتع للغاية.

السعر 25 سنتًا، والعبوة الكبيرة 75 سنتًا

المصنّع الوحيد **هيسكوكس وشركاه**، للصناعات الكيماوية، نيويورك

FLORESTON COLOGNE,

Is the most lasting, delicate, and fragrant of perfumes. As it relieves Headache, Prostration, and Nervousness, often induced by the fatigue of travel, it will be found an exceedingly refreshing and delightful toilet companion.

Price, 25 Cents; Large Bottles, 75 Cents.

Manufactured only by HISCOX & CO., Chemists, New York,

5

لماذا بدأت السّياحة؟

الجنس والتعليم والجولة الكبرى

بعدما تجاوزت نهر اليوكون، واصلت التوجه شمالًا، أقود السيارة ببطء على التلال شديدة الانحدار التي تشتهر باسم "قطار الملاهي"، وقد منح سائقو الشاحنات أجزاء أخرى من الطريق السريع أسماء موحية مشابهة، منها: "المنعطف القذر"، و"تل حافة الخوذة"، و"الهضبة الشرهة".

بعد بضع ساعات، توقفت عند جبل الإصبع، وهو تل عريض يعلوه منحنى من الغرانيت.

لم يكن عدد العُقد (النتوءات) كثيرًا، لكن المنظر العام كان مذهلًا، كانت الرياح تعوي حول الصخور، وتكاد تراها في الهواء الصافي، وكانت تترك طعمًا معدنيًّا على لساني، وكانت غابات التندرا تمتد عبر الأفق، بها تجاويف ولها سطح لامع، وقد اخترقت بقع خضراء التربة الجليدية، وكانت بلورات الثلج تثب على حذائي الطويل، فأخذت نفسًا عميقًا من هواء الشتاء، وقلت في نفسي: كم أنا محظوظة أنني سائحة!!

لقد سافر النَّاس عبر تاريخ البشرية، انظر إلى ألاسكا وحدها: لقد وصل سكانها الأصليون إليها قبل نحو 15 ألف سنة، والأرجح أن شعوب أميريند، ونا-ديني، والإسكيمو-أليوت، تتبعت قطعان الحيوانات عبر جسر بيرنغ لاند الذي يربط ألاسكا بأوراسيا[1].

غمر فيضانٌ هذا الجسر منذ نحو 10 آلاف سنة، لكن ذلك لم يعزل سكان

---

(1) https://www.alaskacenters.gov/explore/culture/history.

ألاسكا بالكامل، فقد وجد الباحثون مصنوعات يدوية من الزجاج البركاني والبرونز المحتوي قصدير عمرها بين 800 إلى 4000 عام، ويشير ذلك إلى علاقات تجارية كانت تربط أهل ألاسكا بسكان سيبيريا[2].

وهذا يسبق تاريخيًّا زيارات الروس والأوروبيين في القرن الثامن عشر[3]. ولم تكن هذه من اتجاه واحد، فقد سافر شعب الثول من ألاسكا Alaskan Thule إلى غرينلاند، حيث نجحوا في قتال الفايكينغ[4].

وبالرغم من أن البشر كانوا يسافرون طوال عشرات الآلاف من السنين، فإن ترف السّياحة حديث نسبيًا، فالسّياح **يختارون** السَّفر، وينفقون وقت فراغهم في الخارج بإرادتهم؛ بهدف الاستمتاع. وهذا النوع من السَّفر يختلف إلى حد بعيد عن رجل الدين الذي يقوم برحلة حج، أو اللاجئ الفار من الحرب، وبالرغم من أن تصنيف توماس بالمر للمسافرين (1606) يضم المسافرين "بإرادتهم" مثل: المرتزقة، والطلاب، لا يوجد فيه أي ذكر للسياح؛ ذلك لأن الفكرة الأوروبية عن سفر الاستمتاع لمَّا تكن قد وجدت بعد.

عُرف سفر الاستمتاع كنوع مختلف من السَّفر في منتصف القرن السابع عشر، فبحلول ذلك الوقت، كان الأوروبيون قد "اكتشفوا" العالم قبل مائة وخمسين عامًا، وكان مونتين وبيكون وديكارت قد دوّنوا أعمالًا رائعة عن أهمية السَّفر، وبدأت كتب عن: الاستكشاف، والسَّفر، والفلسفة الطبيعية تتسلل إلى الوعي الأوروبي، وأشعلت المخيلة البريطانية تحديدًا التي أذكتها مجموعة من كتب الرحلات الجديدة باللغة الإنكليزية.

كان أحد هذه الكتب كتاب توماس كوريات (1611) Thomas Coryate **مقبّلات تُلتهم بسرعة في رحلات مدة خمسة أشهر** *Hastily gobled up in Five Moneth's Travels*.

---

(2) عن هذه التجارة التاريخية، انظر المرجع السابق، وانظر أيضًا:
https://phys.org/news/2016-06-world-metals-alaska-coast-hundreds.html.

(3) للمزيد عن هذه المواجهات القديمة، انظر: 5.Worl (2016: 303)

(4) https://www.canadiangeographic.ca/article/reverse-colonialism-how-inuit-conquered-vikings

وهو يصف رحلة كوريات التي كان أغلبها سيرًا على الأقدام عبر أوروبا، ويضم الكتاب كمًّا كبيرًا من المعلومات عن البلاد التي سافر عبرها، منها معلومات عن: تاريخها، وطعامها، وقيمة عملتها. كان هدف كوريات هو تشجيع السَّفر عبر أوروبا[5]. وبالرغم من أن كوريات أقل شهرة اليوم، فإنه كان يلقب ذات يوم "بحامل الشوكة" Furcifer؛ لأنه من جلب شوكة الطعام إلى إنكلترا[6].

لاحظت عادةً في كل تلك المدن والبلدات الإيطالية التي مررت بها، لا توجد في أي بلد رأيته في أسفاري، ولا أظن أن أي أمة أخرى في العالم المسيحي تفعلها إلا إيطاليا.

> ذلك أن الإيطاليين ومعظم الأغراب النهمين أيضًا يستخدمون دائمًا شوكة صغيرة في وجباتهم حين يقطّعون اللحم؛ لأنهم حين يقطعون اللحم بالسكين الذي يمسكونه بيد واحدة، يخرج اللحم عن الطبق، لذلك يثبتون اللحم بالشوكة التي يمسكونها باليد الأخرى في الطبق نفسه، وبهذا فإنه حالما يجلس في صحبة آخرين لتناول وجبةٍ ما، فعليه توخي عدم لمس طبق اللحم الذي يأخذ منه جميع مَن يجلسون إلى المائدة بأصابعه، حتى لا يؤذي الآخرين؛ لأنه انتهك قواعد السلوك المهذب، لدرجة أنهم إن لم يوبخوه بالكلام، فعلى الأقل سينظرون إليه باستهجان؛ بسبب فعلته.
>
> **توماس كوريات، مقبلات، (1611)**

وتُوجد كتب أخرى، من بينها كتاب فاينز موريسون Fynes Morison (1617) **يوميات الرحالة: تضم سفره لعشر سنوات عبر: أقاليم ألمانيا الاثني عشر، وبوهيميا، وسويسرا، وهولندا، والدانمارك، وبولندا، وإيطاليا، وتركيا، وفرنسا، وإنكلترا، واسكتلندا، وإيرلندا.** في حين وصف كتاب وليام ليثغو William Lithgow (1632) **مغامرات نادرة ورحلات مؤلمة** رحلات عبر: أوروبا، والشرق الأوسط، وشمالي إفريقيا.

---

(5) Coryate (1905: 236).

(6) Strachan (2013).

بدأت كتب من هذا القبيل تشجع الأرستقراطيين على السَّفر عبر أنحاء أوروبا، وهم وحدهم الأثرياء الذين يمكنهم تحمل نفقات رحلات كهذه، وبالرغم من سفر الصفوة من دول عديدة، فإنه كان هوس بريطاني في المقام الأول[7].

وقد ارتفع عدد المسافرين بعد عام 1648 الذي وضعت فيه حرب الثلاثين عامًا في وسط أوروبا أوزارها. (ولا يعني ذلك أن أوروبا كانت تعيش في سلام بعد هذا التاريخ، فقد شهدت الحرب الهولندية 1672-1678، وحرب الخلافة على العرش البولندي 1733-1738، وحرب جينكنز إير البريطانية-الإسبانية 1739-1748، وحرب السنوات السبع التي عمت أوروبا (1756-1763)، وينصح بالمر المسافرين بتجنب السَّفر إلى البلدان "التي بها حروب أهلية أو على وشك خوض حرب".

بدأت رحلات شباب النبلاء البريطانيين تتحول تدريجيًّا إلى "الجولة الكبرى"، ويرجع تاريخ هذه التسمية إلى كتاب ريتشارد لاسيلز Richard Lassels (1670) **رحلة بحرية إيطالية.**

يكتب لاسيلز مؤكدًا أن ما من أحد سيفهم التاريخ الأوروبي ما لم يقم "بجولة كبرى" في أنحاء إيطاليا وفرنسا.

وبالرغم من أن لاسيلز يُعرف بأنه من جلب تعبير "جولة كبرى" إلى الإنكليزية، فمن الجدير بالذكر أنه قد لا يعدّه تعبيرًا إنكليزيًّا، إذ يحذرنا لاسيلز من أنه يميل إلى استعمال "مجموعة هائلة من الكلمات الغريبة التي لمَّا تصبح مألوفة بعد في إنكلترا"، فأصل التعبير فرنسي، كما يبين معجم إنكليزي- فرنسي نشر في عام 1702، حيث يترجم "طافوا لمسافة كبيرة (في نزهة أو رحلة للمتعة)" 'They took a great Range (Ramble, or Jaunt)' إلى الفرنسية '*Ils ont fait un grand tour*' (قاموا بجولة كبرى).

---

(7) Black (2011: 1).

والآن، فلنضع أصل الكلمة جانبًا، كانت هذه الجولة تستغرق عادةً من عامين إلى ثلاثة أعوام، وأصبح المسار محددًا، حيث يغادر المسافرون لندن، ويعبرون القناة الإنكليزية إلى باريس. ومن هناك، تنطلق الرحلة إلى: چنيف، وبرشلونة، وتورين، وفلورنسا، وبادوا، وفينيسيا (البندقية).

كانت روما هي قلب الجولة، وكان المسافرون يزورون نفس الأماكن تقريبًا التي تُزار اليوم: الكولوسيوم، البانثيون، كاتدرائية القديس بطرس، كنيسة سيستين، متاحف الفاتيكان. وبعد روما كان يمكن للمسافر المغامر أن يتجه إلى اليونان أو مصر، أما الباقون، فيعودون أدراجهم إلى الوطن، وربما يمرون بـ: ڤيينا، أو دريسدن، أو برلين، أو هايدلبيرغ، أو أمستردام.

كان سياح الجولة الكبرى غالبًا من الرجال، تتراوح أعمارهم بين السادسة عشر والثانية والعشرين، وكان يصحبهم مرشد خاص أكبر سنًّا يُعرف بلقب: "رفيق السَّفر" (أو سائق الدببة) الذي يقود مَن معه من مدينة إلى أخرى وكأنهم دببة راقصة مربوطون بحبل.

وكان هؤلاء المرشدون عادةً رجال دين عاديين أو أساتذة جامعيين، وفي بعض الأحيان كانوا مفكرين بارزين، فالفلاسفة: توماس هوبز، وجون لوك، وجورج بيركلي، وآدم سميث كانوا جميعًا سائقي دببة ذات يوم.

لماذا يريد سياح الجولة الكبرى السَّفر؟ هل كانت سياحتهم مجرد استلهام للمزيج الخلاب من الاستكشاف وكتب الرحلات الذي ملأ جو أربعينيات القرن السابع عشر؟ كلا، فقد وجدت أيضًا دوافع أبسط: التعليم والجنس.

وظاهريًّا، كان سياح الجولة الكبرى يسافرون لإنهاء دراستهم.

ففي مقالة "**عن السَّفر**" (1625)، يصف فرانسيس بيكون السَّفر بأنه تعليمٌ، وينصح الشباب بأن يدونوا الأشياء التي يرونها في الخارج.

ويشير إلى أن على المسافرين أن يشاهدوا بلاط الأمراء، وبخاصة عند مقابلة السَّفراء، ومحاكم العدل حين تنعقد لتنظر في القضايا.

كذلك ينبغي أن يزوروا: الكنائس، والأديرة، والآثار، والأسوار، وتحصينات المدن والبلدات، والمرافئ، والموانئ، وما يتعلق بثقافة العصور القديمة، والأطلال، والمكتبات، والكليات، وقاعات المحاضرات، ومحطات الشحن والأساطيل البحرية، ومنازل المدن وحدائقها. وجدير بالذكر أنه كان على المسافرين أيضًا البحث عن مستودعات الأسلحة الأجنبية، والترسانات، ومخازن الذخيرة، ومستودعات المؤن، وساحات تدريب الخيول، ومسابقات المبارزة، وتدريب الجنود[8].

ففي رأي بيكون، فيلسوف العلم البارز، ما السَّفر إلا **لجمع المعلومات.**

تبدو ملاحظات بيكون كأنه يستلهم إسحق نيوتن، ففي خطاب كتبه نيوتن في عام 1669 إلى زميل أصغر سنًّا في جامعة كامبريدج كان على وشك السَّفر إلى الخارج، ينصحه قائلًا:

1. لاحظ موارد ثروات البلاد وحالتها العامة بقدر ما يستطيع أن يفعله المسافر المنفرد.
2. أهم الضرائب المفروضة على أصحاب الحرف وعلى السلع.
3. قوانينهم وأعرافهم وإلى أي حد تختلف عن قوانينا وأعرافنا.
4. الحرف والفنون التي يتميزون بها عنا، أو نفتقر نحن إليها في إنكلترا.
5. ما ستجده من: تحصينات، وقوة طرازها، وقدرتها على الدفاع، ولا بأس بأي شؤون حربية أخرى.
6. قوة مكانة النبلاء والقضاة وقدر احترامهم.
7. لن يكون مضيعة للوقت عمل دليل بأسماء وألقاب الرجال المتعلمين تعليمًا رفيعًا وذوي المكانة في أي بلد.
8. لاحظ آلية ووسائل إرشاد السفن.

---

(8) Bacon (1996: 364-6).

9. لاحظ موارد الطبيعة في أماكن مختلفة، وخاصة المناجم، وظروف التنقيب عن المعادن واستخراجها[9].

أحد أسباب غرابة هذا الخطاب هو التأكيد على "التعدين"، وسبب آخر هو أن نيوتن نفسه لم يخط خارج إنكلترا قط (في الواقع، معظم نصائح السَّفر مسروقة من مخطوطة شخصٍ آخر).

ويبدو أنَّ نيوتن أدرك غرابة أن يقدم رجل لا خبرة له بالعالم نصائح عن العالم، إذ يبدو أنه لم يرسل الخطاب.

رأى مفكرون آخرون أن السَّفر التعليمي وسيلة لتحويل الأولاد إلى رجال مهذبين، فيقدم تصدير دليل سفر **الجولة الكبرى** (1749) الذي كتبه توماس نوجينت Thomas Nugent بضعة تعليقات على السَّفر "تلك العادة النبيلة والقديمة".

يكتب نوجينت أن هذه العادة ترمي إلى إثراء العقل بالمعرفة بشكلٍ ملموس، وتقويم حكم المرء، وتشكيل آداب سلوك المرء، وفي النهاية سيشكل السَّفر "السيد المهذب المثالي"[10].

أيد هذه الفكرة جان جاك روسو الذي سافر كثيرًا، وكان قد ولد في چنيف، لكنه في عام 1742 حين كان شابًّا اتخذ طريقه إلى باريس ليصبح موسيقيًّا، وبعد ذلك، عاش في فينيسيا، وبدأ ينشر أعمالًا فلسفية، ومنذ عام 1756، طاف روسو بالريف الفرنسي، وأقام مع أصدقاء أثرياء. وفي آخر المطاف، أدانت السلطات الفرنسية أعماله بوصفها زندقة، وحكم عليه بالنفي، فانتقل من سويسرا إلى ألمانيا، ثم إلى إنكلترا، إلى أن عاد إلى فرنسا متخفيًّا في عام 1767، وتوفي روسو في باريس بعد ثلاث سنوات كان ينسخ فيها النوتات الموسيقية لكسب القوت.

---

(9) Newton (2008: 9-11).

(10) Nugent (1749: I.vii-viii).

السَّفر موضوع محوري في رواية روسو **إيميل أو رسالة في التعليم** (1762).

تصف هذه الرواية الفلسفية نشأة ولد، هو إيميل، منذ ميلاده إلى سن البلوغ، وكان مُربي إيميل يهدف إلى تعليم الولد الأخلاق واحترام الذات والسلوك القويم، ويصف المُربي سفر إيميل معه على ظهر جواد:

> إننا لا نسافر كرفقاء السّياح، بل كمستكشفين، ولا نهتم بالبداية والنهاية وحسب، بل بما بينهما. والرحلة في ذاتها متعة، ولا نسافر جلوسًا، تسجننا الكآبة، إن جاز التعبير، في قفص محكم الغلق، ولا نسافر بسهولة وراحة كالسيدات، ولا نحرم أنفسنا من الهواء النقي، ولا من مشهد الأشياء من حولنا، ولا من فرصة تجربتها إذا رغبنا في ذلك، إن إيميل لن يدخل أبدًا عربة مغلقة تجرها الخيول[11].

ويشرح روسو، في مقالة "عن السَّفر" التي ذيّل بها الكتاب، سبب أهمية السَّفر للتعليم، فيقول:

> يسرّع السَّفر تقدم الطبيعة، ويؤثر في الإنسان بالخير أو الشر، فعندما يعود المرء من سفر حول العالم، سيظل على ما عاد به طوال حياته، وهناك من يعود بشرٍّ أكثر من الخير؛ لأنه بدأ بنزوعٍ أكبر إلى الشر. ويكون الشباب خلال أسفارهم أقل علمًا وأقل تهذيبًا، فيلتقطون كل رذائل الأمم التي تغربوا فيها، ولا يأخذون الفضائل التي تقترن بهذه الرذائل، أما هؤلاء الذين، لحُسن حظهم، نبتوا نباتًا حسنًا، وأُحسن غرس نزعاتهم، وأولئك الذين يسافرون برغبة حقيقية في التعلم، فيعودون جميعًا أفضل وأحكم مما ذهبوا، وسيسافر إيميل على هذا النحو[12].

---

(11) Rousseau (1921: 374).

(12) Rousseau (1921: 418).

فإيميل، بكل ما غُرس فيه من "نزعات طيبة" سينمو نموًا حسنًا ويصير أشد حكمة.

بحلول عام 1776، انتشرت "الجولة الكبرى" بغرض التعليم على نطاق واسع لدرجة أن الفيلسوف الاسكتلندي آدم سميث اشتكى من شحن الشباب إلى البلاد الأجنبية بدلًا من التحاقهم بالجامعة.

وكان سميث قد درس في إكسفورد وغلاسكو، ونال الأستاذية في غلاسكو، وعلى عكس روسو، لم يبهره تأثير السَّفر في الشباب، ويكتب سميث أن الشباب بصفة عامة يعودون إلى الوطن "متغطرسين" و"بلا مبادئ"؛ لأنهم بددوا ثلاث أو أربع سنوات "في العبث والتفاهات"[13].

يقصد سميث بتلك العبارة المنمقة أن سياح "الجولة الكبرى" يبددون وقتهم فيما لا يفيد في المتع الحسية، وهذا يكشف لنا الجانب المظلم في "الجولة الكبرى". فإذا كان التعليم هو السبب "الظاهر" للسفر عبر أنحاء أوروبا، فإن السبب الخفي كان "الفجور": شرب الخمر بلا حساب، لعب الميسر، ممارسة الجنس، ويرجح أن تكون هذه هي دوافع السَّفر "الشاذ" التي يصفها بالمر.

تبين نصائح لاسيلز إلى سياح الجولة الكبرى[14] أنه كان على دراية تامة بهذه المخاطر، فيقول: إن على المسافر أن يرمي "إلى نفعه" وليس إلى ملذاته وحدها: "لقد عرفت العديد من الإنكليز، كان يعوزهم الهدف السليم، ففقدوا نقاء النشأة، واتساع الآفاق".

وفي كلام لاسيلز هنا تورية، إذ يقصد "بنقاء النشأة" التحلي بالسلوك القويم والفضائل مقابل الممارسة الجنسية، ويواصل لاسيلز القول:

---

(13) Smith (1776: 357).

(14) Lassels (1670: xiii-xxxvii).

ذلك لأن البعض في السَّفر لا يهدفون إلى شيء سوى الإفلات من تحكم آبائهم أو معلميهم، والإنفاق بلا حساب، فحين يصل هؤلاء إلى **فرنسا** لا يهتمون بمشاهدة أي ساحة سوى ساحة التنس، ولا تسرهم رؤية أي فن سوى لعب التنس، ويهجرون أي صحبة؛ ليجروا قُرعةً لأيام كاملة بعملة ممزقة في مكاتب الرهونات.

إنفاق المال، ولعب الميسر، ولعب التنس، كلها مخاطر، ولكن تظل النِّساء أشد هذه المخاطر:

يرغب آخرون في الذهاب إلى إيطاليا، لا لسبب إلا؛ لأنهم سمعوا بوجود بغايا جميلات في فينيسيا... يسافر هؤلاء معًا شهرًا كاملًا إلى فينيسيا، لقضاء ليالٍ ماجنة مع امرأة فاسقة، وهذا بزعم أنهم يريدون أن يكون لهم نسل في الخارج، فيعودون بتلك الأمراض التي تمنعهم من أن يكون لهم نسل في الداخل.

يصف لاسيلز سائقي الدببة المستهترين الذي يحبسون تلاميذهم "في غرفة مع امرأة فاسقة، ويأخذون المفتاح معهم، وبالطبع يمكن أن تكون المرأة الفاجرة أو الفاسقة شديدة الجاذبية في نظر شاب غرير".

والمؤكد أن النِّساء على هذه الشاكلة كنَّ يتمتعن بجاذبية شديدة في نظر جيمس بوزويل.

هذا الكاتب الذي اشتهر بيومياته عن الحياة في لندن، وكتابه عن سيرة صامويل جونسون، لكن الأقل شهرة هو سعيه الدائم وراء النِّساء في كل مكان، بالرغم من أنه سجل ذلك بدقة في خطاباته ويومياته.

على سبيل المثال: يكتب بوزويل في خطاب مؤرخ في 19 تموز 1765:

في روما، كنت أتقلب بين العاهرات حتى أصابني مرض تناسلي، ذلك الذي يسبب البلاء في هذه الدنيا. وعندما ذهبت إلى فينيسيا، كان مازال

بي بعض آثار المرض، لكن الأوهام التي كوّنتها عن بغايا فينيسيا أدارت رأسي، فذهبت إلى راقصة أوبرا، وأخذت لورد مونتستيورات معي، ونلنا منها نحن (أقصد الاثنين)، فنالنا نحن نفس العقاب الذي أصابني في روما، ونعمَ الأفعال[15].

يسجل بوزويل أيضًا أنه تودد إلى سيدة نبيلة "أكبر قليلًا في السن" في فينيسيا، فرفضته لأنها لا تود أن يكون لديها طاهٍ بارع لا يمكنها الاحتفاظ به لأكثر من أسبوعين".

كما يكتب عن زيارات أخرى لبغايا من فينيسيا: "لقد حاربت ولم يفتني المجد"، وفي فلورنسا خطب بوزويل ود سيدتين، وكان سعيدًا في إيطاليا، حيث "لم يعد على المرء أن يخشى خنجر زوج غيور"، وفي وقتٍ لاحق، ارتبط بعلاقة غرامية قصيرة مع إحدى عشيقات روسو.

جمعت بوزويل وغيره علاقات جنسية بنساء من مختلف الخلفيات والأماكن[16].

فيصف بوزويل سعادته "بالفكرة الرومانسية في إقامة علاقة مع امرأة تركية"، وكان يبحث عن "الفتيات السكسونيات"، وبلغ به الأمر أنه كان يبحث عن "أقبح امرأة" يمكن أن يجدها، وكان يرغب في الوصول إلى: "فتاة سويسرية"، و"كونتيسة إيطالية"، و"سيدة فلورنسية".

كانت تجارب بوزويل شائعة بين سياح "الجولة الكبرى"، ويسجل بوزويل سعيه وراء النِّساء مع أصدقائه، وكانت لهم حوارات طويلة حول مَن يفضلون من العاهرات وبيوت الدعارة، ومنذ عام 1570، كانت هناك حملات على بيوت الدعارة في لندن، وهذا يفسر سبب شيوع هذا الجانب في "الجولة الكبرى"، وقد استمرت بيوت الدعارة مفتوحة في لندن، ويسجل بوزويل زياراته لعددٍ منها.

---

(15) Boulton & McLoughlin (eds.) (2012: 155).

(16) See Moulton (2000: 113-18) and Littlewood (2001: 40-52).

لكن كان العثور على العاهرات أسهل في القارة الأوروبية[17].

يقدم كتاب فيليب ثيكنيس **تلميحات مفيدة لمن يقومون بجولة في فرنسا** (1768)، نصائح عملية تتعلق بارتكاب الفواحش:

> من المؤكد أن الرجال الذين يتمتعون بثروة كبيرة، لا يمكنهم في أي مدينة في العالم أن يشبعوا شغفهم من جميع المناحي وبهذه الوفرة، كما في باريس. ففيها الإغواء الذي يوقع كل هذا العدد، ولا سيما من الرجال الإنكليز، في فخ مدينة **الحب** والحماقة، وتستنزف هذه المبالغ الهائلة من البلدان الأخرى وتغرق في الفجور من كل لون[18].

ويشرح ثيكنيس بتهكم مستتر أن باريس تزخر بنساء متزوجات يشتهرن "بإخلاصهن"، فهو يعرف زوجة محددة "تقضي نهارها كله في العبادة والاعتراف، والمساء كله مع عشيقٍ شاب".

كان سائقو الدببة أحيانًا يشجعون العلاقات الجنسية، ما دام مَن تحت رعايتهم سيقيمون العلاقة مع "النوع المناسب" من النِّساء؛ ذلك لأن بعض الآباء كان يرون أن "الجولة الكبرى" فرصة لتعليم أبنائهم هذا الجانب من الحياة، فقد كان لورد تشيسترفيلد يأمل أن يتحسن حال ابنه غير الشرعي غير الواعد بخبرات من هذا القبيل:

> ... العلاقة **المدبرة** [بالفرنسية] التي تعني بالإنكليزية الصريحة التودد [الاتصال الجنسي]، تعد في باريس إحدى الضرورات في حياة المرأة العصرية، مثل: بيتها، ومائدتها، وأريكتها، وما إلى ذلك. لذلك، فمن الحماقة أن يترك الشاب امرأة ذات: صحة، وعلم، وجاه، ويقبل على عاهرات فيهن ما فيهن (ولم يكن هذا بالأمر المشين)[19].

وقد تطورت التربية الجنسية منذ ذلك الحين.

---

(17) See Moulton (2000: 171).

(18) Thicknesse (1770: 158).

(19) نقلًا عن: Littlewood (2001).

لا يمكنني أن أغفل في الحديث هنا عن مغامرة حدثت للسيد ديكسون في جمعية الكونت دي دوجلاس، فبعدما لعب الورق لبعض الوقت مع مدام دي بولييناك، وهي سيدة فائقة الحسن، عرضت عليه أن توصله إلى بيته في عربتها، فقبِل ذلك بترحاب شديد، فوجد هذا الرجل (الذي كان يهوى الملذات) نفسه بمفرده مع سيدة شابة جميلة، فلم يستطع أن يمنع نفسه من وضع يده في موضع قد لا تسمح به بعض النِّساء، وبعدما أسعد نفسه قليلًا بهذا، وتحملت هذه ذلك بصبر بالغ، قالت له (بطريقة جذابة) أنه مادام قد تعامل معها بهذا القدر الكبير من الحرية، فإنها لن تمانع في التعامل معه بألفة، فأمسكت بذراعيه، فوجدت أنهما ضعيفان على ما تريد عمله، فضربته بشدة، فقال كل ما استطاع قوله عن نفسه، وأخبرها أنه كان في مهمة شاقة لبعض الوقت في حروب فينوس، وإذا كانت ستمنحه يومًا واحدًا فقط للتطوع من جديد، وساعتها سيتصرف كالرجال، فلم تقبل أعذاره ودفعت به خارج العربة، ثم أعطته هذه النصيحة: "لا تهاجم أبدًا امرأة جميلة إن كانت ذخيرتك قد نفدت".

Lord Carpenter (1717)

أحيانًا كان فجور الدببة يصل إلى أقصى مدى، ومن ذلك أنهم كانوا يصلون إلى شدة السُّكر والعنف، وكانت السفارات البريطانية تنزعج من أنشطة السّياح الإنكليز خارج البلاد، وكما قال شاهد عيان: كان السائحون "يتنافسون على من منهم هو الأكثر وحشية والأشد غرابة"، وقد سجل أحد المسافرين في ميلان لقاءه ببعض الإنكليز: "ليلة أمس شاهدت مجموعة منهم، نحو عشرة أفراد، وقد أتوا على ستٍ وثلاثين زجاجة خمر [من أنواع مختلفة]، وظلوا يحدثون جلبة إلى السادسة صباحًا، فلم نستطع النوم"، ويشكو مسافر آخر من السّياح الإنكليز في ڤيينا، إذ: "تجدهم دائمًا اثنين رجلٌ وزجاجة"[20].

وثمة مسألة أخرى هي نوم الدببة مع أناس يُفترض ألا يناموا معهم، فكما كتب لورد تشيسترفيلد في خطابه المذكور آنفًا: يُفترض أن يبحث الشباب عن نساء ذوات "صحة، وعلمٍ، وجاه".

(20) وردت في Black (2011: 83).

فالسعي وراء أنواع أخرى من النِّساء كان معناه التعرض لمخاطر اتصال جنسي ينقل الأمراض، وقد عاد إلى الوطن عددٌ من الرجال موتى؛ بسبب هذه الأمراض، وكان كثير من السّياح يتذكرون أسفارهم لسنوات بعد ذلك لأسباب عدة، منها: كما يقول أحد المؤرخين: "إن هذا ليست له علاقة تُذكر بالصّور الصارمة التي رسمها باتوني، والتي زينت مكتباتهم"، ففي الوطن كان هؤلاء الرجال يتعرضون للنقد؛ لأنهم يفضلون الأطباء الفرنسيين على الأطباء الإنكليز، على أساس أن الفرنسيين أعلم بأسقامهم[21].

لم يسعَ الشباب وراء نوع خاطئ من النِّساء وحسب، بل كانوا أحيانًا يسعون وراء رجال، وكانت إيطاليا تُعد معقل الشذوذ الجنسي، وتبين قصيدة دانييل ديفو "رجال الإنكليز الأصلاء" التي كتبها عام 1701 أن الشيطان "يُعد الخطايا المناسبة لكل أمة"، إذ تسقط إسبانيا في الكبر، ويحكم ألمانيا السُّكر "وهو الخطيئة المحببة للجحيم"، وابتُليت روسيا بالحماقة، أما فرنسا، فتحكمها "العاطفة المتأججة" وحسب، في حين:

اختارت الشهوة المناطق الحارة في إيطاليا

حيث يفور الدم بين اغتصاب ولواط

وحيث تتدفق الأوردة المنتفخة بالتيارات الحية

كان اللواط مجرّمًا في إنكلترا وويلز وفق قانون اللواط لعام 1533، وكانت العقوبات قد تصل إلى الإعدام، ولعل هذا يفسر سبب اختيار بعض الوجهاء الإنكليز، مثل: جورج بايرون، مد إقامتهم في القارة الأوروبية، لتصير في بعض الأحيان إقامة دائمة[22].

كان سياح الجولة الكبرى أيضًا يتعرضون لمخاطر الاستغلال المالي، فيقول ثيكنيس في خطاب كتبه عام 1777 يحذر فيه شاب كان على وشك السَّفر للخارج:

---

(21) Black (2011: 76).

(22) Littlewood (2001: 107-9).

حين يسافر [عليه أن ينتبه إلى] تجنب الشراك والفخاخ البشرية الموجودة في أنحاء البلاد، وهي فخاخ لن تكون المعرفة الدقيقة باللاتينية واليونانية، فضلًا عن فطنة الأب والأم كافية لحمايته منها، ما لم يرَ أولًا الطريقة التي تنصب بها هذه الفخاخ، فهذه الفخاخ لم تصنع لتكبل الأرجل، بل لتبديد الثروات، وتحطيم قلوب مَن وقعوا فيها لسوء الحظ، والطُّعم في هذه الفخاخ أعده بعناية: رجال فاسدون، ونساء: خليعات، ومنبوذات، وعاهرات. وتعج **باريس** بهم، وكذلك **ليون**، وكل المدن الكبرى التي تقع بين **لندن وروما**. وقد أعدت في الأساس لجذب الشباب الإنكليز الأثرياء... وأنت ترتاب بالفعل، إذ إن هذه الفخاخ لم تُصنَع إلا من الورق والعاج، في حين أن هذه البطاقات والنرد هي الأدوات المهلكة، فهل تعلم أن هناك مجموعة من الرجال والنِّساء، في باريس وليون، يعيشون حياة منعمة بالجلوس في الانتظار والقبض على كل **طائر عابر**؟ وبخاصة لو كان **طائرًا إنكليزيًا**.

وتحتال النِّساء الجميلات ومحتالو أوراق اللعب على السادة من بين الآلاف، ويختتم ثيكنيس كلامه بقوله:

تذكر أن التلميح الفطن الذي قاله لورد تشيسترفيلد لابنه كان: "حين تلعب مع الرجال، اعرف **مع مَن** تلعب، لكن مع النِّساء، اعرف **لأي شيء** تلعب"، لكن دعني أضيف أن تحري السلامة يقتضي ألا تلعب على الإطلاق[23].

يبدو ثيكنيس كأنه يتكلم من موقع الخبير.

وبسبب هذه المشكلات، انتقد كتّاب كثر "الجولة الكبرى"، وكان من بين هؤلاء الفيلسوفة مارغريت كافندیش التي عاشت في القارة الأوروبية لسنوات عديدة، فهي تناقش موضوع "الجولة الكبرى" في مقالة بعنوان: "خطبة عن رحلات السادة الشباب الخارجية".

---

(23) Thicknesse (1778: 118-25).

وتكتب أن آباء سياح الجولة الكبرى خابت آمالهم وتوقعاتهم إلى حد كبير، إذ لم يحقق الشباب من سفرهم أي فهم مفيد ولا علم، ولم يكتسبوا إلا "غرورًا ورذائل جعلتهم حمقى"[24]. وتلمّح كافندیش في مقالة تالية بعنوان: "خطبة في ذم الرذائل" إلى الرذائل التي يمكن أن يكون الشباب قد اكتسبوها، وهنا تحث كافندیش النبلاء على إصلاح تجاوزاتهم من: "غرور، وسفه، وسُكر، وزنا".

وتلاحظ كافندیش أن أشد المواطنين نبلًا هم أكثر من يقترف هذه الجرائم، ذلك أن الفقراء لا يملكون المال للإنفاق على تلك الرذائل، "بالرغم من أنهم يبذلون قُصارى جهدهم".

ظلت "الجولة الكبرى" شائعة لأكثر من مائة وخمسين عامًا، وكان كلما زاد عدد المسافرين، زاد عدد كتب الرحلات.

وقد قامت ماري وولستونكرافت بعرض العشرات من كتب الرحلات قبيل نهاية القرن الثامن عشر (وكانت ملاحظاتها لاذعة، فهي تقول عن أحد الكتب: "إننا لا نقصد التلميح إلى أن العمل ليست به أي ميزة جوهرية، بل على العكس، فإن طباعته جميلة").

وتكتب وولستونكرافت تعليقًا على تمني فرانسيس بيكون أن يكتب المسافرون يوميات رحلاتهم: "لو كان حيًّا اليوم، لما كان لديه أي سبب للشكوى، فقد وُصف كل شبرٍ في القارة بدقة متناهية"[25].

جعلت حروب نابليون في أوروبا (1803-1815) السَّفر صعبًا لفترة وجيزة، وكان في ذلك نهاية اقتصار الجولة الكبرى على الأغنياء. أصبح السَّفر أرخص، وبدأت الطبقات المتوسطة تسافر بأعداد هائلة[26]. وقد صور كوليريدج

---

(24) Cavendish (1663: 71-4).

(25) Wollstonecraft (1989: VII.300-1).

(26) Thompson (2007: 38-9).

ذلك بصورة ساخرة في قصيدته **المسافرون الجانحون** (1824)، إذ يقول:

"ماذا؟ ألمَّا ترَ ساحل فرنسا بعد؟

سيُقسِم النَّاس أنك لعدم وجود كفالة

قضيت آخر خمسة أعوام في السجن

استمر في التحرك، بـ: البخار، والغاز، أو فوق سقالة

في عنبرٍ، في مقصورة، في أرخص سفينة، أو في خم دجاج

في جولة قصيرة، ورحلة برية، ورحلة بحرية، ومتسكعًا راكبًا أو سيرًا على الأقدام

تصفح كتابًا، ارسم، وتنزه، وتكلم - في السَّفر

فلابد أن تتحرك، فهذا زمن البدع السائرة

وهذا قانون العصر وصيحته

في عام 1841، نظّمت وكالة السَّفر الإنكليزية توماس كوك أول "رحلات منظّمة" حول أنحاء بريطانيا، وبعد بضع سنوات، أخذت السّياح إلى إيطاليا والولايات المتحدة. (كانت عبارة "رحلة كوك" 'Cook's Tour' بالإنكليزية البريطانية يقصد بها رحلة سريعة)، وقد أزعجت هذه الحركة السّياحية كثيرًا من النَّاس.

فها هو الروائي الإيرلندي تشارلز ليڤر Charles Lever ينتقد السّياحة الإنكليزية في إيطاليا:

> لكن هذا الشر طوّر نفسه بشكلٍ مُبالغ فيه لم أكن مستعدًا له بأي صورة، ويبدو أن رجلًا مغامرًا معدوم الضمير [توماس كوك] قد ابتكر مشروعًا يقود فيه أربعين أو خمسين شخصًا، دون النظر إلى العمر أو الجنس، من لندن إلى نابلس ذهابًا وإيابًا نظير مبلغ محدد، وهو يتفق معهم على: نقلهم، وإطعامهم، وإسكانهم، وتسليتهم... وعندما قرأت الخطة لأول مرة

في إعلان بإحدى الصحف، منّيتُ نفسي بأن هذه التوقعات ستخيب... فإن استقلالية الإنكليز المميزة ستثور على التخطيط الذي يختزل المسافر في مستوى أمتعته، ويمحو كل أثر وسمة للفردية، لكنني كنت مخطئًا تمامًا. فقد لاقى الأمر "قبولًا"، ونجح المشروع نجاحًا باهرًا، وبينما أكتب هذه السطور تعج مدن إيطاليًا بحشود من هذه المخلوقات[27].

كذب ليڤر على أحد أصدقائه الأجانب بشأن هؤلاء السّياح مدعيًا أنهم **مجرمون**: "قلت له: إن مستعمراتنا الإسترالية اعترضت في الفترة الأخيرة على إرسال المجرمين إليها، فاعتمدنا هذه الوسيلة الرخيصة وهي إرسال الفاسدين عندنا إلى خارج البلاد عبر القارة الأوروبية، كأنهم سياح".

لم يكن السَّفر يزداد داخل أوروبا وحدها، فقد بدأ السَّفر بالقطارات عبر أنحاء: الولايات المتحدة، وكندا، وآسيا، والشرق الأوسط يتخذ منحىً جادًّا منذ خمسينيات القرن التاسع عشر وبعده، فقد صارت السفن البخارية السريعة تعبر المحيط الأطلنطي في بضعة أسابيع، وليس شهورًا.

فأخذت أعداد المسافرين عبر: الأمريكيتين، والشرق الأوسط، وإفريقيا تزداد، وشهد منتصف القرن العشرين طائرات الركاب التي قلصت العالم وما تزال، وتذاكر الطيران الآن أرخص من ذي قبل.

لقد قطعت السّياحة شوطًا طويلًا منذ نشأتها إلى ازدهارها اليوم، وتقدّر **منظمة السّياحة العالمية** التابعة للأمم المتحدة أن عدد السّياح في الرحلات الدولية كان نحو 25 مليونًا في عام 1950، ووصل إلى 1،2 مليار سائح في 2016[28]. ويبدو لي أنه بينما تضاعف عدد السّياح، تضاعفت أسباب السَّفر أيضًا.

مازال عدد كبير من النَّاس يسافرون للاستزادة من التعليم، ولممارسة

(27) Lever (1873).

(28) https://ourworldindata.org/tourism.

الفجور، أما أنطوني بوردين، فقد سافر من أجل الطعام، اقرأ كتابه **بلا تحفظات/ كامل العدد: حول العالم بأمعاء خاوية** (2007)* والبعض يسافر لتحسين المستوى الاجتماعي بعد العودة إلى الوطن[29]. والبعض الآخر يسافر للتسوق[30]. ويتساءل آلان دي بوتون في كتابه **فن السَّفر** (2002): لماذا يسافر النَّاس بصفة عامة، ويستطلع أعمال الفنانين والكتّاب عن السَّفر، ويرى أن السَّفر يتيح لنا أن نجلب إلى الوطن أفكارًا "لتحسين الحياة"[31]. وهذا قد "لا يختلف كثيرًا" عن الأساليب المعمارية التي عُرفت قيمتها مؤخرًا.

أما فيلسوف القرن العشرين ألبير كامو، فقد سافر بدافع الخوف، وكتاباته عن السَّفر ساحرة، فهذه افتتاحية يوميات من سنة 1936 عن الأرخبيل الإسباني:

جزر البليار

الخليج

سان فرانسيسكو - الدير

[قلعة] بيلفير

حي الأثرياء - (الأطياف والنِّساء العجائز)

حي الفقراء (النافذة)

الكاتدرائية (ذوق سيئ وتحفة فنية)

مقهى به بيانو

ويقول كامو في السَّفر:

الخوف هو ما يعطي السَّفر قيمته؛ ذلك لأننا، في لحظة محددة، حين نكون على مسافة بعيدة جدًا عن وطننا... يستولي علينا خوفٌ غامض،

مكتبة
t.me/soramnqraa

(*) تحول بعد ذلك إلى مسلسل تلفزيوني استمر لمواسم عدة. (المترجمة)

(29) See Relph (1976).

(30) للتسوق خارج البلاد أيضًا تاريخ طويل، انظر:
http://www.transitionsabroad.com/listings/travel/articles/women-travel-in-history.shtml.

(31) De Botton (2003: 113).

ورغبة عارمة في العودة إلى حمى العادات القديمة، وهذه أوضح فائدة للسفر، ففي تلك اللحظة نكون كمن أصابته حُمّى وحساسية شديدة أيضًا، لدرجة أن أخف لمسة تجعلنا ننتفض، فنصادف شلالًا من الضوء، حيث يكون الخلود. لذلك ينبغي ألا نقول: إننا نسافر للمتعة، فلا متعة في السَّفر، فأنا أرى أنه مجرد فرصة لاختبار روحاني[32].

يرى كامو أن وجودنا خارج الوطن يجعلنا نشعر بالخوف، وأن هذا الفزع يجعلنا ننفتح على العالم. ومواصلة السَّفر وسط هذا الخوف والانفتاح، يختبرنا روحيًّا، لكن التحدي يستحق. وللأسف، لم يسافر كامو لمسافات بعيدة؛ لأنه كان مصابًا برُهاب المركبات (الخوف من السيارات والحافلات)، مع ذلك فقد مات في حادث تصادم.

في مقابلة أجريت عام 2011، يجيب بول ثيرو على سؤال: "لماذا نسافر؟"[33] وهو مهتم تحديدًا بالسَّفر إلى الدول "الموصومة"، أي: الأماكن التي تعرضت "لإخفاق أو عدوان" خلال تاريخها، أو "ابتليت بكوارث طبيعية أو أعمال وحشية مفاجئة"، فالسَّفر إلى أماكن من هذا القبيل قد يكون مزعجًا، بل مهلكًا. مع ذلك، يرى ثيرو أن القدرة على العودة والتفاخر "لقد كنتُ هناك، ورأيت كل شيء" تستحق الكثير. وبالرغم من أن خبرات السَّفر قد تكون صادمة في وقتها، فإنها إثراء ومِنح، "الجوائز التي تغير الحياة على الطريق"، ويقابل ثيرو هذا النوع من السَّفر "بالمرح الشديد" الذي تنعم به حين تخبز في الشَّمس في وايكيكي، ويصف رحلات حديثة إلى تركمانستان والسودان، حيث وجد كرم الضيافة، والغرائب وروح الاستكشاف" جانب "القمع وانتهاك حقوق الإنسان".

ووسط هذا المدى الواسع من دوافع السّياح، اكتشف منظرو الأدب في كتب الرحلات اتجاهًا مثيرًا للاهتمام، فمنذ منتصف القرن العشرين، يرون أن كتب الرحلات اتخذت "منعطفًا نفسيًّا"، فهناك تركيز ما انفك يتزايد على

---

(32) Camus (1963: 13-15).

(33) http://www.nytimes.com/2011/04/03/travel/03Cover.html?_r=0.

المسائل النفسية، وعلى التفاعل بين المسافر وعالمه[34]. فالمسافرون يقومون برحلات **خارجية**، ربما عبر مصر أو ماليزيا، وبالتوازي معها يقومون أيضًا برحلات **داخلية**، ربما اكتشاف أو تحقيق للذات[35]. على سبيل المثال: يصف كتاب ويلر **الأرض المجهولة** كيف ساعدتها أنتركتيكا على أن تحارب شياطينها، وهي تقول في مقالة كتبتها عام 2011:

> كانت أنتركتيكا تجربة سامية بل أكثر التجارب سموًا في حياتي، فقد كانت القارة الوحيدة التي لا مالك لها، (وكذلك الأشد ارتفاعًا والأشد جفافًا وضع حشدًا من الصفات الأخرى بأفعال التفضيل)، تمثل الأمل. فلا حروب، ولا انبعاثات سامة، ولا مستبدين: هذا ما يمكن أن يكون وما سيظل إن كان لدينا أمل، وقد وجدت أن غياب الضوضاء ـ غياب كل شيء ـ يساعدني في التفكير فيما هو أهم، كانت القارة محطة طاقة روحية[36].

ونجح كتاب بيل برايسون **القارة المفقودة** في إخراجه من محنة موت أبيه، ونفّذ كتاب إليزابيث جيلبرت الأكثر مبيعًا: **كلي وصلي وحبي: بحث امرأة عن كل شيء في أنحاء: إيطاليا، والهند، وإندونيسيا** (2006) ما يجب فعله نصًّا، رحلة خارجية وأخرى داخلية في آن واحد.

بعد بضع ساعات وصلتُ إلى ذروة رحلتي السّياحية: الدائرة القطبية الشّمالية، 115 ميلًا شمالي فيربانكس، وهذا خط وهمي يحيط بالكرة الأرضية يحدد أقصى نقطة في الشّمال، حيث لا تزال شمس الظهيرة مرئية عند انقلاب الشَّمس في كانون الأول، وإذا اتجهتَ إلى أي نقطة أبعد شمالًا، ستشاهد "الليل القطبي"، حيث تحجب الشَّمس مدة لا تقل عن أربع وعشرين ساعة طوال الشتاء.

---

(34) Blanton (1997: 2).

(35) Norman Douglas, quoted in Fussell (1987: 15).

(36) http://www.prospectmagazine.co.uk/columns/travel-the-last-great-wilderness.

وفي طريق دالتون السريع، تتحدد الدائرة القطبية الشّمالية بعلامة وسطح مشاهدة، وتشير العلامة إلى أنك قد وصلت إلى درجة 33'066 شمالًا، وكل شيء إلى الجنوب من خط العرض هذا هو مجرد "المنطقة الشّمالية المعتدلة"، في حين أن كل شيء إلى الشّمال هو المنطقة القطبية الشّمالية، وأول زيارة مسجلة إلى القطب الشّمالي قام بها المستكشف اليوناني بيثياس Pytheas، خلال النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد، فقد أبحر في المحيط الجليدي ليزور "المنطقة المتجمدة" التي تُسمى "ثول" 'Thule'، حيث يظل الليل مدة ستة أشهر كل عام. ويقال: إن بيثياس أبحر إلى الشّمال مدة ستة أيام من شمال بريطانيا، فوجد نفسه في الدائرة القطبية، ولعل ثول هذه هي آيسلندا[37]. على أي حال، عند عودة بيثياس إلى القارة الأوروبية، كان قليلٌ من صدَّق ما ذكره عن الامتداد الجليدي اللانهائي.

كان المكان لي وحدي، تمتد الأشجار إلى مسافة بعيدة، وتتقلص مع الطريق، فانتقلت من جانب العلامة إلى الجانب الآخر، أدخل إلى القطب الشّمالي وأخرج منه، مثل: عشرات السّياح السابقين، وحين كانت السحب تحجب الشَّمس، جلست على رقعة جافة من الأرض، وأكلت سلاطة كنت قد اشتريتها من المتجر الكبير "السوبر ماركت"، ولأول مرة كان المنظر شديد البرودة يبدو حزينًا، ما جعلني أشعر حقًّا بالحزن. كان عليَّ أن أغادر غرونلغن نهائيًّا خلال بضعة أشهر، وكانت مغادرة هولندا تحزنني، وكانت هذه الرحلة مغادرة جزئية، نذيرًا بمغادرة كاملة. بداخل علبة السلاطة كانت توجد شوكة قصيرة، ووجدت راحة غريبة في الأكل بها. على الأقل كانت رحلتي إلى الدائرة القطبية الشّمالية جزءًا من تراث سياحي موروث من "كوريات" حامل الشوكة.

(37) See Whitaker (1981-2: 161).

"أنا مستعد"

خذ كلبك معك في القطار

ذهاب وعودة بسعر تذكرة واحدة

يمكن الحصول على مياه لشرب الكلاب من غرفة المرطبات بالمحطة أو اطلبها من أحد موظفي الخدمة بالمحطة

G.W.R L M S L. N. E. R S. R.*

(*) هذه الحروف اختصار لأسماء الشركات الأربع الكبرى التي كانت تدير السكك الحديدية في بريطانيا، وهي: السكك الحديدية الغربية الكبرى G.W.R، وسكك حديد: لندن، وميدلاند، وإسكتلندا L M S، وسكك حديد لندن والشّمال الشرقي L. N. E. R، والسكك الحديدية الجنوبية ..S. R (المترجمة).

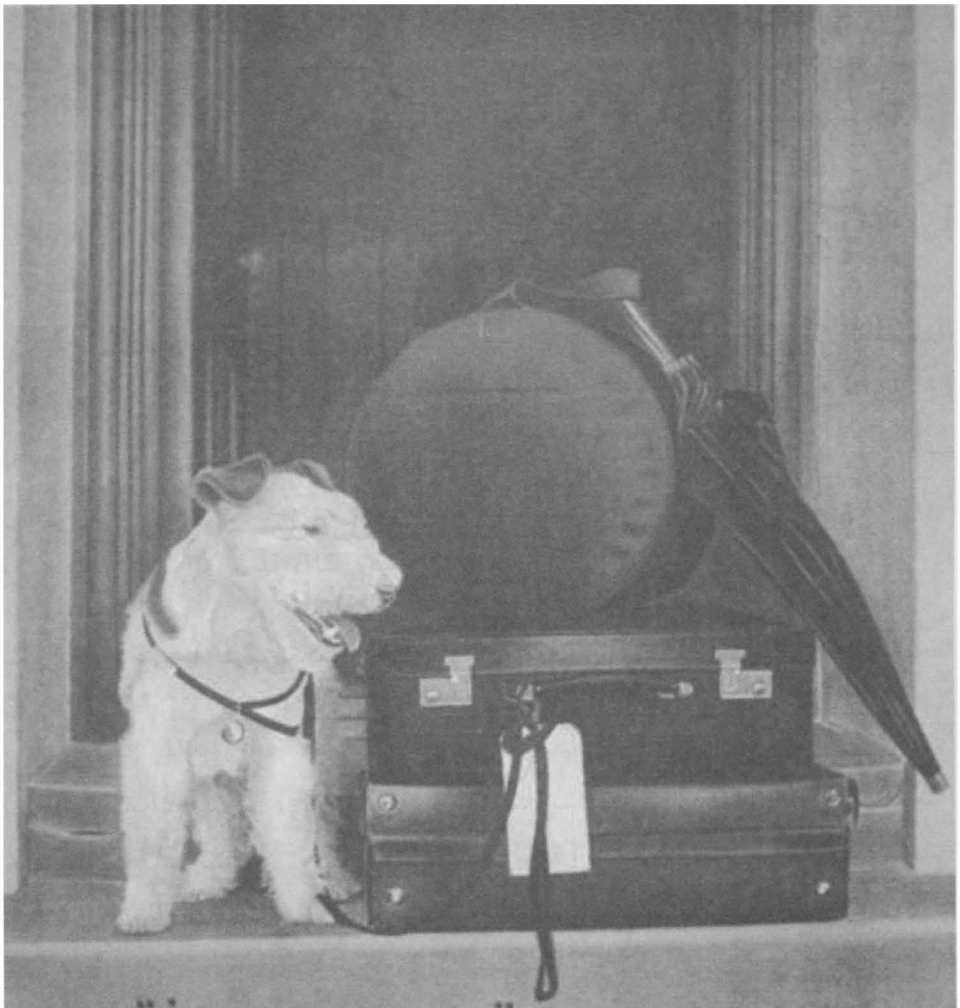

"I'M READY"

TAKE YOUR DOG WITH YOU BY RAIL

Return Tickets at Single Rate

DRINKING WATER FOR DOGS CAN BE OBTAINED FROM STATION REFRESHMENT ROOMS, OR ON REQUEST TO A MEMBER OF THE STATION STAFF.

G.W.R. L M S L·N·E·R S.R.

6

أدب الرحلات، والتجارب الفكرية، وعالم مارغريت كاڤنديش المتألق

بالرغم من أن ألاسكا تقع في الشّمال، إلا أن القطب الشّمالي أكثر شمالًا، فالقطب الشّمالي الجغرافي للأرض هو أقصى نقطة في شمال الكوكب، وكل الاتجاهات تقع إلى الجنوب من القطب الشّمالي، ويوجد القطب الجنوبي في أنتركتيكا، وهي مساحة هائلة من الأرض مُغطاة بالثلوج، وعلى العكس، يطفو القطب الشّمالي فوق المحيط المتجمد الشّمالي، وهو نقطة مغناطيسية فوق الجليد البحري المتحرك.

ولمئات السنين، كان النَّاس يختلقون أساطير عن القطبين، فقد وصف النَّاس المنطقة القطبية الشّمالية بصورٍ مختلفة بأنها منطقة جليدية بها متوحشون "يصفرون مثل الإوز"، كما وصفوها بأنها فردوسٌ[1].

أما خرافة أن سانتا كلوز (بابا نويل) يعيش في القطب الشّمالي، فقد نشرها فنان رسوم متحركة أمريكي.

تواصل بعض الدول ادعاء ملكيتها للمحيط المتجمد الشّمالي، ولعل هذا سبب أن المستكشف النرويجي روالد أموندسن قد رفع عليها ذات يوم أعلام: النرويج، وإيطاليا، وأمريكا. وهذا هو السبب في أن روسيا، خلال أكثر من عقد مضى، أرسلت غواصتين على عمق 13، 980 قدمًا لتغرس علم من التيتانيوم المقاوم للصدأ في قاع البحر في القطب الشّمالي. يقول الصحفي تيم مارشال: "وما زال العلم، كما هو معروف، 'يرفرف' هناك إلى اليوم"[2].

---

(1) Lopez (2014: 282).

(2) Marshall (2016: 245; 264).

لم أزر القطب الشّمالي الجغرافي، لكنني كنت في القطب الشّمالي، أي: ألاسكا. إذ يذكر الدليل أن المدينة بها غرائب طريفة، ويبدو أن هذا سبب وجيه لزيارتها. والقطب الشّمالي لا يخيّب الآمال في هذا الأمر، فطرق المدينة لها أسماء من قبيل: طريق سانتا كلوز، وطريق رجل الثلج، والهدّال*، وطريق الإجازة، وزاوية القديس نيقولاس، وزاوية نجمة الشّمال، وأيل الرنة، والمانح. وتطلى أضواء الشارع وصواري الأعلام باللونين الأحمر والأبيض مثل عصا الحلوى، وحتى لافتة مطعم ماكدونالدز مخططة. ويفخر منزل سانتا كلوز ومتجر الهدايا بأطول تمثال في العالم من الألياف الزجاجية لأبي الكريسماس [بابا نويل]، وقد استمتعت بتفاهتها، واستمتعت بكل عصا حلوى، واشتريت بطاقات بريدية عدة عليها صورة سانتا كلوز المصنوع من الألياف الزجاجية، وكان الموظف يغني شعار البلدة وأنا أعد بقية النقود. "احرصي على تكرار الزيارة، فروح عيد الميلاد تظل هنا على مدار العام".

بالرغم من ذلك، بدأت البهجة تتضاءل، هل جربت أن تترك الزينة بعد عيد الميلاد لأيام عدة؟ في أوائل شهر كانون الثاني تبدأ في الشعور فجأة بأن ثمة **خطأ** ما. وبدأت، بشعور مخيف، أرى البلدة كلها تحت ذلك الضوء، فقد انتهى عيد الميلاد منذ أربعة شهور، ولم يحن وقت الاحتفال بعيد الميلاد التالي، فكانت زينة عيد الميلاد في غير محلها.

إن إحدى طرائق فهم القطب الشّمالي، ألاسكا، هو النظر إليه بوصفه تجربة فكرية، فالتجارب تهدف إلى الاكتشاف، عن طريق اختبار الأفكار أو الفرضيات، وتستحضر كلمة "تجربة" علماء بمعاطف بيضاء يعملون على أواني بتري* أو مُصادِم الجزيئات. لكن التجارب الفكرية مختلفة، فالتجارب الفكرية تحدث **داخل رؤوسنا**. وظل الفلاسفة يستخدمونها طوال ألفي عامٍ على الأقل.

(*) نبات طفيلي لزج. (المترجمة).

(*) أواني تستخدم لاستزراع البكتيريا. (المترجمة).

و"معضلة عربة القطار"* مثال شهير على ذلك[3]. فتخيل أنك موجود عند ذراع التحكم في السكك الحديدية؛ وقطار أو عربة من قطار تسير مسرعة على المسار متجهة إلى مفترق طرق، ولا يمكن السيطرة عليها على الإطلاق، وعند مفترق الطرق يتفرع المسار. ويوجد خمسة أشخاص في المسار الرئيس، وشخص واحد في المسار الثانوي، فإن لم تفعل شيئًا، فسيدهس القطار خمسة أشخاص، لكنك إن حركت ذراع التحكم، فسيغير القطار مساره ويدهس الشخص الوحيد، فماذا ينبغي أن تفعل؟

لا أدّعي أنني أعرف الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال[4]. لكن المهم أن تجارب الفكر تجعلنا نفكر، ويمكن أن تبين لنا أمورًا في العالم من حولنا، لم نكن نعرفها قبل أن نبدأ. والتجارب الفكرية ليست حكرًا على الفلاسفة وحدهم،

(*) هناك عربة قطار تسير باتجاه خمسة أشخاص مقيّدين (أو عاجزين عن الحركة) مُمَدّدين على السكة (المسار). وأنت تقف قُرب العَتَلَة التي تتحكم بمحولة السكة الحديدية؛ لكن يوجد شخص واحد مُمَدّد على المسار الثانوي، إذا سحبت العَتَلَة، فستتابع العربة سيرها في المسار الثانوي الآخر، وسيتمّ إنقاذ خمسة أشخاص على المسار الرئيس. أنت أمام خيارين: الخيار الأول: هو ألّا تفعل شيئًا وتسمح للعربة بقتل خمسة أشخاص على المسار الرئيس، والخيار الثاني: هو سحب العَتَلَة، وتحويل العربة إلى المسار الثانوي وسوف تقتل شخصًا واحدًا. فأي خيار هو الأكثر أخلاقيّة؟
تؤكّد نظرية النفعية أنّه من الضروري توجيه العربة إلى المسار الذي يُوجد عليه رجل واحد. ووفق النفعيّة الكلاسيكيّة، فإنّ مثل هذا القرار لن يكون مسموحًا به فقط، ولكنه من الجهة الأخلاقيّة يعدّ الخيار الأفضل (الخيار الآخر هو عدم اتخاذ أي إجراء على الإطلاق). وجهة النظر البديلة هي أنّه بما أنّ الأخطاء الأخلاقيّة موجودة مسبقًا في مكانها في هذا الظرف، فإنّ الانتقال إلى المسار الآخر يشكّل مشاركة في الخطأ الأخلاقي، ممّا يجعل الشخص مسؤولًا جزئيًّا عن الوفاة في حين يمكن ألّا يكون هناك أحد مسؤول عن ذلك. قد يشير أيضًا أحد معارضي التصرّف إلى أنّ حياة البشر غير متكافئة. بموجب بعض التفسيرات للواجب الأخلاقي، فإنّ مجرّد الوجود في هذه الموقع والقدرة على التأثير في نتائجه يشكّل التزامًا بالمشاركة. في هذه الحالة، فإنّ اتخاذ قرار بعدم فعل أي شيء يُعد عملًا لا أخلاقيًّا إذا كان المرء يُثمّن حياة خمسة أشخاص أكثر من شخص واحد. (المترجمة).

(3) طرحتها الفيلسوفة البريطانية فيليبا فوت Philippa Foot عام 1967.

(4) بالرغم من أنني أعرف أن إجابتك تعتمد على المنظومة الأخلاقية التي تفضلها. على سبيل المثال: فمن يفضل المذهب "النفعي" الذي يسعى إلى إسعاد أكبر عدد من النَّاس، يمكن أن يحرك ذراع التحكم. وذلك على عكس من يفضل مذهب "كانط" الذي لن يحرك الذراع، بِعَدِّ الشخص الوحيد ينبغي ألا يُتخذ وسيلةً لتحقيق غاية (في هذه الحالة إنقاذ خمسة أشخاص).

فقد استخدمها أيضًا علماء: الفيزياء، والرياضيات، والاقتصاد[5]. وأرى أن سكان ديفيز في ألاسكا يستخدمونها أيضًا.

فبالرغم من أن الدائرة القطبية الشّمالية تمر عبرها، فإن ألاسكا ليست كتلة اليابسة الموجودة في أقصى الشّمال، إذ إن جزيرة كافيكلوبين في الدنمارك وكيكيكتآلوك في كندا أقرب إلى الدائرة القطبية. وفي خمسينيات القرن العشرين، بدأ النَّاس يستوطنون ديفيز، وهي منطقة سكنية في وسط ألاسكا تبلغ مساحتها نحو 1700 ميلًا، وتقع في الجنوب الجغرافي للقطب الشّمالي، وبالرغم من هذه المسافة فكر بعض سكانها الموهوبين في هذه الصلة بين القطب الشّمالي وسانتا كلوز، وتساءلوا: ماذا سيحدث لو غيرنا اسم ديفيز إلى: "القطب الشّمالي"؟ وفكروا في هذا مليًّا، وقرروا أن هذا الاسم سيجذب صنّاع اللعب والسّياح، وهذا سيجلب المال للبلدة، فنفذوا ذلك بالفعل، وغيروا الاسم. وفي النهاية، أخطأ أهل ديفيز هؤلاء في مسألة جذب صنّاع اللعب، وأصابوا في مسألة جذب السّياح[6].

كثير من التجارب الفكرية، الفلسفية وغيرها، تُجرى بسرعة، فقد وصفتُ تجربتين فكريتين في بضع جُمل، وبالرغم من ذلك، يريد النَّاس، في بعض الأحيان، إجراء تجارب فكرية **أطول**، والقصص الخيالي من أسهل السبل لفعل ذلك، ولا سيما قصص الرحلات، ولعلنا نجد واحدة من أطرف التجارب الفكرية في كتاب الفيلسوفة مارغريت كافندیش التي استجابت لروح الاستكشاف التي ملأت الجو الأوروبي، وللأفكار عن القطب الشّمالي، ولآراء بيكون الجديدة في العلم، وقبل أن نتمكن من الدخول إلى عالم كافندیش المتألق، لابد أن نفهم عالم أدب الرحلات والتجارب الفكرية الفلسفية بوجه عام.

---

(5) للمزيد عن تجارب الفكر في الفلسفة وغيرها من العلوم، انظر:
Sorensen (1999) and Ierodiakonou and Soux (2011).

(6) للاطلاع على تاريخ القطب الشّمالي، ألاسكا، انظر:
http://www.northpolealaska.com/community

"الأدب" يُخترع، فرواية جين أوستن **الكبرياء والتحامل**، ورواية چيه. آر. آر. تولكين **ملك الخواتم**، ورواية چيه. كيه. رولينغ **هاري بوتر وحجر الفيلسوف**، تصف أماكن خيالية أو أشخاصًا خياليين، ونحن عادة نعتقد أن كتب الرحلات، مثل: مقالات الصحف أو التقارير العلمية "ليست خيالية"، ألا تصف أماكن حقيقية وأناسًا حقيقيين؟ في الواقع، الأمر ليس هكذا في كل الأحوال، ففي أغلب الأحيان، تطمس كتب الرحلات الخط الفاصل بين الخيال والواقع.

فلنفكر في كتب رحلات، مثل: كتاب بيل برايسون **القارة المفقودة**، أو كتاب جون جيمليت John Gimlette **الساحل البري**.

فقد قُدمت هذه الكتب بوصفها أعمالًا غير خيالية، لكنها تستخدم العديد من أدوات القصص الخيالي، فنجد بها الاستعارة والمبالغة، فحين يحلّق جيمليت فوق نهر إيسيكويبو، يرى المنظر الطبيعي في الأسفل "كأنه كعوب كتب مرصوصة"، ولهذه الكتب حبكات تذهب إلى الماضي وإلى المستقبل، وكثير منها به تحوّل غير متوقع في الأحداث في النهاية، كما أن بها مبالغة ومحاكاة ساخرة وهجاء. فيصف برايسون قرية نائية، مثل: قرية "ماء الكلب" (دوغ ووتر) أو "وادي المغفلين" (دانسڤيل)، بأنه مكان لو دهست فيه شاحنة كلبًا، "فسيخرج كل السكان ليتفرجوا عليه". مكتبة سُر مَن قرأ

وكان معظم محتوى كتب الرحلات القديمة مختلقًا، أتَذكُر كتاب ماندڤيل **الأسفار**، وسكان الجزيرة برؤوسهم التي تشبه الكلاب؟ أمور من هذا القبيل هي ما دفعت بيكون وغيره إلى التساؤل إن كان هؤلاء الكتّاب صادقين فيما يكتبونه، ويمكننا ترتيب كتب الرحلات في طيفٍ من أقلها إلى أكثرها خيالًا. انظر الشَّكل 1-6.

تقع كتب الرحلات "العلمية" في أقصى طرف الكتب غير الخيالية، وهذه الطائفة تضم كتب جيمس كوك وتشارلز داروين (بالرغم من أن بها بعض الأدوات الأدبية)، وفي أقصى طرف الكتب الخيالية تقع الكتب التي تبدو كأنها تقارير عن عالمٍ حقيقي، بالرغم من أنها في الغالب غير واقعية. وتشمل هذه

الطائفة رواية توماس مور **المدينة الفاضلة** *Utopia* (1516)، ورواية چوزيف هول **عالم آخر، لكنه هو نفسه** (1605)، وكتاب آفرا بن Aphra Behn **أوروونوكو أو العبد الملكي** *Oroonoko: Or, The Royal Slave* (1688)، ورواية دانييل ديفو **روبنسون كروزو** (1719).

توماس مور: **المدينة الفاضلة** ديفو: **روبنسون كروزو**	هيرودوت: **التواريخ** ماندفيل: **الأسفار**	برايسون: **القارة المفقودة** جيمليت: **الساحل البري**	كوك: **الرحلات البحرية** داروين: **الرحلة البحرية**
الخيالية		غير الخيالية	

الشَّكل 6-1 طيف كتب الرحلات

استعارت كتب الرحلات الخيالية، مثل: **روبنسون كروز**، بعض الأدوات من الكتب غير الخيالية. إذ تُكتب بأسلوب بسيط واضح، وتجري أحداثها في أماكن موجودة بالفعل في العالم، مثل: جزر الكاريبي[7]. (بعد النشر، ظن كثير من القراء أن أحداث **روبنسون كروزو** حدثت بالفعل)، فالرواية التي تحاكي تقريرًا عن رحلة حقيقية تكتسب مصداقيةً وعمقًا، وهذا ما يجذب إليها الفلاسفة، فإن أردتَ أن تجري تجربة فكرية معقدة، فماذا سيكون أفضل من كتابة كتاب رحلات خيالي؟ وفكرة كتابة تجارب فكرية فلسفية ككتب الرحلات فكرة قديمة، وسنستكشف ثلاثة من هذه الكتب، ولنبدأ برواية توماس مور **المدينة الفاضلة**.

لعل أكثر ما اشتهر به السياسي والفيلسوف توماس مور هو قطع رأسه، وقبل هذه الواقعة المؤسفة، نشر مور في عام 1516 كتاب رحلات بعنوان: **عن أفضل أنواع الحكم الجمهوري وحول جزيرة يوتوبيا الجديدة**.

واليوتوبيا (المدينة الفاضلة) رواية تتخفى في صورة كتاب رحلات غير خيالي، وهي تصف رحلات بحرية قام بها الشاب رافاييل هايثلودايوس قُبالة

(7) تجد المزيد عن هذا الموضوع في: Hayden (2012: 15).

سواحل أمريكا الجنوبية، وحين كان يبحر بموازاة البرازيل اكتشف جزيرة يوتوبيا الموضحة في الشَّكل 6-2. فيقضي هناك خمس سنوات، ويتكلم عن كل جوانب الحياة فيها، ويخبرنا هايثلودايوس أن عرض وسط الجزيرة يبلغ مائتي ميلًا، وهو تقريبًا نفس عرض جزء كبير منها، لكن عرضها يضيق عند طرفيها، وبها أربع وخمسون مدينة، جميعها مدن كبيرة وحسنة البناء، وفيها نفس: الآداب، والعادات، والقوانين. ويستخدم السكان العقاب لردع مرتكبي الجرائم، ويدعونهم إلى حب الفضيلة واحترام النَّاس، وينصبون التماثيل في الأسواق لتكريم من قدموا خدمات جليلة لوطنهم[8].

الشَّكل 6-2 خريطة يوتوبيا

(8) More (1998: 61).

نكتشف أن أهل يوتوبيا ينخرطون في ممارسات عديدة مثيرة للجدل، فهم يسمحون بترسيم كهنة من الإناث، ويسمحون بزواج الكهنة، ويبيحون الطلاق، وكذلك يبيحون القتل الرحيم، أي: قتل مَن يُصاب بمرض لا يُرجى شفاؤه، فرواية **يوتوبيا** تجربة فكرية يستكشف فيها مور مجتمعًا يختلف تمامًا عن مجتمعه.

وكلمة "يوتوبيا" كلمة يونانية، واستخدامها مزحة من مور؛ لأن معناها "لا مكان" 'no-place'، وكانت القصص التي تشبه **يوتوبيا** غزيرة، مثل: كتب الرحلات، في عصر الكشوف الجغرافية الأوروبية.

ويرى الباحثون أن هذا لم يكن محض مصادفة، فكلٌّ من كتب الرحلات وقصص اليوتوبيا تصور الاختلاف، وكل من النوعين يتضمنان رحلات فعلية للوصول إلى أراضٍ جديدة، ويتضمن كل منهما أيضًا كثيرًا من الرحلات المَجازية: مثل مواجهات مع شعوب جديدة وأفكار جديدة، فضلًا عن أن كلًّا من كتب الرحلات وقصص اليوتوبيا "انعكاسية"، فتزعم أنها تعرض أماكن أجنبية، لكنها في الواقع تشجع القراء على التفكير في أماكن في أوطانهم، وكل من كتب الرحلات وقصص اليوتوبيا يدعم الآخر، إذ تُكتب اليوتوبيات على غرار كتب الرحلات، ويبحث الرحالة عن اليوتوبيات (المدن الفاضلة).

بعد **يوتوبيا** مور، صارت الكلمة تعني أي مجتمع مثالي وغير موجود، ومن ذلك رواية سيرانو دي بيرجيراك *Histoire comique contenant les ètats et Empires de la lune* التاريخ الهزلي لدول وإمبراطوريات القمر (1657). ورواية إتش. جي. ويلز **يوتوبيا حديثة** *A Modern Utopia* (1905). وشهد القرن العشرين موجة *dys*topias **الديستوبيا** (أدب المدينة الفاسدة)، أي: مجتمع فاسد وغير موجود. ومن ذلك رواية ألدوس هكسلي **عالم جديد مبهر** *Brave New World* (1931)، ورواية جورج أورويل **1984** (1949)، ورواية مارغريت أتوود **حكاية أَمَة** (1985).

واستمر هذا التوجه إلى اليوم بروايات، مثل: رواية سوزان كولينز **مباريات الجوع** *Hunger Games* (2008)، ورواية ناعومي ألدرمان **القدرة** *The Power* (2016)، ولا أعرف ماذا تقول هذه الرواية عنّا.

وقد استلهم **يوتوبيا** مور عددًا كبيرًا من حكايات اليوتوبيا، ومنها: واحدة كتبها صديقنا القديم فرانسيس بيكون، والواضح أن بيكون كان يعتزم أن يجعل كتاب الرحلات الخيالي الذي ألفه **أتلانتا الجديدة**[9] *New Atlantis* «دليلًا» لأحدث أعماله الواقعية عن التاريخ الطبيعي **غابة من الغابات** *Sylva Sylvarum*.

وبالرغم من أن بيكون لم يشرح سبب كتابته **أتلانتا الجديدة**، فإنها تمثل تجربة فكرية، ويبدو أن بيكون يرينا ما سيحدث لنا من خير إذا اتخذنا مناهجه العلمية: سننشئ يوتوبيا.

فوفق أفلاطون، أتلانتا مملكة مفقودة، تقع في مكانٍ ما فيما وراء أعمدة هرقل، في عالم المجهول.

وفي قصة بيكون اكتشف مجموعة من الرحالة أتلانتا جديدة، كان الرحالة يبحرون عبر المحيط الجنوبي قبالة سواحل بيرو، حين هبّت عاصفة أجبرتهم على إرساء السفينة عند جزيرة بنسالِم.

بنسالِم هي أتلانتا الجديدة، وكان سكان هذه الجزيرة: مهذبين، ومحتشمين، ومتحضرين، وكان يعيشون في سعادة تامة، وتتحسن حياتهم بالمعرفة والأساليب الحديثة، ويقع في قلب جزيرتهم مركز أبحاث علمية يُسمى: "دار سالومون".

ويخبرهم مضيفهم بأن هذه الدار مخصصة لدراسة صنع الرب ومخلوقاته، وإن لديهم تاريخ سالومون الطبيعي "لكل أنواع النبات، من أَرز لبنان إلى الطحالب التي تنمو من الجدار، وكل الكائنات التي لديها حياة وحركة".

يقارن بيكون بين "دار سالومون" في بنسالِم وهيكل سليمان في القدس، والمغزى الخفي هو أن ذلك هو عالمنا، وأن هيكل سليمان سيُعاد بناؤه بالعلم.

والمؤكد أنه عندما أسس روبرت هوك وآخرون "الجمعية المَلَكية"، رأى

---

(9) اقتبستُ هذا من أتلانتا الجديدة طبعة عام 1659.

البعض أن ذلك تحقيق "لدار سالومون" التي كتب عنها بيكون[10].

وعلى هذه الخلفية، نحن مستعدون لسبر غور أشد رحلات التجارب الفكرية التي أعرفها إبداعًا، ألا وهو رواية مارغريت كافندیش *Description of a New World, Called The Blazing-World* **وصف العالم الجديد الذي يُسمى: "العالم المتألق** (1666)"[11]. فهذه الرواية بارعة فلسفيًّا وغريبة بشكلٍ جذاب في آنٍ واحد.

قبل القرن العشرين، كان من النادر أن تمارس النِّساء الفلسفة، فنادرًا ما كانت المرأة تتلقى قدرًا كبيرًا من التعليم في الفلسفة أو العلوم، ونادرًا ما كان يُرحَب بكتابتها، فكانت مارغريت كافندیش نيه لوكاس (1623–1673)، من أوائل الفلاسفة النِّساء وأندرهن.

وُلِدت مارغريت في إيسيكس، وكانت أصغر أبناء أسرتها الثمانية، وبالرغم من أنها لم تتلق تعليمًا نظاميًّا لا في الرياضيات ولا في الفلسفة، كانت قارئة نهمة وكثيرة التردد على المكتبات. وكانت تتناقش في الفلسفة مع أخيها جون لوكاس (الذي صار بعد ذلك عضوًا مؤسسًا في الجمعية الملكية)، وحتى في أوائل سنيّ حياتها، كانت مارغريت تستمتع بتدوين أفكارها الخاصة، كما كانت تستمتع بصنع ملابسها بنفسها.

اضطربت حياة أسرتها في عام 1641، حين هاجم مناهضو الملكية منزل الأسرة، وفي عام 1642، لجأت هي وأمها إلى إكسفورد، حيث أنشأ الملك تشارلز الأول بلاطه، وفي عام 1643 صارت مارغريت وصيفة شرف لزوجة تشارلز، الملكة هنريتا ماريا. وفي عام 1644، في أثناء الحرب الأهلية، طلبت الملكة اللجوء إلى فرنسا، وتبعتها مارغريت، وسرعان ما التقت مارغريت بمؤيد آخر للملكية في المنفى وهو وليام كافندیش ماركيز نيوكاسل، وتزوجا في عام

---

(10) Pugliese (2004).

(11) اقتبست هذا من عالم متألق، طبعة 2015.

1645، وظلا يقيما معًا في المنفى في باريس وروتردام وأنتويرب، وعندما استرد تشارلز الثاني عرش إنكلترا في عام 1660، تمكنا من العودة، وبعد إقامة قصيرة في لندن، اعتزلا في ضيعتهما في ويلبيك.

أيد وليام عمل زوجته ويسر لها التواصل مع العديد من الفلاسفة، ومنهم: ديكارت، وتوماس هوبز، ومارين ميرسين، وبيير غاسيندي، وكينيلم ديغبي. (بالمناسبة، كان ديغبي قرصانًا إنكليزيًّا وفيلسوفًا في الوقت نفسه، وقضى سنوات عدة يهاجم السفن الهولندية والإسبانية في أعالي البحار). ونشرت كاڤنديش، بمعاونة زوجها، نصوصًا مسرحية وكتبًا فلسفية، وفي عام 1667، تلقت دعوة استثنائية لحضور اجتماع الجمعية الملكية، وكانت أول امرأة تفعل ذلك، وأصبح ذلك حدثًا مشهودًا. واستباقًا لزيارتها، قضى العلماء أكثر من أسبوع يعدّون تجارب لتشاهدها، ومن ذلك "خلط السوائل الباردة التي تصبح ساخنة عند صبها"، و"التيريلا" [الكُريّة الأرضية] وهي كرة أرضية مصغرة ممغنطة، تبعد "غبار الحديد الصلب عند أقطابها"، وإذابة اللحم في زيت الزاج" [حمض كبريتي].

وقد سجّل كاتب اليوميات صامويل بيبيز مشاهد لكاڤنديش، فتَحتَ تاريخ 11 نيسان 1667، يكتب بيبيز عن إحدى زيارتها للندن:

> قصة هذه السيدة بكاملها رومانسية، وكل ما تفعله رومانسي، يرتدي خدمها معاطف مخملية، وهي ترتدي ثوبًا من طراز قديم، كما يقولون، وكانت بالأمس تحضر مسرحيتها **العشاق الظرفاء**، وهي أسخف ما كُتب على الإطلاق، لكنها كانت هي وزوجها في غاية السعادة بها، وبعد انتهاء المسرحية حيّت الممثلين من مقصورتها وشكرتهم، وكانت حاشية البلاط تتشوق إلى زيارتها، لدرجة أن [كثيرًا] من النَّاس قد يأتون لرؤيتها، كما لو كانت ملكة السويد[12].

(12) Pepys (2000: VIII.163).

لم تكن هذه الإشارة إلى ذوق ملابس كافندیش أمرًا غريبًا، إذ تشرح سيرة كافندیش الذاتية أنها حين كانت طفلة كانت تفضل "مجموعة من الملابس الفاخرة" على لُعب الأطفال، وكانت تقول: "لا أحب أن يحاكي أحدٌ أزيائي؛ لأنني أجد سعادتي في التفرد". وفي كلام بيبيز عن زيارة كافندیش الشهيرة إلى الجمعية الملكية، يركز على ملابسها، فيكتب: "ثوبها عتيق الطراز جدًّا وسلوكها غير عادي، لدرجة أنني لم أحبها على الإطلاق، ولم أسمع منها ما يستحق الاستماع"، وكانت كافندیش تُعد في زمنها عبقرية ومجنونة تمامًا، وفي ستينيات القرن السابع عشر أُطلق عليها لقب: "مادج المجنونة" 'Mad Madge'، وقد دفنت بعد وفاتها في كنيسة وستمنستر[13].

كتبت كافندیش، إلى جانب المسرحيات والفلسفة، رواية خيال علمي ربما أول رواية خيال علمي تكتبها امرأة على الإطلاق، وتحكي رواية **عالم متألق** قصة سيدة شابة تجمع الأصداف على شاطئ البحر، فيخطفها تاجر عاشق ولهان ويحملها إلى البحر، فتستهجن السماء سرقة التاجر وتثير عاصفة هوجاء، وتجبر العاصفة القارب على الدخول في المياه الجليدية في منطقة القطب الشّمالي.

يتجمد طاقم السفينة حتى الموت، لكن السيدة تظل على قيد الحياة بعناية الآلهة، وعندما يصل القارب إلى القطب الشّمالي، يحدث شيء أغرب:

لم يُدفعوا إلى طرف العالم أو إلى نقطة القطب وحسب، وإنما أيضًا إلى قطب آخر في عالم آخر، يقع قُربه، وكانت شدة البرودة التي تضاعفت عند نقطة اقتران هذين القطبين لا تُطاق، وفي النهاية، أجبر القارب الذي كان مازال يتحرك على الدخول إلى عالم آخر.

هذا العالم الجديد تضيئه شموس غريبة وهو حرفيًّا عالم متألق.

رواية **عالم متألق** لكافندیش جزء من تراث صنع الأساطير عن القطب الشّمالي، فقد ازدهر اختلاق الخرافات في عصرها، وتناولت كثير من كتب

(13) أشكر Whitaker (2002) على هذه التفاصيل من السيرة الذاتية.

الرحلات القطب الشّمالي. فمن جهة؛ لأن المستكشفين كانوا يحاولون العثور على "ممر الشّمال الغربي"؛ كان هذا الطريق الأسطوري سيتيح للتجار الإبحار من أوروبا إلى آسيا عبر المحيط المتجمد الشّمالي. (وقد استمر الاستكشاف لزمنٍ طويل: إلى أن اجتاز روالد أموندسن ممر الشّمال الغربي لأول مرة بين عامي (1903-1906). ويضم كتاب ريتشارد هاكلويت **الرحلات البحرية الكبرى** (1589-1600) مناقشات عديدة عن الممر. وهذا المقطع كتبه الجغرافي ريتشارد ويليس:

> إن وجد مثل هذا الممر، فإنه سيُطمر تحت الجليد والثلوج في معظم شهور السنة، حيث إنه يقع على أطراف منطقة الصقيع. وقبل أن تُدفئ الشَّمس الجو، وتذيب الجليد، سيعرف كل واحد [مستكشف] جيدًا أنه لن تكون هناك ملاحة، فكيف يمكن أن تتمكن مركبة بهذا الضعف مثل السفينة أن تصمد وسط جزر بأكملها، وكأن الجليد يقرعها باستمرار من كل جانب، وفي فوهة ذلك الخليج ينزل عليها بعنف من الشّمال، وكيف تمر بأمان حين تنهار عليه جبال كاملة من الجليد والثلج[14].

يبين الشَّكل 6-3[15] إلى أي حد تم استكشاف الممر في عام 1631.

يرى لاين كوتونيز Line Cottegnies أستاذ الأدب، أن سفينة السيدة في **عالم متألق** , يمكن أن تبحر عبر ممر الشّمال الغربي لتصل إلى القطب الشّمالي، ولعل كاڤنديش كانت تعلم من خلال كتب الرحلات بقصص تجمد طواقم السفن، ولعلها أيضًا تقدم "إجابة خيالية" للغز الخارطة، فكيف ينبغي لنا أن نمثل القطبين على الخرائط؟

في الواقع، كوكبنا ثلاثي الأبعاد، لذلك فإن القطبين يحددان نقطتين على

---

(14) نقلًا عن Hakluyt (1889: XII.66)، وقد حدثتُ بعض هجاء ويليس. [كان هجاء بعض كلمات ويليس باللغة الإنكليزية القديمة . المترجمة].

(15) مأخوذة عن المستكشف Luke Foxe (1635).

الكوكب وحسب، لكن في الخرائط ثنائية الأبعاد، يظهر القطبان في أغلب الأحيان عند الحدين الشّمالي والجنوبي، وهكذا، يبدو أنهما يشيران إلى حدود عالمنا المعروفة، وقد مثلت بعض خرائط القرن السابع عشر القطبين بنجوم تشع منها خطوط ضوء طولية، ولعل هذا سبب آخر جعل كاڤنديش تسميه العالم "المتألق"[16].

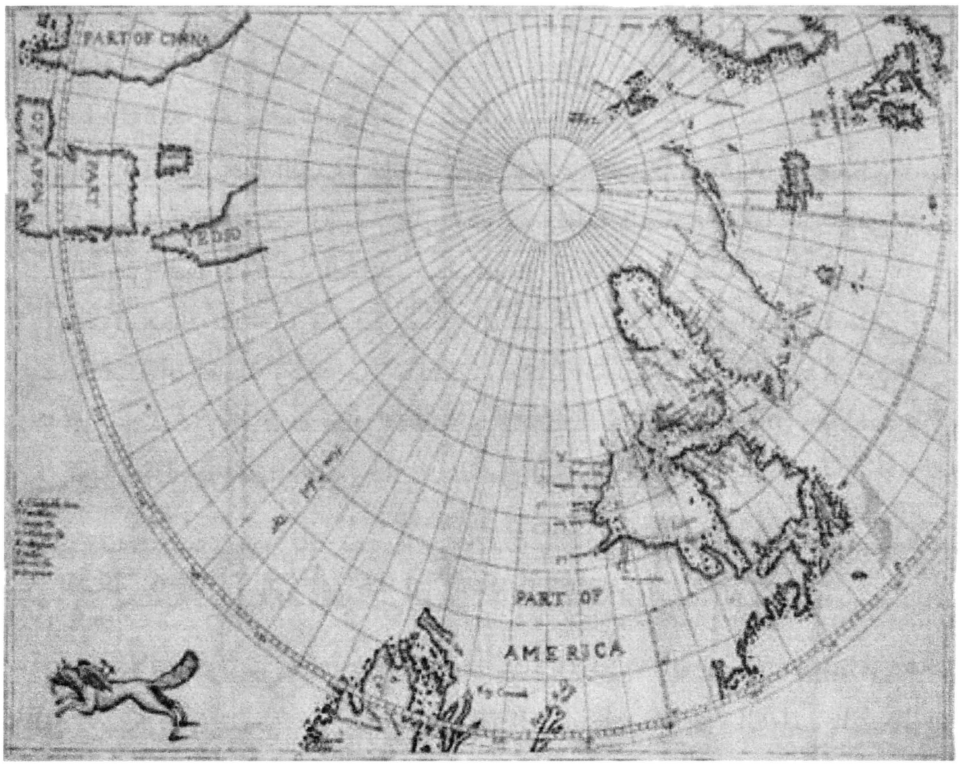

الشّكل 6-3 ممر الشّمال الغربي في عام 1631

ما إن تعبر السفينة القطب الشّمالي حتى ترتفع درجة الحرارة على سطحها، وتبدأ جثث البحارة في التعفن، فتحاول السيدة دفع الجثث من فوق السطح،

(16) للمزيد عن هذه الأفكار، انظر: Cottegnies (2010). وعن البحث عن الممر الشّمالي الغربي بشكل عام، انظر: Waters (1978).

لكنها تجدها ثقيلة للغاية، وينقذها من "رائحتها الكريهة" وصولُ بعض الكائنات التي تسير على سطح الجليد. تقف هذه الكائنات منتصبة على أقدامها مثل الإنسان، لكنها تشبه الدببة. ساعد هؤلاء الرجال- الدببة السيدة في الخروج من السفينة، وقرروا أخذها "هديةً" لإمبراطور عالمهم، يُسَر الإمبراطور برؤية السيدة ويتزوجها، ويمنحها "سلطة مطلقة لتحكم هذا العالم وتديره كيفما شاءت".

تبدأ السيدة، بوصفها الإمبراطورة الآن، في مقابلة رعاياها وحكم دولتها، ومن هذه النقطة فصاعدًا، تنشأ الجوانب الفلسفية في **عالم متألق**، فكتاب الرحلات هذا "يوتوبيا"، مثل: كتابَي مور وبيكون، وهو تجربة فكرية **أيضًا**، صُمم للهجوم على علم بيكون.

لعلك كوّنت انطباعًا من كتابنا هذا بأن فلسفة بيكون في تجديد العلم مرت دون معارضة، لكن ذلك لم يحدث، فقد كانت كافْنديش أحد الفلاسفة الذين هاجموا أفكار بيكون الجديدة عن العلم، وكان هجومها حادًّا.

لم تهاجم كافْنديش كل جوانب السَّفر أو العلم، وبالرغم من أنها لم تقدّر "الجولة الكبرى"، كانت تقدّر السَّفر بوجهٍ عام، ومن بين مؤلفات كافْنديش مجموعة بعنوان: "من أقوال أشخاص يُحتضرون".

تضم هذه المجموعة أقوال رحالة أجنبي وهو (كما خمنتَ) يُحتضر. يصرّح الرحالة بأن: "لدى الرحالة أكثر الأسباب وجاهة لحب الله وعبادته على أفضل نحو؛ لأنهم يرون بديعَ صنعه"[17]. ويبدو أن كافْنديش، مثل: بيكون، تؤمن بأن السَّفر يمكن أن يساعدنا في فهم خلق الله.

في مقالة نشرت عام 1663 عن الحيوان وزراعة الخضروات، كان تَوجه كافْنديش إيجابيًّا تجاه العلم، فقد أثنت على الطرائق التي يعرف بها بعض الرجال معلومات عن: أنواع التربة، والطقس، ومواسم الزراعة، وتناقش المقالة

---

(17) Cavendish (1663: 137).

أهمية الرجل الذي:

> لا يكتسب الخبرة بالممارسة وحدها، ولا يحكم بالملاحظة وحدها، بل يتعلم الفلسفة الطبيعية ومفاهيمها على حد سواء، كأن يتعلم أسباب ونتائج أعمال الطبيعة ويبحث فيها، وأن يعرف تأثير السماء في الأرض ويلاحظه، وتأثيرها في المخلوقات المتنوعة المختلفة تحت الأرض وفوقها، وكذلك حب المخلوقات المختلفة وبُغضها لبعضها بعضًا، وأيضًا طبائع وخاصيات كل نوع وصنف من الكائنات.

إلى هنا، تتوافق ملاحظات كافندیش مع آراء بيكون، لكنها تواصل قائلة:

> وعلى ذلك، هل نعرف كيف نزيد تكاثر الحيوانات عندنا، وأنواع خضرواتنا، وكيف نعثر على المعادن التي نستخدمها[18].

تقول كافندیش: إن أهمية العلم تكمن في **منفعته**، وخلال السنوات القليلة التالية، وضعت هذا التوجه في فلسفةٍ للعلم.

أما كتاب كافندیش "**ملاحظات على الفلسفية التجريبية** (1666)"، فهو هجوم على علوم محددة في أربع مائة صفحة. وسنركز على اعتراضاتها على العلوم المرتبطة بالمجاهر، ويستخدم "الفحص المجهري" المجاهر لفحص الأشياء التي لا تُرى بالعين المجردة، في حين يرسم "التصوير المجهري" تلك الأشياء. وفي ذلك العصر، كان الفحص المجهري والتصوير المجهري (الرسم اليدوي) جديدين نسبيًّا، إذ كانا قد شرعا للتو يكتسبان انتشارًا، وذلك بفضل كتاب روبرت هوك **علم التصوير المجهري: أو بعض الأوصاف الفسيولوجية لأجسام دقيقة باستخدام العدسات المكبِّرة** (1665).

---

(18) Cavendish (1663: 243-5).

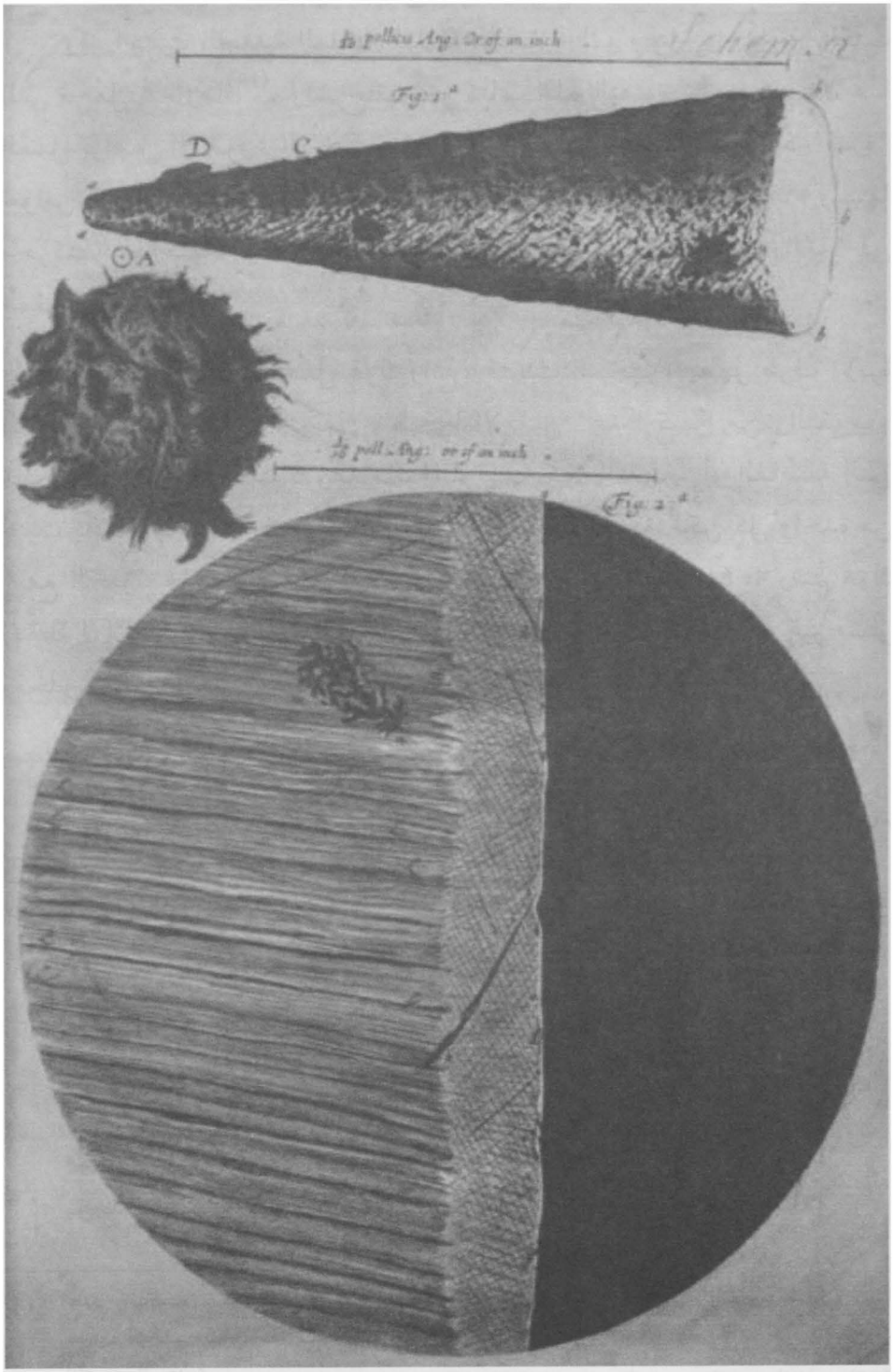

الشَّكل 6-4 رسم هوك المجهري

وقد احتفت الجمعية الملكية العلمية بكتاب هوك، وصار واحدًا من الكتب التي تحمل شعارها[19]. ويشرح تصدير كتاب **علم التصوير المجهري** أن هذا العمل يواصل المشروع التجريبي. فعن طريق المجهر يمكن أن تزداد "قدرة" حواس الإنسان المحدودة والضعيفة، وسيكتشف البشر تركيب الأجسام وبنيتها وحركتها الداخلية، وكان هوك يعتقد أن هذا سيؤدي إلى "مزايا رائعة" في المعرفة الميكانيكية.

يرى أناسٌ كثر أن عمل هوك رائعٌ، فتحت المجهر، يظهر طرف الإبرة الدقيق عريضًا وثلمًا، ويخفي سطحها الأملس "عددًا كبيرًا من: الثقوب، والخدوش، والتعرجات". وعلامات الترقيم، كـ: النقطة، أو الفاصلة التي كُتبت بأقلام مختلفة، فتظهر بلا اختلاف للعين المجردة. لكن كل واحدة من "بقع الحبر" هذه تظهر متفردة تحت المجهر. ويبين الشَّكل 6-4 رسم هوك للنقطة [.]. كذلك يبدو حد الموسى ناعمًا إلى أن يكشف المجهر أنه غير مستوٍ ومخدوش.

بسبب هذا كله، لم تجد كاڤنديش عمل هوك رائعًا، فهاجمته على أسس عدة:

أولًا: تحتج بأن هذا العلم الجديد **يعجز** عن اكتشاف حركات الأشياء الداخلية، بل لا يمكنه تصوير أشكالها وحركاتها الخارجية:

> على سبيل المثال: يصنع الفنان أشكالًا أسطوانية وعدسات محدبة ومقعرة، وما إلى ذلك، تمثل شكل جزءٍ ما من كائن بشكلٍ مماثل له وحقيقي، لكن شكله سيئ ومشوه للغاية، كذلك، فإن المرآة المعيبة، أو المنبعجة، أو المكسورة، أو المقطعة إلى: معيّنات، أو مثلثات، أو مربعات، أو ما شابه، ستُظهر صورًا متعددة لشيءٍ واحد. فضلًا عن ذلك، يوجد عدد كبير من البدائل التي يصنعها: اختلاف الضوء، وظلاله،

(19) جدير بالذكر أن بيكون تُوفي في عام 1626. لذلك، فبالرغم من أن أعضاء الجمعية الملكية كانوا يعدّون أنفسهم متبعين مبادئ بيكون، فإن بيكون نفسه لم تصدر عنه أي تصريحات عن كتاب هوك التصوير المجهري.

وانكساره... فتكون من الصعب معرفة حقيقة الشيء، ولا يزيد إدراك حاسة البصر، وغيرها من الحواس، عن الأجزاء الخارجية للكائن الممثَّل، وبالرغم من أن الإدراك يمكن أن يكون حقيقيًّا، حين يقدم الشيء بشكله الحقيقي، فحين يكون التمثيل خاطئًا، ستكون المعلومات حتمًا خطأ أيضًا... على سبيل المثال: تظهر القملة عند النظر إليها بعدسةٍ مكبرة كأنها جرادة بحر، حيث يكبر المجهر، ويمد كل جزء فيها، فيجعلها أكبر حجمًا وأشد استدارة مما هي عليه في الطبيعة[20].

وتضم رسوم هوك في كتاب "التصوير المجهري" رسمًا لقملة.

لماذا تظن كاڤندیش أن المجهر لا يمكنه تمثيل الأشياء بدقة؟

ثمة أسبابٌ عدة:

أحدها: إن تلك المجاهر تكون أحيانًا معيبة، فلو كانت مرآة منبعجة أو مشروخة، فإن ما تعكسه يكون مشوّهًا. وعلى المنوال نفسه، لو كانت عدسات المجهر معيوبة أو منبعجة، فستنتج عنها صورة مشوهة، وكانت مجاهر القرن السابع عشر بها عيوب في كثير من الأحيان، وذلك ما تعلمه كاڤندیش تمام العلم، فقد قرأت كثيرًا عن المجاهر، واكتسبت بمعاونة زوجها خبرة عملية كبيرة، فخلال فترة منفاهما في باريس اقتنى الزوجان مجموعة من المجاهر، وسمى وليام مجهر زوجته: "عدسات سيدتي المكبرة".

والسبب الثاني الذي جعل كاڤندیش تظن أن المجاهر ليست دقيقة هو أننا حين نستخدمها في النظر إلى أي شيء، لا ننظر إليه مباشرة، بل ننظر إلى إسقاط الشيء على العدسة، أي: ننظر إلى نسخة من الشيء وليس الشيء نفسه، وعند رسم هذه الأشياء، فإننا "ننسخ نسخة من النسخة"، وهذا يؤدي إلى أخطاء. وتأخذنا كاڤندیش إلى الفن، فالفنان يقر بأن الأشياء يمكن أن تختلف أشكالها بحسب انعكاس الضوء من حولها وموقعها منه، وبالتالي، فمن الصعب

(20) هذا النص والنصوص اللاحقة من Cavendish (2001: 50-3).

معرفة شكل الشيء الحقيقي، ولعل أحد الفنانين الذين كانوا في ذهن كاڤنديش هو هوك نفسه، إذ نقرأ في تصدير كتاب **التصوير المجهري** أن من الصعب اكتشاف "الشَّكل الحقيقي "للأجسام المجهرية"، بعكس الأجسام التي تُرى بالعين المجردة، فالشيء نفسه قد يبدو "مختلفًا تمامًا عن شكله الحقيقي؛ بسبب موقعه من الضوء"، وكتاب لوك **مقالة عن الفهم البشري** الذي نُشر بعد عشرين عامًا من ذلك الوقت، يمكن أن يثير تساؤلات مشابهة، على سبيل المثال: يعلق لوك في إحدى فقرات الكتاب قائلًا: "يظهر الدم للعين المجردة أحمر اللون كله، لكن باستخدام مجهر جيد، حيث يُظهر مكوناته الأدق، نرى عددًا قليلًا من الكريات الحمراء تسبح في سائل شفاف"[21]. وبالنظر إلى التواريخ، يحتمل أن لوك قرأ كتاب كاڤنديش.

وفي الواقع، كانت كاڤنديش تنصح بالحذر، فرسومات كتاب **التصوير المجهري** تفترض ضمنًا أن "رؤية" الأشياء عبر المجهر رؤيةٌ مباشرة، تمامًا كأننا نرى بأعيننا المجردة، وعلى العكس من ذلك، ترى كاڤنديش أن المجهر لن يمثل الأشياء بدقة أبدًا.

وفي رأي كاڤنديش، المجاهر وغيرها من علوم بيكون الجديدة "عجائب اصطناعية"، **وهذا** ما ترمي إلى تبيانه في **عالم متألق**.

أتذْكر كيف ربط بيكون **أتلانتا الجديدة** بكتابه غير الخيالي **غابة من الغابات؟** على النهج نفسه، تربط كاڤنديش "**عالم متألق**" بكتابها **ملاحظات على الفلسفة التجريبية**. وهي تصف الكتابين بأنهما "مرتبطان معًا" كأنهما عالمان مختلفان في قطبين، وتوجد أوجه تشابه أخرى بين **أتلانتا الجديدة** و**عالم متألق**، فيرى أحد الباحثين أن كاڤنديش بَنتْ يوتوبيتها على غرار يوتوبيا بيكون عمدًا، لتسلط الضوء على نحو أوضح على ما بينهما من خلافات[22].

---

(21) (Locke, 1690: II.xxiii.11).

(22) See Cottegnies (2010).

وإننا إذ تسلحنا بهذه الخلفية، فنحن مستعدون للعودة إلى **عالم متألق**، فاكتشفت السيدة أنواعًا شتى من الرجال هناك، وبوصفها إمبراطورة البلاد، قسّمتهم إلى جماعات، فصار الرجال الدببة فلاسفتها التجريبيين، وصار الرجال الطيور علماء الفلك، وصار رجال الحشرات الطائرة، ورجال الديدان، ورجال الأسماك فلاسفتها الطبيعيين، والرجال القرود علماء الكيمياء، والرجال الفراشات علماء الفيزياء، والرجال الثعالب هم السياسيون، وصار رجال العناكب ورجال القمل علماء الرياضيات. وصار عدد من رجال الطيور، ومنهم: الغراب، والعقعق، والببغاء الشعراء، وعلماء المنطق، وما إن قسّمتهم السيدة إلى جماعات، حتى سألتهم أسئلةً من قبيل:

- ما طبيعة الرعد والبرق؟
- ما ذرات الشَّمس؟
- ما النجوم الموجودة؟
- ما الهواء؟
- مِمَ صنع الثلج؟
- ما سبب ملوحة مياه البحر؟

هذه الأسئلة تذكرنا بقائمة بيكون للموضوعات التي تتطلب دراسة علمية، وبالرغم من أن رعايا الإمبراطورة يحاولون الإجابة عنها، فإن إجاباتهم نادرًا ما تنال رضاها.

على سبيل المثال: لم يتمكن الفلكيون من الرجال الطيور من الاتفاق على طبيعة الرعد والبرق، فتحولت الإمبراطورة عن "خلافاتهم المملة" إلى التجريبيين من الرجال الدببة، وأمرت الرجال الدببة أن يفحصوا الأجرام السماوية بمناظيرهم الفلكية، لكن هذه المناظير الفلكية للأسف تسبب "اختلافات وانقسامات أكبر"، فبعض الرجال الدببة كانوا يرون أن الشَّمس تتحرك، في حين لم يرَ آخرون ذلك. كذلك، اختلف الرجال الدببة حول حجم

النجوم، وقد ثار غضب الإمبراطورة حين كانوا يتناقشون، فلماذا لم تمدهم مناظيرهم الفلكية بالمعرفة؟ وتردف الإمبراطورة:

> إنني أدرك الآن بكل وضوح أن مناظيركم لا تخبركم بالمعلومات الصحيحة، فبدلًا من اكتشاف الحقيقة، تضلل حواسكم. ومن ثم، أنا آمركم بتحطيمها، وليثق الرجال الطيور في عيونهم الطبيعية وحدها، وعليهم أن يفحصوا الأجرام السماوية بما تمليه عليهم حواسهم وعقولهم.

اغتم الرجال الدببة من ذلك، وتوسلوا إليها لكي تترك مناظيرهم الفلكية سليمة؛ بدافع أنهم يجدون "متعة في الأوهام غير الحقيقية أكثر من الحقائق الطبيعية"، فسمحت لهم الإمبراطورة بالإبقاء على مناظيرهم الفلكية، وفي المقابل جعلوها ترى مجاهرهم.

جعلوا الإمبراطورة ترى أشياء عديدة موجودة في كتاب هوك **التصوير المجهري**، ومنها: عين ذبابة، وفحم نباتي وورقة نبات القراص.

وللأسف، لم يسر العرض كما كان مخططًا، إذ فقدت الإمبراطورة الوعي عندما شاهدت قملة مكبّرة. وبعد ذلك، تسأل: هل يمكن للمجاهر أن تساعد النَّاس في تجنب عضة القمل أو البراغيث؟

فيقول الرجال الدببة: إنها لن تساعدهم في ذلك، فتستاء الإمبراطورة، إذ ليست لدراستهم أغراض نافعة، وتوجه الإمبراطورة مجموعة أخرى من المخلوقات: "لن أجعلكم تتحملون المزيد من الألم، ولا أن تهدروا وقتكم في محاولات عقيمة، لكن كونوا أكثر حكمة فيما سيأتي، وأشغلوا أنفسكم بالتجارب التي قد تنفع بلادكم".

رواية **عالم متألق** تجربة فكرية، وهي تبين ما قد يحدث إذا اعترى العلم التجريبي، فسادٌ، وخلافات، ومناقشات، وإهدار للوقت، ففي رأي كافْنديش ينبغي أن نتحرى العلم الذي يساعد البشر، ويختتم كتاب كافْنديش **ملاحظات** تعليقاتها على المجاهر:

لكن هل يمكن أن يجد الفلاسفة التجريبيين فنونًا نافعة أكثر مما وجد أجدادنا، إما لزيادة الخضروات والمواشي لتغذية أجسامنا، وإما ابتكارات أفضل وأرحب في فنون العمارة لبناء منازلنا، أو للنهوض بالتجارة وحركة السير لتوفير ضروريات الحياة لنا... إن ذلك لن يستحق جهدهم وحسب، بل يستحق منا كل الثناء عليهم. أما الأولاد الذين يلعبون بالفقاعات المائية، أو ينثرون التراب في أعين أقرانهم، أو يصنعون أفراسًا للعب من الثلج، فيستحقون التوبيخ لا الثناء؛ لأنهم يهدرون وقتهم في ألعاب لا نفع منها، وكذلك مَن عودوا أنفسهم على ممارسة الفنون التي لا تدر ربحًا، فهم يقضون فيها وقتًا أكبر مما يجنون من فوائد[23].

في القرن الواحد والعشرين، توجد علوم أكثر، وكثير من هذه العلوم ليست نافعة للبشر بشكل واضح.

هل ستتحسن حياتنا حين نعرف كم عدد المجرات؟ أو كيف تعمل الإلكترونات؟ وإحدى الحجج المضادة هي أن هذه العلوم قد تسفر عن تقنيات أو أفكار مفيدة في المستقبل.

لم يعرف هوك وكافنديش أن التصوير المجهري قد يكون مفيدًا، واليوم نعرف أن للتصوير المجهري استخدامات لا تُحصى، فالمجاهر الضوئية التقليدية تحلل خلايا الأنسجة والبكتيريا. وهذا يساعد في سرعة تشخيص الحالات الطبية وصنع عقاقير جديدة. كذلك تساعدنا المجاهر الإلكترونية في صنع رقائق السيليكون، وهذه الحواسب الدقيقة والهواتف الذكية والإنترنت. ومجاهر المسح الصوتي تكتشف الشروخ في المعادن، فتجعل ألواح الطائرات أكثر أمانًا، ولو كان بوسع كافنديش أن تستشرف المستقبل، أظن أن الإمبراطورة كانت ستُثني على مجاهر الرجال الدببة.

يقدم **عالم متألق** تجربة فكرية عن فلسفة العلم، وقبل أن نتركه، أود أن

(23) هذا النص والنصوص اللاحقة من Cavendish (2001: 50-3).

أستجلي سؤالًا أخيرًا: إلى أي حد يبعد العالم المتألق عن الواقع؟

إن حكايتي عن عصا الحلوى في القطب الشّمالي في ألاسكا، حقيقية وليست خيالية، أما حكاية كاڤنديش عن السيدة الشابة المخطوفة التي أبحرت إلى القطب الشّمالي المغناطيسي، فخيالية وليست حقيقية، لكن عالم كاڤنديش المتألق خيالي وحقيقي في آن واحد. وشرح ذلك يتطلب خلفية قصيرة.

تعتقد كاڤنديش أنَّ كل ما حولنا "مادي"، فكل شيء مصنوع من مادة، نفس المادة خُلق منها: البشر، والأشجار، والأقمار. وبالرغم من أن هذا الرأي شائع اليوم، كان أمرًا خلافيًّا في زمنها، وجزئيًا؛ لأنه تجاهل الروح البشرية غير المادية. وعلى عكس غيرها من الفلاسفة، لا تعتقد كاڤنديش أن المادة جامدة، وإنما كل المادة حيّة، و"تتحرك ذاتيًّا". والبشر ليسوا استثناءً، بل هم مجرد أجزاء في منظومة مادية أكبر، فشجرة البلوط تتكون من مادة حية متحركة، وكذلك العقل البشري. والعقل وما به من أفكار ما هو إلا منظومة من مادة متحركة.

ترى كاڤنديش أن ثمة تشابهًا شديدًا بين العالم وعقولنا، فكلٌّ منهما قالبٌ للمادة المتحركة، وهي ترصد أوجه التشابه في هذه القصيدة "تشبيه رأس الإنسان بالعالم":

مثل **النجوم** المتلألئة التي تظهر وسط **السحب** الداكنة، وتسطع
تظهر **التخيلات** بسرعة في العقل...
والرأس كرة مستديرة تمامًا مثل **الأرض**
تتوّجها الأجرام السماوية
لذا فالرأس والعالم متشابهان
وقد جعلت الطبيعية الرأس كالعالم

مكتبة
t.me/soramnqraa

بوسعنا أن نخلق عوالم داخل رؤوسنا بخيالنا، وقد اختلق مور مدينة فاضلة (يوتوبيا) واختلقت چيه. كيه. رولينغ مدرسة "هوغوارتس". وبحسب رؤية

كاڤنديش أن عقولنا وأفكارنا مادية، فإن الفرق الوحيد بين العالم الحقيقي والعوالم التي نتخيلها فرقٌ في الحجم فقط، فالعالم الحقيقي هائل الحجم، في حين أن العوالم الخيالية في عقولنا صغيرة، مع ذلك، فإن عوالمنا المتخيلة مجرد نسخ مصغرة من العالم الحقيقي.

وتستهل كاڤنديش **عالم متألق** بقصيدة لزوجها:

اكتسب كولومبوس آنذاك شهرة في الملاحة؛ لأنه اكتشف عالمًا جديدًا، اسمه: "أمريكا"، لكنه اكتشف هذا العالم ولم يصنعه...

لكنكِ تصنعين خيالًا، أرى أنه مناسب
لتصنعي عالمك من لا شيء إلا الفطنة التامة
(وليام نيوكاسل، إلى دوقة نيوكاسل، عن كتابها **عالم متألق**)

يرى وليام هنا أن ما حققته زوجته يفوق ما حققه أشهر مكتشفي أوروبا. فكولومبوس "اكتشف" عالمًا جديدًا وحسب، في حين أن كاڤنديش **صنعت** عالمًا.

يقدم لنا هذا مستوى آخر يعمل عليه كتاب **عالم متألق**، فهو على السطح كتاب رحلات عن سيدة شابة تسافر عبر القطب الشّمالي، لكن ما تحت السطح تجربة فكرية تظهر مدى حمق علم بيكون، وعلى عمق أكبر، هو كتاب رحلات **حرفيًا**، إذ تصف كاڤنديش عالمًا حقيقيًّا كعالمنا تمامًا، وقصر الإمبراطورة حقيقي تمامًا مثل بيت سانتا كلوز في ألاسكا.

أقوى

صناديق الأمتعة وحقائب اليد وحقائب السَّفر

من صنع

كروتش وفيتزجيرالد

نيويورك

للبواخر الأمريكية والسَّفر الأوروبي

حقائب سفر فائقة الجودة وخلافه

فروعنا

1 شارع كورتلاند (الفرع الجديد)

556 برودواي 723 سيكس أفنيو

أسفل الشارع الثاني والأربعين

اطلب الدليل المصوّر

THE MOST RELIABLE

TRUNKS, BAGS, VALISES, &C.,

ARE MADE BY

CROUCH & FITZGERALD,

NEW YORK.

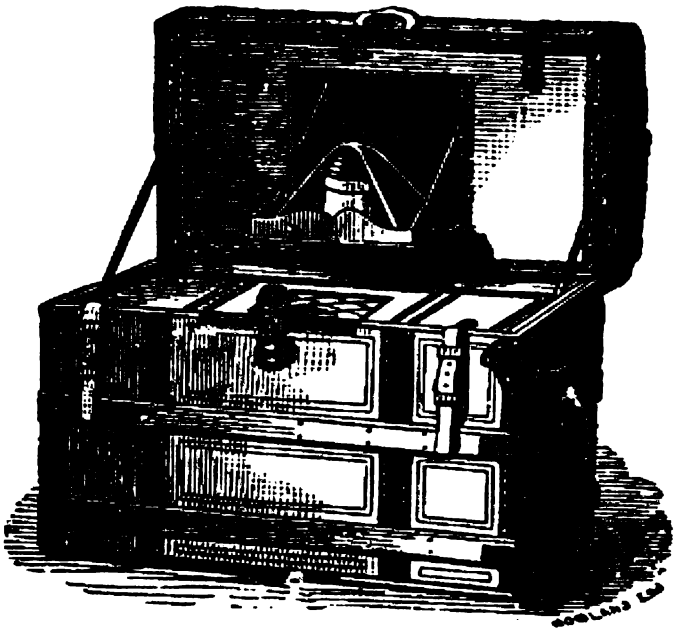

TRUNKS

FOR AMERICAN STEAMER AND EUROPEAN TRAVEL.

EXTRA FINE QUALITY OF TRAVELING BAGS, &C., &C.

STORES:

1 CORTLAND STREET.

556 BROADWAY.

(New Store,)

723 SIXTH AVENUE,

Below Forty-Second Street.

SEND FOR ILLUSTRATED CATALOGUE.

7

السَّفر عبر الجبال
وفلسفة الفراغ عند هنري مور

السعادة هي خروج
ابن البر إلى البحر
عابرًا البيوت وألسنة الصخر
إلى خلود مستمر
إيميلي ديكنسون "السعادة هي الخروج" (حوالى 1860)

تمتلئ ألاسكا بالجبال، فإن أخذ شخص ما قصاصة من الورق تتخذ شكل أرض ألاسكا، فجعّدها، ثم بسطها، ستكون خير صورة لتضاريس ألاسكا. كانت أنكوريج أول مكان أراه في ألاسكا، كمعظم السّياح. وهي مدينة تمتلئ بالجبال، فعند التحليق فوقها، ستزدحم نوافذ طائرتك بقمم بيضاء مسننة، ومثلثات كارتونية يتكدس بعضها فوق بعض.

يشعرك وسط مدينة أنكوريج بأنه مُحاط، مهّد بشري ليّن تهدهده الصخور، أقف عند نصب كوك التذكاري، فأرى في الجهة المقابلة جبل سوسيتنا، المعروف بالإنكليزية باسم "السيدة النائمة"، (ويُسمى بلغة دينا ينا: "الجبل الصغير").

في الواقع، لم تطأ قدما كوك هذا المكان قط، إذ لم يقم إلا بمسح للخط الساحلي في بحثه العقيم عن ممر الشّمال الغربي، مع ذلك ينتصب تمثاله الضخم، ويبدو عليه الإصرار حاملًا لفة من الخرائط تحت ذراعه، ويحدق إلى المياه الجارية أمامه في البحر المفتوح. (واسم ألاسكا مشتق من كلمة Aldxsxaq

بلغة الأليوت [السكان الأصليين]، أي: الشيء الذي يجري البحر اتجاهه)[1].

تسلقتُ جبل "فلاتتوب" من أنكوريج، وكانت فترة ما بعد الظهيرة ضبابية، وقد حُجبت السماء بلون "باين"* الرمادي، وكانت جبال شوجاش تقع في جهة الشرق، وهذه المساحة التي تبلغ 250 ميلًا طولًا و60 ميلًا عرضًا هي تقريبًا نفس مساحة سويسرا، ويسقط فيها الجليد بكمية أكبر من أي مكان آخر في العالم، وسمي أطول جبالها الذي يبلغ ارتفاعه 13094 قدمًا، باسم: "ماركوس بيكر"، وهو عالم جيولوجيا رسم خرائط لمناطق في ألاسكا، ومن الأسماء الأخرى التي لا تُنسى: قمة الخجول، وقمة الجليد، وقمة الدب القطبي، وجبل قاعة القتلى*، وقمة انتحار الشّمال. تلمع قمم الجبال المسننة هذه باللون الأبيض، بينما تلوح في الأفق بقعٌ قد تكون جبل فوريكر أو دينالي، أصابتني رجفة وتراجعت إلى الأسفل، ولم أرَ دينالي بوضوح إلا بعد أن وصلت إلى شفق الشتاء القطبي في اليوم التالي.

دينالي هو أعلى جبال أمريكا الشّمالية، ويبلغ ارتفاعه 20310 قدمًا، وهو يعلو سلسلة جبال ألاسكا وحديقة دينالي الوطنية، ويُرى على بعد أكثر من مائة ميل، وسماه جيمس ميشنر "مجد ألاسكا". و"الجبل الأكبر" شديد الضخامة لدرجة أنه يصنع طقسًا خاصًا به، وتهب العواصف من خليج ألاسكا وبحر بيرينغ متجهة نحو دينالي، مما يؤدي إلى العواصف الثلجية وتساقط الثلوج، وعندما رفعت عينَي إليه لأول مرة، لم أشعر بأنني صغيرة وحسب، بل شعرت **بالضآلة**، فمتوسط أعمار البشر سبعون عامًا، بينما عمر دينالي مئات الملايين من السنين.

---

(1) Ransom (1940: 551).

(*) أزرق غامق رمادي مصنوع من مزيج من لون البحر الأزرق Ultramarine وصبغة أكسيد الحديد Mars Black وأحيانًا اللون القرمزي .Crimson سميت على اسم الملون المائي ويليام باين (عاش في القرن الثامن عشر) الذي ابتكر الخليط، وغالبًا، أوصى به طلابه كبديل للون الأسود العادي. (المترجمة).

(*) مشتق من اسمه في الميثولوجيا الإسكندنافية Valhalla ومعناها بالإنكليزية: "Hall of the slain". (المترجمة).

بالرغم من أن الجبال تنمو بمعدّل جليدي (التورية مقصودة)، فإن الأفكار الغربية عن الجبال تتطور بسرعة، وكان مفكرو العصور الوسطى والقرن السابع عشر يصفون الجبال بأنها خطيرة ومظلمة وقبيحة.

وفي القرن الثامن عشر، أصبحت الجبال جميلة ومهيبة وتشبه الكاتدرائيات، فما الذي تغير؟ نجد طرف الإجابة في نظرية جديدة عن الفراغ، وضعها هنري مور في سبعينيات القرن السابع عشر.

نشأت الصلة بين الجبل والفراغ لأول مرة على يد باحثة الأدب الأمريكية مارغوري هوب نيكولسن، في كتابها **جبل الكآبة، جبل المجد.**

يستطلع هذا الكتاب اللماح تحولات موقف الغرب من الجبال. تقدم نيكولسن نصوصًا مختلفة تبيّن كيف وصف المفكرون القدماء الجبال وصفًا سلبيًّا[2]. على سبيل المثال: هذا مدخل في دليل للشعراء لجوشوا بوول (1657):

الجبل:
يعج بالطحالب، وهو: صخري مريب، وتكلله الغيوم، وعاتٍ، ومنحدر، ومتطاول، وشاهق، ومحلّق، وزلق، وعتيق، وأشيب، وحاد، ومكفهر، وقوي المتن، وشامخ، وباسق، وخشن، وقاحل، ومهيب، وجليل، ومسنن، ويقتل السماء، ويتوعد السماء، وتغلفه السحب، وعالي الجبين، وأشعث، ومتغطرس، ويغزو الجو، ومعلق، ومغطى بالأعشاب الخشنة والسراخس، وقفر، وفظ، ومهجور... وشائك، وعدائي، وقاتم، وبارد، ومتجمد، وعقيم، وساحر، ومتكتل الأكتاف، ووعر، ومتفرد، وكئيب[3].

---

(2) من إنجازات نيكولسن الأخرى، أنها كانت أول امرأة تحصل على درجة الأستاذية في رابطة اللبلاب Ivy League حين التحقت في جامعة كولومبيا في عام 1941. وهنا، أستخدم طبعة عام (1959) من جبل الكآبة، جبل المجد Mountain Gloom, Mountain Glory.

(3) Poole (1657: 129).

تعجبني صفة "متكتل الأكتاف" بصفة خاصة، بالرغم من أن كلمة "متكتل" هنا للأسف تعني "أحدب"، وليس "يشبه الكعكة الصغيرة".

توجد بعض التداعيات المحمودة هنا: شامخ، مهيب، ساحر. لكن الغالبية العُظمى من الصفات المذمومة: متغطرس، ومكفهر، وقاحل، ويقتل السماء. وكما تفسر نيكولسون، كان وصف الجبال السلبي الذي قدمه بوول أمرًا شائعًا، وتصف قصيدة جون دون (1611) "تشريح العالم"، الجبال بأنها "بثور وثقوب على وجه الأرض".

وقد وجدت مشاعر مُماثلة في خطابات الفيلسوف الإيرلندي جورج بيركلي، ففي العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من عمره قضى سنوات عدة في السَّفر في أرجاء القارة الأوروبية، وكان في بعض سائق دببة. وقد عَبَر طريق "ماونت سينيس" مرتين في الشتاء، وهو طريق جبلي فرنسي إيطالي. وعند عبوره عام 1714، يصف بيركلي "سلسلة ثابتة من الصخور والجبال"، والصخور والمنحدرات عالية ومتعرجة إلى درجة "تذيب قلوب أشجع الرجال". (ويضيف أنه لم يسقط عن جواده إلا أربع مرات، فكُسر سيفه وساعة يده، وعلبة السعوط)، ويزعم بيركلي أن عبور عام 1716 كان أسوأ، إذ تهب على الطريق عاصفة عنيفة، تجعل ممراته "مروّعة". وإحدى حكاياته الجبلية تحديدًا لا تُنسى:

> ركض ذئب جبلي ضخم داكن اللون عبر سهل مفتوح عند مرور عربتنا، وحين دنا منّا استدار ووقف بمظهر حاد شديد الشراسة، فجردتُ سيفي على الفور، وأطلق السيد آش النار من مسدسه. وفعلت مثله، فتراجع الحيوان المفترس بهدوء شديد، وظل ينظر خلفه من حين إلى آخر[4].

لقد خوّف الفيلسوفُ الذئبَ بالسيف.

---

(4) Berkeley (repr. 2013: 109; 140).

وبعدما أثبتت نيكولسن أن المُحدَثين الأوائل كانوا يظنون الجبال أماكن مرعبة وخطيرة، تعقّب بقول: إن القرن التاسع عشر شهد تحولًا في هذا التوجه. على سبيل المثال: هذا وصف بايرون للجبال في عام 1812 في قصيدة **رحلة تشايلد هارولد الطويلة**:

تقع جبال الألب فوقي
قصور الطبيعة بجدرانها الشاهقة
تخترق ذرا رؤوسها الثلجية السحبُ
وخلود العرش في الأروقة الجليدية
وحيث تتشكل مهابة البرد، يسقط
الانهيار الجليدي وصاعقة الثلج
كل هذا يسمو بالروح، لكنه يرعب
مَن اجتمعوا حول هذه الذرى

وفي قصيدة عن كاتدرائية القديس بطرس في روما، يقارن بايرون القبة بالجبل:

لكن ها هي، القبة، القبة الضخمة الرائعة
إنك تتحرك... لكنك تنمو مع كل تقدمٍ
مثل تسلق جبال الألب الشاهقة التي ما تنفك تتسع
تغتر بتميزها الشديد،
الضخامة التي ما تنفك تزداد، حتى ينسجم
كل ما هو موسيقي في ضخامتها

لم يكن بايرون وحده، ففي العقد الأول من القرن التاسع عشر، وصف كثيرٌ من المفكرين الجبال وصفًا حسنًا، فكتب الرسام جون روسكين عن جبال الألب "كاتدرائيات الأرض الضخمة، وبواباتها من صخر، وأرضياتها من سحاب، وجوقتها من جداول الماء والأحجار، ومذابحها من الثلج، وأسقفها أرجوانية تعبرها النجومُ المتتابعة".

وفي عام 1858، كتبت إلينا غيكا Elena Ghika عن جبال الألب:

> قدمتْ صورة اللامحدود نفسها إلى ذهني بكل عظمتها الهائلة، وشعر بها قلبي المُتْعَب، وحين كنت أتأمل السهول السويسرية، تهتُ في ضبابها الرقيق، والجبال المتجاورة التي يغطيها الضباب الذهبي، طرأت لي هذه الفكرة عن الرب، وبدا لي أن مكانه في قلبي لم يكن كما ينبغي قبل ذلك اليوم[5].

بل إننا قد نجد وصفًا جميلًا كهذا لجبال ألاسكا، إذ يصف جون موير عالم الطبيعة الإسكتلندي الأمريكي الذي اتخذ لقب: "جون ابن الجبال"، في كتابه الذي نشر عام 1915 **أسفار عبر ألاسكا**، شروق الشَّمس في جبال فيرويذر قائلًا: مكتبة سُر مَن قرأ

> جفلنا بظهور مُفاجئ لضوء أحمر يشتعل مع سطوع أرضي غريب على ذروة القمة... ظل ينتشر إلى أن امتلأ النطاق بأسره نزولًا إلى مستوى الأنهار الجليدية بالنار السماوية. كان اللون في البداية قرمزيًّا زاهيًا، له مظهر فرائي سميك جميل مثل الشفق الألبي، لكنه غنيٌ وعميقٌ بشكل لا يُوصف...
>
> وكان ضوء الصباح الأبيض بلا شعاع الذي رأيته حين كنت وحيدًا وسط ذرا سلاسل جبال كاليفورنيا، يبدو لي دائمًا أشد المخلوقات دلالة على صنع الرب على الأرض، لكن هنا اكتسبت الجبال نفسها قدسية، وعبّرت عن عظمة الرب بصورة تثير الإعجاب[6].

وقد سُمي أحد أنهار ألاسكا الجليدية باسم موير.

ما الذي دفع إلى هذا التحول من كآبة الجبل إلى عظمة الجبل؟ وما الجبال

---

(5) Ghica (1858: 324).

(6) Muirs (1915: 152-3).

إلا نتوءات صخرية مسننة وعرة، غير مُرحبة وغير إنسانية. والواضح أن جبلًا وعرًا مثل دينالي لا يشبه الكاتدرائية. تقول نيكولسون: إن التغيير مُتجذر في فلسفة الفراغ، وبتحديد أكبر في نظرية كان هنري مور أول من قدَّمها.

ربما لم تسمع بمور قط، لكنه، في القرن السابع عشر، كان أحد كبار الفلاسفة في بريطانيا. وقد قضيت خلال عملي في تاريخ الفلسفة، وقتًا طويلًا مع مور. عاش مور كل سني حياته تقريبًا في كرايست كوليدج بكامبريدج، وشهد عددًا من أعنف أحداث إنكلترا على الإطلاق: الحرب الأهلية المتقطعة، وتفشي الموت الأسود [الطاعون]، والمذنّبات التي كان يعتقد أنها تُنذر بنهاية العالم. وبالرغم من كل ذلك نجح مور في كتابة عدد كبير من الكتب، وكان يفكر في "الفضاء" تفكيرًا عميقًا.

وبالنسبة للفضاء، أنا لا أقصد "الفضاء الخارجي"، حيث توجد النجوم والمجرات، وإنما أقصد الفراغ كما في عبارة "وقت الفراغ"، أو كالفراغ داخل صندوق فارغ، وعند تعمقه في دراسة ميتافيزيقا الفراغ، كان يريد أن يعرف: ما الفراغ؟

في زمن كتابة مور، كانت هناك نظريتان شائعتان عن الفراغ[7]:

إحداهما: "نظرية الخواء" التي صاغها علماء الذرة اليونانيون القدماء، فيقول ديموقرطيس على سبيل المثال: "في الحقيقة لا تُوجد سوى الذرات والخواء". وفي أوائل القرن السابع عشر، بعث الفيلسوف الفرنسي غاسيندي الحياة في نظرية الذرة اليونانية، فقد صور غاسيندي الفراغ بوصفه نوعًا من الوجود غير الحقيقي، خواء أو عدم. وتتحرك الذرات والأجسام داخل هذا الخواء.

أما النظرية الأخرى، فهي "النظرية الأرسطية"، أي: التي صاغها أرسطو الذي رفض المفهوم الذري للفضاء، إذ ترى النظرية الذرية أن الأجسام المادية

(7) لتفاصيل أوفى عن هذه النظريات، انظر: Thomas (2018).

تشغل "حجمًا"، مساحة من الفراغ "الخالي". على سبيل المثال: يمكن أن يشغل مكعبٌ من الخشب مساحةً قياسها بوصات مكعبة عدة. لكن أرسطو يرى أن للمكعب بالفعل حجمًا **خاصًا به**، فإذا كان طول كل وجه من أوجه المكعب أربع بوصات، فإن حجمه يكون أربع بوصات مربعة. وعلى ذلك، يرى أرسطو أننا لا نحتاج إلى فضاء خالٍ نضع المكعب فيه، فالمكعب يحمل فضاءه معه، وقد أحيا ديكارت نظرية أرسطو، فيناقش ديكارت "امتداد" الأجسام المادية، طول المكعب، وعرضه، وعمقه. وهو يرى أن امتداد المكعب يطابق امتداد الفراغ الذي يشغله[8]. فبالنظر إلى المكعب في الشَّكل 7-1، هل يوجد المكعب في فراغ أم أن المكعب، بـ: طوله، وعرضه، وعمقه يشغل بالفعل حيزًا من الفراغ؟

يرى ديكارت أن الأجسام المادية تشغل دائمًا حيزًا من الفراغ، لذلك فحيثما يوجد جسم مادي، يوجد فراغ بالفعل.

وهذا في رأي ديكارت يعني أيضًا أنه لا يوجد فراغ يخلو من مادة، فحيثما يوجد فراغ توجد مادة.

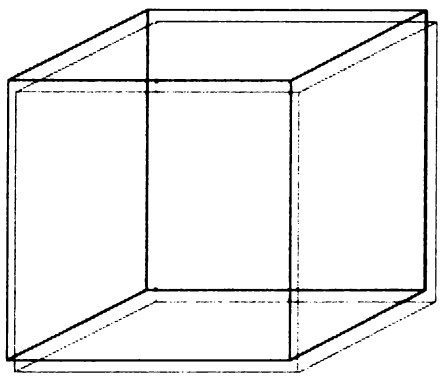

الشَّكل 7-1: كيف يرتبط هذا المكعب بالفراغ الذي يشغله؟

(8) Descartes (1984: I.227-8).

تطورت آراء مور عن الفراغ خلال مسار حياته المهنية، وكان الموقف الذي توصل إليه في آخر المطاف حلًّا لمشكلتين:

المشكلة الأولى، هي: ما العلاقة بين الفراغ والمادة؟ قرأ مور ديكارت بدقة، وبالرغم من أنه كان معجبًا بأعمال ديكارت، فإنه لم يستطع تقبُّل وصف ديكارت الفراغ، ففي رأي مور، كان من المستحيل أن توجد فراغات خاوية، وفراغات تخلو من المادة، وعلى عكس ديكارت، كان مور يعتقد أننا إن أزلنا كل الأجسام المادية من العالم، سيظل الفراغ موجودًا.

أما المشكلة الثانية، فهي: ما علاقة الرب بالعالم؟ في رأي ديكارت، يشبه العالم آلة عملاقة. في البداية، وجد مور هذه الفكرة شديدة الجاذبية، فقد أتاحت له التخلي عن النظريات الأقدم الأشد غموضًا حول ماهية العالم. لكن مور، في آخر المطاف، خلص إلى أن فلسفة ديكارت تؤدي إلى الإلحاد، إذ كان يبدو أن صورة ديكارت الآلية لا تحتاج إلى إله فيها، ويمكن أن يكون الرب قد خلق آلة العالم، ثم تخلى عنها. وحتى إن كان الإله موجودًا في الجوار، فليست ثمة حاجة لكي يكون موجودًا في العالم المخلوق. وقد رفض مور هذه الآراء، ووصف النظرية القائلة بأن الرب ليس في أي مكان بأنها "كومة ضخمة من الجهل".

تجمعت أفكار مور عن هاتين المشكلتين تدريجيًّا، وكان يعتقد لزمن طويل أن الفراغ لامحدود، وكان يشعر بالرهبة من ذلك، فها هو مقتطف من إحدى قصائده الأولى:

لذلك، حينما أترك اللانهائي سأغني
ففي الزمان والمكان، وبدون رحيل، أنا كائن صغير
ومع شدة الضجر يثب قلبي فرحًا
ويتحرك كل كياني برجفة لطيفة[9].

---

(9) More (1878: 91).

يغني مور بابتهاج عن الزمان اللامحدود والمكان اللامحدود، وصار مقتنعًا بأن الفراغ يمكن أن يكون موجودًا، حتى وإن لم توجد أجسام مادية، وكان أعظم أعمال مور كتابه *Manual of Metaphysics* دليل الميتافيزيقا (1671) يتناول موضوع الفراغ بصفة أساسية (الشَّكل 7-2).

يقول مور بوجود "امتداد ثابت محدد" في كل مكان، وهذا الفراغ "يختلف عن المادة المتحركة". ويرى مور أن الفراغ "حاوية" لانهائية أبدية، وكما في الشَّكل 7-2 يحتوي الفراغ أجسامًا مادية[10]. ويمكن أن يوجد فراغ حتى إن لم يكن بداخله أي شيء.

ويرى مور أن هذا الامتداد ليس عدمًا، ويعلل ذلك بأن هذا الامتداد لابد أن ينتمي إلى شيءٍ ما، بنفس الطريقة التي ينتمي بها امتداد المكعب إلى المكعب، ويقول مور: إن هذا الامتداد اللانهائي ينتمي إلى الرب، وهو يشير إلى أن الفراغ يشترك مع الرب في عشرين صفة على الأقل من صفاته، فكل منهما ثابت، ومستقل، وكامل، وحيّ لا يموت، ويخلص مور إلى أن الشيء الذي "تزينه" هذه الأسماء الجليلة إلى هذا الحد، ولا يمكن أن يكون وهميًّا. إنه ليس "مجرد فراغ"، إنما هو "جوهر محدد" جوهر الرب اللامادي[11]. ويطابق مور بين الفراغ ووجود الرب الدائم، أي: وجود الرب في كل مكان.

كان هذا حلًّا متطرفًا، لكنه حلَّ مشكلتَي مور الفلسفيتين، فهو يفسر كيف يمكن أن يوجد زمان ومكان من دون أجسامٍ مادية، ويحدد مكان الرب في العالم.

---

(10) الرسم التوضيحي نقلًا عن Dainton (2010: 2).

(11) More (1995: 52-6).

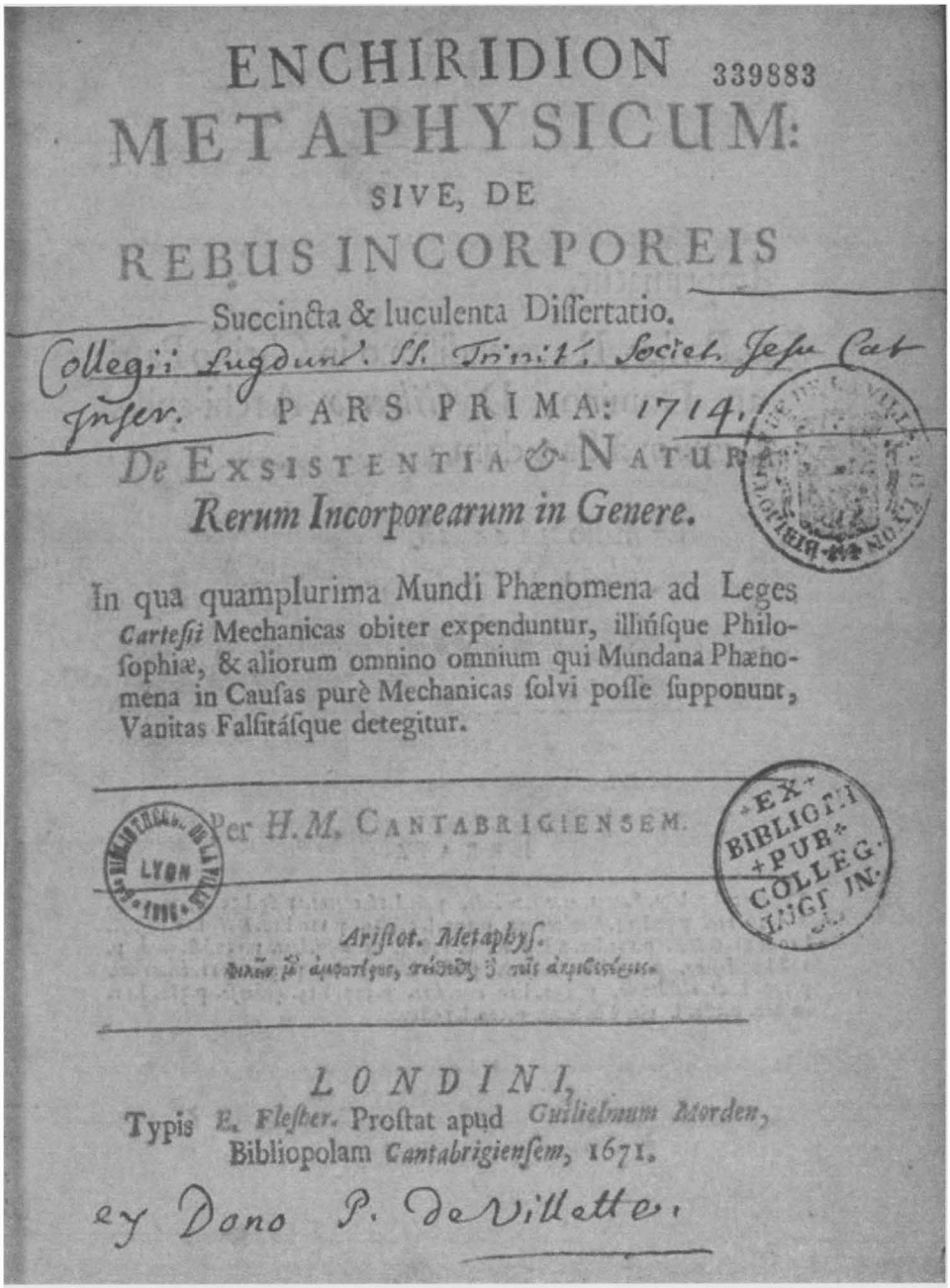

ENCHIRIDION 339883

METAPHYSICUM:

SIVE, DE

REBUS INCORPOREIS

Succincta & luculenta Dissertatio.

Collegii Lugdun. SS. Trinit. Societ. Jesu Cat

Inser. PARS PRIMA: 1714.

De EXSISTENTIA & NATURA

Rerum Incorporearum in Genere.

In qua quamplurima Mundi Phænomena ad Leges *Carteſii* Mechanicas obiter expenduntur, illiúſque Philoſophiæ, & aliorum omnino omnium qui Mundana Phænomena in Cauſas purè Mechanicas ſolvi poſſe ſupponunt, Vanitas Falſitáſque detegitur.

Per *H.M.* CANTABRIGIENSEM.

Ariſtot. Metaphyſ.

Φιλόν γε ἀμφοτέρως, τοιοῦτος δ' ὁ τοῖς ἀριστεύουσι.

LONDINI,

Typis *E. Fleſher.* Proſtat apud *Guilielmum Morden,* Bibliopolam *Cantabrigienſem,* 1671.

ex Dono P. de Villette.

الشَّكل 7-2 صفحة الغلاف من كتاب مور دليل الميتافيزيقا

انتشرت نظرية مور الجديدة، وسمحت التحسينات التي أُدخِلت على المنظار الفلكي للناس برؤية أبعد، وتصور البعض بالفعل أن الفراغ لا محدود. ولم تكن نظرية مور إلا خطوة قصيرة إلى الأمام. وتبنّى كثير من المفكرين وجهة نظر مور بأن الفضاء إلهي، حتى وإن تركوا بعض تفاصيلها.

ومن هؤلاء، فيلسوف كامبريدج إسحق بارو الذي قيل عنه: إنه يحذو حذو مور، في قوله: إن مفهوم اللامحدودية الإلهية يتضمن "حقيقة جلية عن الفراغ"[12]. وبارو هو أحد هؤلاء الفلاسفة البريطانيين الذي سافروا كثيرًا؛ بسبب تعاطفهم مع الجانب الخاطئ في فترات مختلفة خلال الحرب الأهلية الإنكليزية، وفي أثناء سفره عبر أوروبا، هاجم القراصنة سفينته وهي في طريقها إلى تركيا، وفي قصيدة باللاتينية نَظَمها بعد هذه الحادثة، يصف بارو بسعادة دحر المهاجمين[13]. (يقال: إن بارو كان "مهووسًا" بتحويل أفكاره إلى شعرٍ باللغة اللاتينية، وعند عودته من أسفاره، رُسم قسيس، وحيّر القساوسة بتقديمه "إجابات شعرية" للأسئلة اللاهوتية)[14].

تعلّم إسحاق نيوتن من مور وبارو، ففي طبعة عام 1713 من كتابه **مبادئ الرياضيات**، يكتب نيوتن عن الرب:

> إنه الباقي والموجود في كل مكان، وبوجوده دائمًا وفي كل مكان يشكل: الدوام، والفراغ، والخلود، واللامحدود. ولأن أي وكل جزء في الفراغ موجود دائمًا، وأي وكل لحظة مدة غير قابله للتجزئة موجودة في كل مكان، فإن خالق كل شيء وصانعه لن يكون غير موجود، ولا مكان له[15].

---

(12) Barrow (1734: 171).

(13) Barrow (1859: IX.458-80).

(14) عن هوس بارو، انظر: Overton (1885: 302)، وعن ترسيمه، انظر: Feingold (2007).

(15) Newton (1999: 941).

وبعد بضع سنوات، يقول صامويل كلارك النيوتوني النزعة:

> الفراغ **هائل**، **وغير قابل للتغيير**، **وأبدي**، وكذلك **الزمان**. مع ذلك، لا يوجد على الإطلاق من الآن فصاعدًا أي شيء أبدي إلا الرب؛ ذلك لأن **الفراغ والزمان** ليسا من الله، لكن وجوده تعالى هو سبب وجودهما، وهما نتيجتان فوريتان وضروريتان لوجوده[16].

كان نيوتن وكلارك أشهر من اعتنقوا أفكار مور، وغيرهما كثير[17]. وعند المفكرين الأوروبيين كان الرب والفراغ متحدان.

فما صلة نظرية الفراغ الجديدة هذه بالجبال؟

بدأ النَّاس يربطون الفراغ بـ: الطبيعة اللامحدودة، والصحارى الرملية، والمسطحات الملحية، والسهول الجليدية، والمحيطات، وهذه الطبيعة ليست لانهائية في الواقع، لكنها قد تظهر لا نهائية في عيون البشر.

ربط فلاسفة القرن السابع عشر بين الفراغ والرب، وربط الفلاسفة اللاحقين بين الفراغ والطبيعة اللانهائية.

وفي آخر الأمر، ربط النَّاس بين الرب والطبيعة اللانهائية، وما إن حدث ذلك، بدأ النظر إلى الطبيعة اللانهائية على نحو إيجابي، وترى نيكولسون أن **هذا** هو سبب أن الجبال تحولت من مكفهرة وقوية كأنها بثور، إلى كاتدرائية.

وبالرغم من أن نيكولسون تركز على الجبال، يمكن أن نرى هذا التحول نفسه في صور الطبيعة الأخرى التي تبدو لانهائية، فلنلقِ نظرة على كتابات عن المحيطات.

هذه بعض تداعيات الكلمة في كتيب چوزيف بوول (1657):

---

(16) Clarke (1717: 129-131).

(17) لمزيد من التفاصيل، انظر: Thomas (2018).

البحر
نشط، وطافٍ، ومتماوج، وغاضب، وهائج، وضخم، وماجن، وجارٍ، ومُهين، ويبتلع ما فيه، ومروّع، ومخيف، وكادح، ولا طرق فيه، ومغرِق، وقوي، وعبّاب، وفياض، وعنيف، وعاصف، ولا يبقى على حال، وينحسر، ويتدفق، وزجاجي اللون، ولا يكف عن الحركة، ولا قاع له، ويعج بالقطرات، ومضطرب، وصاخب، وعتيق، وأشيب، ومضحك، وأشعث، وتحفره الرياح، ووثّاب، وقذر، ومزعج، ومزبدٌ، ومرغٍ، وجامح[18].

هذه الأفكار سلبية بصفة عامة، فالبحر: غاضب، ومغرِقٌ، وتحفره الرياح، والغريب أنه أيضًا "ماجن"، وهذه الصفة تعني عادةً منفلتًا جنسيًّا، ويحتمل أن جيمس كوك يوافق على أنه "لا طُرق فيه".

بعد نحو عشرين عامًا، تغير وصف البحر بأنه "مُروّع" و"مخيف"، ويلاحظ روبرت بويل أن "الفراغ يتصف بشيءٍ من اللامحدودية"،[19] وبعدها يشبّه لامحدودية الرب بلامحدودية الفراغ، ويكتب: إن عقولنا لا يمكن أن تدرس "الكمال الإلهي" ولا "أبعاد الفراغ" بدقة،[20] ويشبّه محاولاتنا قياس الفراغ بالنظر إلى المحيط.

ويرى أننا لا يمكننا تصور أبعاد الفراغ كاملة؛ لأننا مهما تصورنا ضخامتها، يمكننا دائمًا تَصوّر أنها أضخم، وعلى المنوال نفسه، عندما تقع العين على البحر، فإننا نعرف أن مهما نظرنا إلى الأفق البعيد، فإن رؤيتنا "تقصر عن الإحاطة بمساحة هذا الشيء الشاسع"، والآن يربط بويل بين: الفراغ اللامحدود، والبحر، والرب.

---

(18) Poole (1677: 179).

(19) Boyle (1999-2000: VIII.269).

(20) Boyle (1999-2000: IX.389).

ونجد هذا الربط نفسه عند توماس بيرنت، رئيس تشارتر هاوس* وأحد تلاميذ مور. ففي عام 1681، نشر بيرنت كتابه **النظرية المقدسة للأرض** *(The Sacred Theory of the Earth)*. وهو كتاب جغرافية كونية cosmography، وسرد لما صار إليه كوكبنا. وعلى مدار صفحات الكتاب، يقدم بيرنت صورة "جديدة" عن الجبال والبحار:

> أعتقد أن أعظم كائنات الطبيعة هي تلك التي تسرُّك رؤيتُها، وفيما عدا قبة السماء، وتلك المناطق الشاسعة التي تسكنها النجوم، لا شيء أنظر إليه باستمتاع أكثر من البحار الواسعة وجبال الأرض. ثَمَ شيء جليل ومهيب في جو هذه الأشياء يلهم العقل بأفكار عظيمة ومشاعر رائعة، ونجد أنفسنا في ذلك الحين نفكر تلقائيًا في الرب وعظمته، وفي أي شيء ليس له سوى ظل **اللامحدود** ومظهره؛ لأن كل الأشياء التي تتصف بذلك تستعصي على فهمنا، وهي تملأ العقل وتغمره برحابتها، وتضعه في حالة ممتعة من الذهول والإعجاب[21].

ويغني بيرنت، مثل مور قبله، للامحدود، وتجد قصيدة بايرون **رحلة تشايلد هارولد الطويلة** (1812-1816) الرب في البحر:

ثمة متعة في الغابات غير المطروقة
وثمة نشوة على الشاطئ المنعزل
وثمة مجتمع بلا متطفلين
عند البحر العميق، وموسيقى في هديره

(*) كنيسة تابعة للكارثوسيين، وهي رهبانية مغلفة باللاتينية، ويتبع رهبانها الكنيسة الكاثوليكية. (المترجمة).

(21) Burnet (1684: 139-40).

يرى الكاتب چوناثان رابان أن "حين ذهب بايرون إلى الشاطئ، التحم بالكون"[22].

وتصف قصيدة إيميلي ديكنسون التي افتُتح بها هذا الفصل شعورًا مماثلًا.

تقضي نيكولسون بعض الوقت في مناقشة عمل چوزيف أديسون، وهو كاتب مقالات إنكليزي وأحد مؤسسي مجلة **ذا سبيكتاتور (المُراقب)**، ومثلما كان بيرنت تلميذَ مور، كان أديسون تلميذ بيرنت.

تقدم نيكولسون مقتطفات عدة من أعمال أديسون، وها هو مقتطف من إحدى مقالات أديسون في مجلة **ذا سبيكتاتور** من عام 1712:

> ما من أحد يشبع الخيال ويوسعه أكثر من كتّاب الفلسفة الجديدة، سواءً أنظرنا إلى نظرياتهم عن الأرض أم السماء، أم الاكتشافات التي توصلوا إليها بالعدسات، أو أيِ تأمل من تأملاتهم في الطبيعة... وعندما نفحص الأرض كلها مرة واحدة، والكواكب العديدة التي تقع جوارها، تملأنا دهشة ممتعة عند رؤية عوالم كثيرة معلقة بعضها فوق بعض، وتنزلق حول المدارات بمثل هذا الجلال والهيبة.

في ذهن أديسون أن واضع "الفلسفة الجديدة" الرئيس، هنا هو نيوتن، بنظرياته الثورية عن حركة الكواكب.

وفي مقالة تالية، يواصل أديسون تأمل أجرام نظامنا الشَّمسي، ويحاول أن يتصور مدى اتساع الكون:

> إذا مُحقت وانطفأت تمامًا الشَّمس التي تنير هذا الجزء من الخليقة، مع كل حشد عالم الكواكب التي تدور حولها، فلن يزيد فقدها عن حبة رمل على شاطئ البحر... وما من شك في أن الكون له حدود محددة له، لكننا حين نفكر في أن لمن صنعه قدرة لامحدودة، مدفوعة بخير لا حدود له،

---

(22) Raban (1992: 14).

ولا يحدها مكان، فكيف يمكن أن يضع خيالنا حدودًا لها؟

انتقل أديسون من الكواكب إلى الفضاء اللامحدود، إلى قدرة الرب التي لا حدود لها، وترى نيكولسون أن هذه الروابط نفسها طُبقت بحذافيرها على الجبال، مثل: "امتداد الزمن اللامحدود أو الفراغ اللانهائي"، فالجبال هي "ظلال الألوهية".

وجدتُ تأكيدًا على نظرية نيكولسون في ردٍّ من مجهول على أديسون نشر في أحد أعداد مجلة **ذا سبيكتاتور** في عام 1712. يصف الكاتب نفسه بأنه واحدٌ ممن خاضوا رحلات بَحَرية عديدة، وقد تأثر بتعليقات أديسون عن اللامحدودية فكتب الآتي:

> لقد أوحى لي هذا بسبب أن لا شيء يؤثر في خيالي، أكثر من البحر أو المحيط، من بين كل ما شاهدته... فالمحيط الهائج، بالنسبة لإنسان يبحر فيه، هو في رأيي، أكبر شيء متحرك يمكن أن يراه... ولابد أن أعترف بأن من المستحيل بالنسبة لي أن أفحص هذا العالم من المادة السائلة من دون أن أفكر في اليد التي صبته في البداية، فهذا الشيء يثير في عقلي تلقائيًا فكرة وجود كائن قدير، ويقنعني بوجوده بقدر ما هو واضح ميتافيزيقيًا. والخيال يحفز الفهم، وعظمة الشيء الملموس تسفر عن فكرة وجود كائن لا يحده مكان ولا زمان.

وفي المخيلة الشعبية يختلط: الإله، والفراغ، والطبيعة اللامحدودة.

ترى نيكولسون أن هنري مور وضع أساس "جماليات اللامحدود"، وعلم الجمال هو دراسة الجمال والفن، وحين ربط مور الرب بالفراغ، مهّد الطريق للأوروبيين ليقيّموا المساحات الشاسعة والأشياء اللامحدودة تقييمًا فنيًّا، فالجبال والمحيطات ليست هائجة أو قذرة، بل تشبه الرب.

قرأ كثير من النَّاس أوصاف بايرون وراسكين الآسرة للجبال، ولم تكن القراءة عن الجبال كافية بالنسبة للبعض، فأرادوا أن يشاهدوا جمال هذا

اللامحدود بأنفسهم، وبدأت سياحة جبال الألب في القرن التاسع عشر، وقام كثير من النَّاس برحلة إلى قممها (أقصد الأثرياء)، وفُتحت نوادٍ لجبال الألب في: لندن، وسويسرا، وألمانيا. وتدريجيًا، تطورت البنية التحتية السّياحية، فولدت قطارات التلال ونُزل الجبال[23].

يصف كتاب روبرت ماكفارلين **جبال العقل** (2003) *Mountains of the Mind* هذه التطورات، فيقول: إن خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، بدأ النَّاس في السَّفر إلى الجبال لأول مرة بدافع الترفيه وليس لضرورة.

وبدأ ينشأ شعور قوي عن سحر المناظر الجبلية، وكان أول وصول إلى قمة مونت بلانك [الجبل الأسود] في عام 1786، وبدأ تسلق الجبال المنظم يظهر للوجود في منتصف العقد الأول من القرن التاسع عشر.

يشرح ماكفارلين أن هذا إلى حدٍّ ما كان نتيجة الالتزام بالعلم: "في فترة المراهقة الرياضية، لم يكن لأي متسلق جبال محترم أن يتسلق القمة دون أن يكون معه مقياس حرارة على القمة على الأقل". لكن هذه الرياضة ولدت من حب الجمال أيضًا، وتقدم الجبال تجميعًا لجماليات: الجليد، وضوء الشَّمس، والصخور، والارتفاع، والزوايا، والهواء، ما يسميه جون راسكين: "الصفاء اللانهائي للفراغ، حقيقة الضوء الأبدي القوية". وبالنسبة لعقل القرن التاسع عشر، كانت هذه الجماليات "رائعة بلا شك"[24].

ما إن فُتحت الجبال للسياح، حتى فتحت الخطوط الساحلية أيضًا، ففي ثلاثينيات القرن الثامن عشر، أصبح منتجع سكاربورو أول منتجع إنكليزي على شاطئ البحر، وفي عام 1738، زار أمير ويلز برايتون، وبدأ يؤسسها بالمباني الفخمة التي تسر العين، وألقى رابان في هذا الأمر باللوم على بحر بايرون

---

(23) المقدمة متاحة على الإنترنت عن تاريخ السّياحة، انظر:
http://ieg-ego.eu/en/threads/europe-on-the-road/the-history-of tourism#TheBoominMas-sTourisminthe19thCentury.

(24) Macfarlane (2003: 15-6).

الرومانسي الذي سيطر على المخيلة الشعبية، وكان كل سباح يستطيع أن يغوص في السمو اللامحدود اللامتناهي، ثم يعود إلى البيت "في موعد تناول الشاي والكعك"[25].

إن كانت نيكولسون على حق، فإن بايرون ليس أساس تغير التوجه الأوروبي نحو الجبال والمحيطات، وإنما الأساس هو ميتافيزيقا الفراغ لهنري مور، فقد أثار فيلسوف كامبريدج غير المشهور جنون سياحة جبال الألب.

(25) Raban (1992: 10-14).

أستراليا تناديك

مستوطنًا - أو مستثمرًا - أو سائحًا

احصل على كتيب "أستراليا تناديك" من:

لندن، والولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وجنوب إفريقيا

AUSTRALIA CALLS YOU

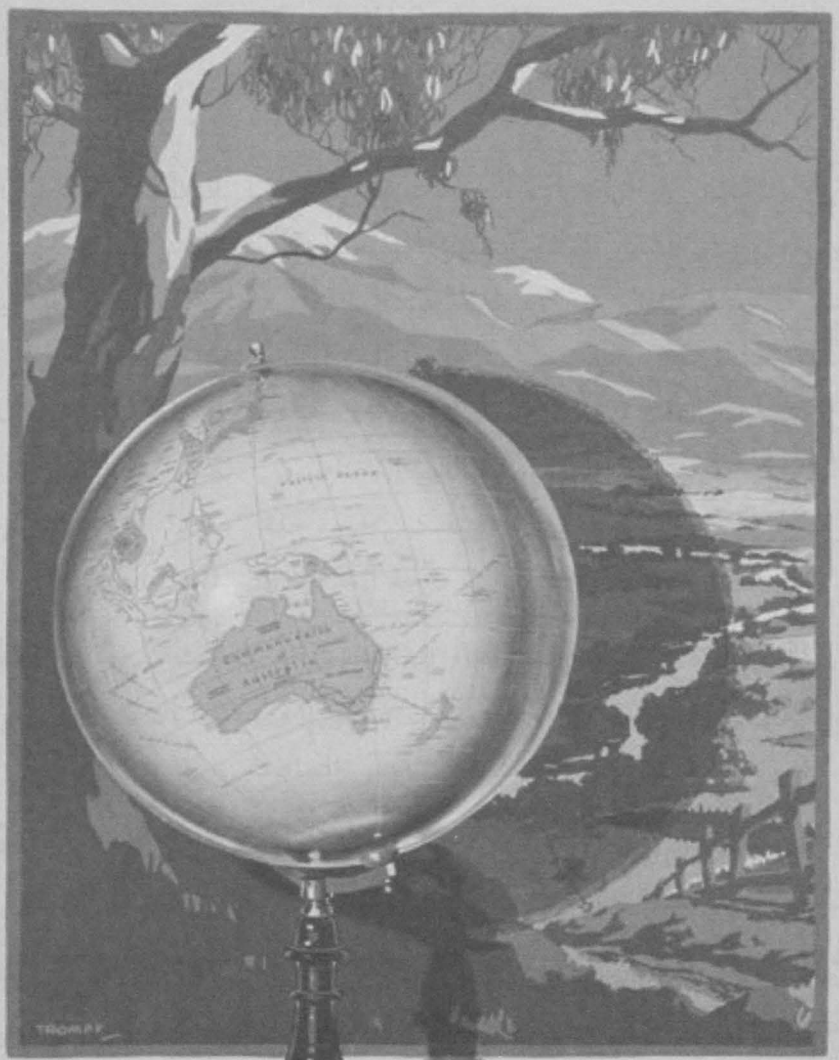

SETTLER, INVESTOR, OR TOURIST

Get booklet, "Australia Calls You," at—

ENGLAND—
Australia House, London.

U.S.A.—
Commissioner for Australia, New York.
Foster & Reynolds Co, New York & Agencies.
Eastern Time Table Distributing Co, New York & Agencies.
Railway Folder Schedule Distributing Co, San Francisco & Agencies.

CANADA—
Canadian Pacific Rly, Montreal & Agencies.
Canadian National Rlys, Montreal & Agencies.

SOUTH AFRICA—
South African Railways & Harbours, Johannesburg.

8

إدموند بيرك
والسّياحة السامية

مصابيح الشيطان، والراقصات المرحات، وشرارة ذيل الثعلب، وومیض الجزر الجليدية، وصار الشفق القطبي يشتهر بكل هذه الأشياء. وهو يحدث حين تطلق الشَّمس جسيمات مشحونة تجاه الأرض. فيجذبها قطبا الكوكب المغناطيسيين إليهما، وحينما تضرب الجسيمات غلافنا الجوي ينتج عنها ضوء، وأفضل مكان يمكن مشاهدة الشفق القطبي فيه هو وسط ألاسكا؛ لأنها تقع على خط العرض المثالي، فهو قريب من القطب الشّمالي المغناطيسي، لكنه ليس **لصيقًا** به، وقد سافرت في البرية شمالي شرق فيربانكس في رحلة "صيد" الأضواء، وجزئيًّا بأمل العثور على نزل به تدفئة تغالب درجة الحرارة التي تحت الصفر.

بدأنا مشاهدة السماء في تمام العاشرة، ولم يحدث شيء في الساعات الأربع الأولى، بالرغم من أن الجو كان صحوًا، ويمكنك أن ترى أي شيء **في** الفضاء، وتلوح شموس خافتة خلف الشموس الساطعة.

أشرنا إلى الشهب، وطبعنا آثار أقدامنا، وأسرعنا إلى الداخل بحثًا عن الدفء، فإذا بشكل حلزوني فضي شفاف يظهر عبر السماء. أغمض أحد الكنديين عينيه نصف إغماضة وهو ينظر إليه متسائلًا: "هل هذا ضوء شمالي؟"

فقال المرشد السّياحي بثقة: "قطعًا" (كانت الإعلانات تقول: "شاهد الأضواء"، "نضمن لك مشاهدة الأضواء").

فهمهم الكندي متشككًا.

وكنتُ متشككة أيضًا، ففي رواية "**امرأتان عجوزان**"، تقول تشيدزيغياك:

إن الأضواء "ملأتها بالرهبة". ويصف جون موير الشفق القطبي بأنه "أعمدة بألوان قوس قزح"، جسور فضية تلمع كأنها نجوم ساطعة، "تنصهر، وتلتحم، وتجري على مشّاية دوارة سماوية"[1]. مرت دقائق أخرى، مع المزيد من طباعة آثار الأقدام.

سطع الضوء الفضي ببطء، وومض بلون أخضر كحبة البسلة، **فشهق** أفراد المجموعة، وكان ذلك أكثر شبهًا بالشفق القطبي، إذ بدا تمامًا كما يظهر في الصّور الفوتوغرافية التي تزين ردهات الفنادق وحمامات المقاهي في أنحاء ألاسكا، فرأيت أن هذا العرض كان أفضل ما يمكن، وكنت مخطئة.

صرخ واحد من النَّاس، فالتفتُّ لأشاهد لونًا أشد خضارًا على شكل خطوط في النجوم.

كانت شرائط وردية تخفق فوق رؤوسنا، وفجأة صارت الأضواء في كل مكان.

ابتعدت قليلًا عن المجموعة رافعةً وجهي، فسطعت الأقواس، وكانت كاملة الاستدارة، ورسمت سقفًا قوطيًّا، ثم قفصًا صدريًّا لحوت.

قد يبدو هذا سخيفًا، لكنني لم أكن أعرف أنَّ الشفق القطبي **يتحرك**، لكن الأضواء كانت تنطلق بسرعة وترفرف وتثب بصمت، وبشكل يثير الرهبة. أشك أن إدموند بيرك كان سيقول: إنها تفعل ذلك "بِسمو".

علم الجمال هو دراسة الجمال، لكن ليس هذا كل ما يفعله، فكثير من المفكرين يرون أن الفن يشمل مفاهيم جمالية أو فنية أخرى.

يبحث فلاسفة علم الجمال في خبراتنا في كل هذه الأشياء: القبح، والتناغم، والتنافر.

فحين أستمع إلى موتسارت، أجد موسيقاه رائعة، وحين أزور حقلًا تتناثر

---

(1) Muir (1915: 315-6).

فيه المخلفات أراه قبيحًا. وحين أشاهد لوحة لچاكسون بولوك، أرى أنها متنافرة.

ويؤمن بعض المفكرين بمفهومٍ جمالي آخر: وهو السُّمو the sublime، ولهذه الكلمة جذر في اللاتينية *sublimis* بمعنى: "راقٍ" أو "مرتقٍ". وبمرور الزمن، قد تتغير معاني الكلمة تدريجيًّا. واليوم غالبًا نستخدم هذه الكلمة بمعنى: "ممتاز"، أو "جميل".

فقد يقول أحد زملائي: "هذا الشراب ممتاز". مع ذلك، كانت الكلمة، من الجهة التاريخية، تشير إلى شعور محدد: شعور الخوف الممتع، وقد طبق الفلاسفة الكلمة على الشعور، وعلى الأشياء التي تسبب الشعور، فكان يمكن لماري شيلي أن تقول: "تلك الغابة المسكونة رائعة"، وكثير من الأعمال الأولى عن السمو كتبها الفيلسوف الإيرلندي إدموند بيرك في القرن الثامن عشر.

انتشرت أفكار عن السمو عبر الفلسفة لقرون عدة[2]. وكان ما فعله كتاب بيرك الذي نشر عام 1757 **بحثًا فلسفيًا في أصول أفكارنا عن السمو والجمال** *Philosophical Enquiry into the Origin of Our Ideas of the Sublime and Beautiful* هو جمع هذه الأفكار معًا والبناء عليها[3]. ويرى بيرك أنه بالرغم من أن كثيرًا ما تخلط أفكارنا بين "السامي" و"الجميل"، فإن الصفتين مختلفتان إلى حدٍّ بعيد.

يرى بيرك أن الجمال صفة للأشياء التي تسبب "الحب، أو أي شعور مماثل"، ويمكن أن تجد الجمال في الأشياء بأي نسبٍ، أي: بكل أشكالها وأحجامها.

يشرح بيرك الأمر في عنوان فصل صاغه بطريقة جافة: "النِّسب ليست سبب الجمال في الخضراوات"، فإن الزهور الجميلة لها أشكال عدة، فضلًا عن الزهور، يرى بيرك أن الأشياء الآتية جميلة:

---

(2) يقدم Brady (2013) عرضًا تاريخيًّا متميزًا عن الرقي قبل بيرك وبعده.

(3) اقتبست هذا من طبعة (1990).

- أشجار البرتقال
- أسطح الأثاث الزخرفي المصقولة
- فراء الحيوانات الناعم
- البجع
- أرضية الحدائق الملساء المنحدرة.

ويشير إلى جمال النِّساء في مواضع عدة، وهذا نص مثير إلى حد بعيد:

لاحظ هذا الجزء في أي امرأة جميلة، ولعل هذا أجمل ما فيها: العنق، والصدر، والنعومة، والرِّقة، والبروز اللين غير المحسوس، وتنوع المظهر الخارجي، حتى أصغر جزء فيه لا يشبه غيره، ومتاهة خادعة تطوف بها العين الحائرة وترمق كل جزء خلسة بدون أن تدري على أي جزء يستقر النظر، ولا ما الذي حملته منه.

ويضيف بيرك بعد ذلك:

> إن مظهر الصلابة والقوة يضر كثيرًا بالجمال، أما مظهر **الرِّقة**، أو حتى الضعف، فهو أمر جوهري فيه...
> علي أن أقول هنا القليل عن الجنس الناعم، وأعتقد أنه سيسمح لي بذلك بسهولة. إن جمال النِّساء يرجع في الأساس إلى ضعفهن، أو رقتهن، بل يعززه خجلهن، وميزة العقل المناظر لهذا الجمال.

يرى بيرك النِّساء جميلات، ويقول ضمنيًّا وحسب إن الرجال سامون. وفي عام 1764، ذهب الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط إلى أبعد ذلك.

كان رأي كانط صريحًا: **ينبغي على** الرجال أن يكونوا سامين، **وينبغي على** النِّساء أن يكنَّ جميلات؛ لأن التعليم سمو وليس جمالًا، ينبغي أن تتجنبه النِّساء. يقول كانط: إن "المرأة التي يمتلأ رأسها باللغة اليونانية، قد تنبت لها

لحية أيضًا"[4]. (ويضيف كانط مازحًا: إن الإيطاليين والفرنسيين يشعرون بالجمال، بينما يشعر الألمان والإنكليز والإسبان بالسمو، أما الهولنديون، فلا يشعرون لا بهذا ولا ذاك). وبعد بضعة عقود، انتقدت ماري وولستونكرافت فكرة سمو الرجال، وجمال النِّساء. وهي ترى أن الجاذبية التي تضفي جمالًا على جسد المرأة هي "المصدر السام" لشرور النِّساء، وينبغي علينا أن نكافئ المرأة التي يوحي جمال فكرها "بالمشاعر السامية"[5].

ولنعد إلى بيرك، إنه يواصل الكلام عن الجمال الذي يتضمن مشاعر الاستمتاع، وعلى العكس من ذلك يتضمن السمو مشاعر الألم والخطر، ويرى بيرك أن الشعور بالألم والخطر هو أقوى المشاعر الإنسانية، وبالتالي، فإن السمو شعور قوي أيضًا، وأي شيء يمكنه أن يسبب هذه المشاعر "مهما كان فظيعًا"، يمكن أن يكون مصدرًا للسمو.

وفي الظروف المناسبة يمكن للأشياء الفظيعة أن تمنح البهجة، وتنتج مشاعر السمو عن الأشياء الفظيعة القريبة، وليست **اللصيقة**.

تخيل أنك تشاهد انهيارًا جليديًّا عبر التلفاز، قد يكون منظر تساقط الثلج وصوته مقبضًا، لكنك لا تشعر بخطر مميت، ولا تشعر بالقلق أو الخوف في الواقع، إذ يمكنك أن تغير القناة، أو تترك الغرفة وقتما تشاء، ويمكن أن يعرض التلفاز أشياء مخيفة، لكن أجهزة التلفاز ليست مخيفة بحد ذاتها، وعلى ذلك، فأنت بعيد تمامًا عن هذا الشيء المفزع، فلن تمر بتجربة السمو.

لكن تخيل أنك تتزلج في سفح جبل حين بدأ الانهيار الجليدي من فوقك، فتنظر إلى الأعلى، فإذا بألواح الثلج تهدر باتجاهك، إنك في خطر مميت، فلابد أن تهرب؛ لأنك قَطعًا لا يمكن أن توقف الانهيار الجليدي، سيكون وجودك وسط هذا الوابل مروّعًا، وليس مبهجًا على الإطلاق. هنا أنت لصيق

---

(4) Kant (2011: 35-7).

(5) Wollstonecraft (1793: 53-4).

بالشيء الرهيب، مما يجعلك تشعر بالسمو. وبإعادة صياغة كلام كانط، الشخص الخائف لا يمكنه الحكم على السمو في الطبيعة، تمامًا مثل الشخص الذي يتضور جوعًا، فلا يمكنه الحكم على جمال تزيين الكعكة.

والآن تخيل أنك تشاهد بدء الانهيار الجليدي من شرفة كوخ قريب، وترى ألواح الثلج وهي تبدأ في الانزلاق، والظلال تتسابق من تحتها. إنك تشعر باهتزازات هدير الثلج وهو ينهمر على السفح، وتسمع صوت تحطم فروع الأشجار.

إنك تعرف أن الانهيار الجليدي لن يصل إليك، لكنك تعرف أيضًا أن به من القوة ما يدمرك.

هذا التعرض لقوى الطبيعة مخيف ومبهج، **فهذه** هي المسافة الصحيحة التي تبعد بينك وبين الانهيار الجليدي، فتنشأ مشاعر السمو.

فما الأشياء الرهيبة التي تسبب مشاعر السمو؟ يقول بيرك:

- الأفاعي
- الحيوانات السامة بكل أنواعها
- المحيطات
- الجبال
- أعماق الغابات الحالكة الظلام
- "وحشية البرية" التي في: الثور، والأسد، والنمر، والفهد، ووحيد القرن،
- والحصان الجامح
- والذئاب.
- أكوام الأحجار: "تلك الكتل الحجرية الخشنة الهائلة التي يتراكم بعضها فوق بعض على أطرافها".

- الكهوف
- الملوك والقادة وهيبتهم الرهيبة
- الظلام الحالك
- تقع الجبال والمحيطات بالطبع في مركز "جماليات اللامحدود" التي أثارها هنري مور.

أما في رأي بيرك، فإننا نقدّر البحار والجبال؛ لأنها تبدو لامحدودة، ولأن بها سموًا. فقد يبدو البحر الهادئ غير محدود، لكنه ليس مخيفًا ولا ساميًا، في حين أن البحر الهائج يمكن أن يكون ساميًا.

يرى بيرك أن كل الأشياء المرعبة قوية، فضلًا عن أن كل الأشياء **الشديدة** الرعب غامضة؛ ذلك لأننا، كما يرى بيرك، ما إن نعرف المدى النهائي لأي خطر، حتى يتبدد خوفنا. ولهذا السبب تكون الأشباح والعفاريت شديدة الرعب. ويقول بيرك: إنه ليس هناك شخص يدرك سر عِظم الأشياء المرعبة أفضل من ميلتون، ففي **الفردوس المفقود** يصف الموت على النحو الآتي:

كان الشَّكل الآخر
إن جاز أن يسمى شكلًا، إذ لا شكل له،
لا يتميز فيه: عضو، أو مفصل، أو طرف
بل لا مادة حتى أنه يمكن أن يسمى الظل الذي ظهر
فهو ظل الشَّكل وشكل الظل، يقف حالكًا كالليل
في شراسة عشر نساء حاقدات، مرعبًا كالجحيم
يهز سهمًا قاتلًا، ويضع فوق رأسه
شيئًا يبدو كتاجٍ ملكي
يثني بيرك على "العظمة الكئيبة" عند ميلتون، و"غموضه الحكيم".

يخلص بيرك إلى أن أفكارنا عن الجميل والسامي مختلفة إلى حدٍّ بعيد، فمصادر السامي قوية **دائمًا** وغامضة غالبًا، على عكس مصادر الجميل. الجميل مريح، بينما السامي طاغٍ.

تتأسس فكرتنا عن الجمال على المتعة، أما فكرتنا عن السامي، فتتأسس على الألم والخطر، وعلى عكس خبرتنا في الجمال، خبرتنا في السمو مختلطة، فهي تتضمن الرهبة والمتعة.

ومثلما يريد بعض النَّاس الذين يقرأون عن الجبال والبحار أن يروها بأنفسهم، يريد النَّاس الذين يقرأون عن السمو أن يروه بأنفسهم. زادت السّياحة الأوروبية إلى جبال الألب وسنودونيا، مثلما حدث في السّياحة الأمريكية إلى شلالات نياجرا والجبال البيضاء في نيو هامبشاير، ومنذ ستينيات القرن التاسع عشر، بدأت السّياحة إلى كهوف جينولان في أستراليا، وكهوف ويتومو في نيوزيلندا.

بدأ السمو يعرف طرقه إلى الفن.

يعرض الشَّكل 8-1 لوحة فيليب جيمس دي لوثربورغ **انهيار جليدي في جبال الألب** التي رسمها في عام 1803 التي تصف شخوصًا ضئيلة الحجم جوار شلال، وفي خلفيتها صخورٌ تظهر في الأفق.

يكتب بايرون عن المحيط في **رحلة تشايلد هارولد الطويلة** (1812-1818):

... مذ كنتُ صبيًّا
كنت أعبث بأمواجك التي تتكسر على الصخر كانت بالنسبة لي
متعة، وإذا كان البحر المنعش
قد جعلها مرعبة، ففي هذا الخوف متعة

استُخدم السمو ببراعة ليؤثر تأثيرًا كبيرًا في رواية ماري شيلي **فرانكنشتاين** (1818)، فإحدى الشخصيات، في الطريق إلى جنيف، تعبر بحيرةً بقارب:

خلال هذه الرحلة البحرية القصيرة، شاهدتُ البرق يتحرك فوق قمة الجبل الأسود بأجمل الأشكال، وكان يبدو أن العاصفة تقترب بسرعة، وعلى

الأرض، صعدتُ على تل منخفض؛ لأتمكن من ملاحظة قدومها، وتقدمت العاصفة، وملأت الغيوم السماء، وسرعان ما شعرت بالمطر ينزل ببطء بقطرات كبيرة، لكنه ازداد عنفًا بسرعة.

تركت مقعدي، وسرت بالرغم من أن الظلام والعاصفة كانا يزيدان في كل دقيقة، وكان الرعد يدوي بهزيم مخيف فوق رأسي، وكان صداه يسمع من: ساليف، والجوراس، وألب سافوي، وأبهرت عينيَ ومضات البرق الحية، وأضاءت البحيرة، فجعلتَها تبدو كأنها صفحة شاسعة من النيران، ثم بدا كل شيء لوهلة في ظلام دامس، ريثما تعافت العين من الوميض السابق... وحين كنت أشاهد العاصفة، رائعة الجمال والمخيفة في الوقت ذاته، كنتُ أتجول بخطوات سريعة، فقد رفعت هذه الحرب النبيلة في السماء معنوياتي.

عند كتابة **فرانكنشتاين**، استغلت شيلي رحلاتها القديمة عبر ألمانيا وسويسرا، وفي مرحلة لاحقة في حياتها، نشرت كتاب رحلات بعنوان: "**جولات في ألمانيا وإيطاليا في 1840، و1842، و1843**"، وكان يضم وصفًا لممر إشبلوغن في جبال الألب:

كان علينا أن نجتاز جبلًا موحشًا عبر طرقٍ متعرجة، كانت طويلة في البداية، لكنها كانت تتناقص كلما صعدنا، كان اليوم أيضًا كئيبًا، وكانت تغمرنا عاصفة ثلجية كلما اقتربنا من القمة، وكان الجبل يمتد حولنا مجردًا وساميًا، وثمة ضباب قاتم، وانفجارات تقشعر لها الأبدان، وقد زاد تساقط الثلوج عظمته[6].

لم يكن هذا في غير محله في رواية **فرانكنشتاين**.

---

(6) Shelley (1844: 59).

الشَّكل 8-1 لوحة دي لوثربورغ انهيار جليدي في جبال الألب

تبرُز الأفكار التي عن السمو في كتابات جون موير عن البرية، ففي كتابه **جبال كاليفورنيا** الذي نُشر عام 1894، يصف جبل ريتر بأنه "كتلة مهيبة" و"سامية"، ومسننة وصامدة في وجه الرياح، وأنهاره الجليدية "تنتصب" بقمم وذرا مسننة، وفتحات تتناثر فيها شجيرات الحزاز، ويصف كتاب موير **رحلات في ألاسكا** (1915) المحيط الهائج خلال رحلة بحرية:

> تأتي الأمواج المتكسرة من أعماق المحيط الهادئ (الباسيفيكي)، تدفعها الرياح، فتقدم عرضًا رائعًا بالزَّبد على صخور الجزر الصغيرة الجرداء، وتنثر رذاذها على بعض قممها بارتفاع مائة قدم أو أكثر في سمو، فتنحت حوافًا مسننة، وألواحًا بها أثر من وهج. يغلف السمو والصفاء حركات هذه الأمواج العالية التي يشوبها اللون الأرجواني، عندما تتلاطم وتتكسر. يُظهر تكسُّر الأمواج حركة رشيقة جميلة، ويشكّل معها قوة هائلة[7].

اتخذت فكرة السمو طريقها إلى أماكن غير متوقعة أيضًا، ففي عام 1824، وصفت **مجلة ميكانيكا غلاسكو وحوليات الفلسفة** أشياء عديدة بأنها سامية، منها: الفلك، وهسهسة الشفق، والجسور المعلقة. وفي رحلاته على متن سفن أسطول البيغل من عام 1831-1836، كتب داروين أن أسمى شيء رآه كان "الغابات البدائية التي لم تمسسها أيدي البشر"، ومن بينها غابات البرازيل، "حيث تسود قوى الحياة"، وغابات "تييرا ديل فويغو في الأرجنتين، "حيث يسود الموت والتحلل"[8]. ينتقي الفلاسفة نوعًا محددًا من الخبرة، ويضعون له عنوان: "السامي"، فيجد النَّاس ما يتوافر فيه السمو في العالم.

إننا لا نستخدم كلمة "سمو" كثيرًا الآن، فهل يعني ذلك أن خبرات النَّاس السامية قلّت؟

لا أعتقد ذلك، فكثيرٌ من النَّاس يسعون إلى الشعور بالرهبة والرعب، ولا

---

(7) Muir (1915: 273).

(8) Darwin (2008: 506).

سيما في السَّفر، وفي نظر البعض، هذا هو الدافع الذي يكمن وراء زيارة الكهوف، والغوص الليلي، وتسلق الجبال.

يصف آلان دي بوتون رحلة إلى صحراء سيناء، حيث يجد أماكن روحانية سامية، فيقول: إن الأماكن السامية تردد على نطاق واسع درسًا تقدمه الحياة اليومية عادةً بعنف، هذا الدرس هو أن الكون أقوى منا، وأننا ضعفاء وفانون، ولابد أن نتقبل القصور بإرادتنا، وننحني أمام الضرورات الأكبر منا، ويكتب دي بوتون أن هذا هو الدرس المكتوب على أحجار الصحارى وعلى حقول الجليد القطبية، مع ذلك، فهو مكتوب هناك بشكل رائع لدرجة أننا قد نبتعد عن هذه الأماكن "لكيلا ندهسها، ولكننا نستلهم ما يكمن وراءها"[9]. وكان بيرك سيتفق معه في ذلك.

مع ذلك، فإن القرن الحادي والعشرين عالم مختلف تمامًا عن عالم بيرك: الصحارى، والكهوف، والمنحدرات الصخرية، فهل يمكننا أن نتجاوز مصادر السمو التقليدية؟

نعم يمكننا، فالغوص مع أسماك القرش حركة رائجة على شواطئ: جنوب إفريقيا، والمكسيك، وأستراليا.

إذ ينزل السّياح تحت الماء في أقفاص حديدية، ويستخدمون أسماك السردين لجذب أسماك القرش، وبذلك يشاهد السّياح أسماك القرش وهي تلتهم طعامها قُربهم، ويرون حلْقها الوردي وأسنانها الحادة، لم يضع بيرك أسماك القرش ضمن "البرية المتوحشة"، لكنه كان يمكن أن يضعها. واستكمالًا للموضوعات المتعلقة بالمياه، يوجد عند شلالات فيكتوريا من جهة زامبيا تكوين صخري طبيعي يُسمى: "مسبح الشيطان". يمكن للسباحين، في أوقات محددة من العام، أن يجثموا فيه، على بعد بضعة أقدام فقط من منحدر النهر، فيمكنك أن تشعر بالرذاذ من مسافة قريبة آمنة.

---

(9) De Botton (2003: 169).

يشهد زقاق تورنادو [حزام الأعاصير] الذي يمتد عبر: تكساس، وأوكلاهوما، وكنساس، ونبراسكا، تدفقًا في السّياحة، فيجوب سياح الأعاصير الولايات راكبين مع "الباحثين عن العواصف"، وشركات السّياحة سعيًا وراء الأعاصير، وتتمكن من أن تشاهد عن كثب تفرع البرق والرياح التي تعوي متخذةً شكل القمع.

صور العاصفة مذهلة، لكن الباحثين عنها ماتوا في سبيلها، ويعلن موقع إحدى شركات سياحة الأعاصير، شركة سيلفر لينينغ للسياحة، بكل فخر أن باقاتها السّياحية تقدم قمصانًا تائية [تي شيرت] هدية.

ثار الجدل طويلًا بين المفكرين حول إمكانية أن يصنع البشر أشياء سامية، ويضع بيرك في قائمته آثار العصر الحجري، ووجدت شيلي السمو في الأبراج التي تعلو التلال، والجدران المهدمة، وأطلال القلاع، حين كانت تنحدر إلى أسفل نهر الراين، ويرى أحد المؤرخين أن التكنولوجيا يمكن أن تكون أحد مصادر السمو، كأن تكون أعجوبة هندسية، مثل: جسر بروكلين، وسد هوفر[10].

ويقول أحد الفلاسفة: إن ناطحات السحاب، مثل: برج خليفة في دبي، أو شجرة السماء في طوكيو شاهقة ومتينة بدرجة تجعلها سامية. "تطغى ناطحات السحاب بارتفاعها الشاهق"، فيتملكنا شعور بالضعف الجسدي حين نتخيل تسلقها، أو السقوط من ارتفاعها الهائل[11].

وبالرغم من أن للسدود وناطحات السحاب حضورًا طاغيًا، لا أظن أن بيرك كان سيعدها سامية، فقد كان يعتقد أن المباني يمكن أن تكون فخمة وليست سامية، وأنا أتصور أن ذلك بسبب أن المباني ليست مخيفة كما ينبغي، والأهرامات وناطحات السحاب هائلة الحجم لكنها، على عكس أسماك القرش

(10) Nye (1994).

(11) Brady (2013: 119; 142-7).

أو الأعاصير، ليست لها قوة حاضرة تدمرنا بها، فلماذا إذًا تولّد أطلال المباني مشاعر السمو عند ماري شيلي؟ ليس لأن المباني قوية في حد ذاتها، وإنما لأنها تصور قوة الزمن التدميرية.

فهل ثَمَة شيء صنعه الإنسان يسبب الرهبة، كما يجب أن تكون، فيقبله بيرك بوصفه شيئًا ساميًا؟ ربما. خذ تكنولوجيتنا النووية على سبيل المثال، فقد شهد عام 1986 كارثة تشرنوبل، وانفجار في مفاعل تشرنوبل للطاقة النووية في أوكرانيا. فتسربت نتيجة الانفجار أكثر من أربعمائة ضعف الإشعاعات التي تسربت في هيروشيما، فقتلت عددًا كبيرًا من النَّاس بسرعة وببطء، وعانى جيرانها في روسيا البيضاء [بيلاروسيا]: الأمطار السامة، وتلف المحاصيل، وتشوه الحيوانات.

وقد تأثرت به أيضًا الدول: الإسكندنافية، وسويسرا، واليونان، وإيطاليا، وفرنسا، والمملكة المتحدة. وكما يقول أحد الصحفيين: أرسل العصر النووي دجاجه المشوه ليعيش في البيت[12].

والغريب أن السّياحة زادت في أنحاء الكوكب منذ ذلك الحين، إذ يستكشفه أكثر من 10000 سائحًا كل عام، ويذكر إعلان موقع للسياحة في تشرنوبل أنها تضمن "**للسياح الأمان التام من الإشعاع**".

ويقترح اثنان من علماء الاجتماع النظر إلى تشرنوبل بوصفها "كارثة سامية". ويربطان السمو بوصف سياح قضوا وقتًا في محيط تشرنوبل، تحول "شعورهم بالإثارة الممتعة" إلى "شعور بالاستغراق" في المشهد[13].

تشرنوبل تثير الرعب، وتلك الكارثة كانت مجرد حادثة. واحتمال نشوب حرب نووية شاملة أمر تقشعر له الأبدان، وقد صنع البشر تكنولوجيا قادرة على تدميرهم، مع أخذ كتل كبيرة من الكوكب معها. والمؤكد أن التكنولوجيا النووية

---

(12) http://www.telegraph.co.uk/travel/destinations/europe/ukraine/articles/how-can-i-visit-chernobyl-ad-is-it-safe/.

(13) Goatcher & Brunsden (2011).

بها من القوة ما يجعلها سامية. لكن لا توجد حرب نووية، بل إن الدبلوماسية الدولية حريصة على ألا تنفجر قنبلة نووية أخرى أبدًا، وتتيح تشرنوبل أن يشعر السّياح بقوة الطاقة النووية، ومشاهدة أثر أنيابها على المباني، وهم مطمئنون بمعرفة **أنهم** على الأرجح آمنون.

هل توجد أي مصادر أخرى للسمو؟

بكل تأكيد. يشير بيرك إلى أشياء بالغة الصغر، ومنها ما يبدو صور مجهرية. ويقول بيرك: إننا حين نتتبع حياة حيوانات "متناهية الصغر"، أي: كائنات لا تدركها حواسنا، فإننا نتتبع "نطاق وجود يتضاءل". فيعترينا "الذهول والحيرة" أمام هذه العجائب الدقيقة، هل حدث أن درستَ قطرة من بركة ماء تحت المجهر؟ تخيل أنك تفعل ذلك لأول مرة، وشاهد كيف تتحلل تلك النقطة الزرقاء إلى مخلوقات متحركة. إن وجود العالم المجهري صادم، وربما يثير الفزع. في القرن الحادي والعشرين، يرى تيموثي مورتون الأمر من الجهة الأخرى، فيشير إلى الأشياء العملاقة، يقول مورتون: إن الأشياء "مفرطة الضخامة" و"الموزعة على نطاق واسع في الزمان والمكان" يمكن أن تكون سامية. فكر في الثقوب السوداء، على سبيل المثال، وقدرتها على امتصاص أي شيء، حتى الضوء[14].

يشيع في قصص الخيال العلمي تخيل السمو المستقبلي، فإن كانت نجوم الموت حقيقية، وكان بوسعنا دراستها من مسافة آمنة، فلعل ذلك يثير رعبًا ممتعًا، ففي فيلم **الوصول** *Arrival* الذي أنتج مؤخرًا في عام 2016، تظهر الكائنات الفضائية في شكل أخطبوط عملاق، ويتواصل الباحثون مع الكائنات الفضائية بفزع ورهبة.

وما من شك في أن مخرج الفيلم قد قرأ بيرك، فهو يستخدم الغموض لزيادة الرعب، ويخفي أشكال الكائنات الفضائية خلف تراكمات الغاز.

---

(14) Morton (2013: 1).

وفي المستقبل، ربما يزداد تطور سياحة الغواصات، فتأخذنا إلى الأخاديد في أعماق البحر أو البراكين. ولعل السفن الفضائية تقربنا من المذنبات، أو عواصف كوكب المشتري القاذفة. بل لعلها تقربنا أيضًا، ولكن ليس قربًا شديدًا من الثقوب السوداء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

BOOKS

FOR TRAVELERS.

American Publishing Co.,

HARTFORD, CONN.

Publishers of MARK TWAIN'S Works:

"INNOCENTS ABROAD," "TRAMP ABROAD," AND OTHERS.

JOSIAH ALLEN'S WIFE'S Books:

"BETSEY BOBBETT," "MY WAYWARD PARD NER," ETC.

BOOKS OF TRAVEL IN VARIOUS COUNTRIES, MAKING VALUABLE GUIDE BOOKS,

By THOS. W. KNOX, BRET HARTE, and other Popular Authors.

Send for Catalogue.

Books sent to any part of the World on receipt of price.

Address,

AMERICAN PUBLISHING COMPANY,

Agents Wanted. HARTFORD, CONN.

كتبٌ

للرحالة

دار النشر الأمريكية

هارتفورد، كونتيكت

ناشر مؤلفات مارك توين:

"الأبرياء في الخارج"، "المتشردون في الخارج"

وغيرها

وكتب زوجة يوشيا ألين

"بيتسي بوبيت" و"رفيقي المتقلب"

وغيرها

وكتب الرحلات في شتى البلدان

ننشر كتب إرشاد قيمة

لتوماس دبليو. نوكس، بريت هارت

ولمشاهير المؤلفين

اطلب الدليل المصور

يصلك حيثما كنت في أنحاء العالم مع إيصال بالسعر

العنوان: دار النشر الأمريكية

هارتفورد، كونتيكت

مطلوب وكلاء

9

فلسفة البراري، هنري ثورو
وصور الأكواخ المُغْرية
أريد أن أعيش في كوخ

تخيل كوخًا من خشبٍ طبيعي متواريًا في الغابة أو يطل على بحيرة. له سقف جملون تحته نوافذ عريضة، لها زجاج يعكس الأشجار المحيطة. ويتكوم حطب الأشجار بجوار الباب، ويتصاعد الدخان لولبيًّا من المدخنة.

كانت هذه الصّورة الخيالية تجول بخاطري كثيرًا وأنا في ألاسكا، وفي آخر يوم في رحلتي، وتسلل الندم إلى نفسي؛ لأن هذا لم يحدث، ففي فيربانكس كنت أرى في كل مكان مستطيلات مرسومة بالألوان ترفرف كُتب عليها: "كوخ للإيجار"، أو معلقة في لوحة الإعلانات في محال البقالة، أو ملصقة على النوافذ، أو مطوية جوار آلات المحاسبة، فأين المشكلة؟ كنا في شهر نيسان، فأي كوخ كنت سأستأجره سيكون صندوقًا من الثلج، وكانت الأكواخ الفاخرة ذات العزل المناسب والتدفئة تفوق ميزانيتي. ابتعدت عن الإعلانات، واكتفيت بفكرة الكوخ بدلًا من الإصابة بالبرد في الواقع داخل سقيفة جذابة المنظر. أنفقت معظم اليوم في الكتابة في المقاهي وشراء بطاقات بريدية مبتذلة: "ألاسكا، حيث ترصف الشوارع بالطين".

لم أكن وحدي المعجبة بالأكواخ.

افتح موقع https://cabinporn.com على سبيل المثال: أو إن كنتَ أكثر جرأة ابحث على جوجل عن صور "دليل الأكواخ المصوّر".

لا تعرض الصّور أي شيء غريب في الأكواخ الخشبية، وإنما فقط الأكواخ

الخشبية نفسها. وهي عادة ليست مرتفعة، ويبدو عليها تأثير عوامل الطقس، مجرد منزل ريفي بين: التلال، أو البحيرات، أو حقول الجليد. يتخذ بعضها شكل صناديق ضخمة، وبعضها مثل القباب الطبيعية المنحدرة، ويبرز بينها واحد له سقف من قارب مقلوب. وقد تمنيتها جميعًا، ولا ألوم على ذلك إلا رجلًا واحدًا: هنري ديفيد ثورو.

إن كلمة 'wilderness' (برية) تأتي من كلمة *wildçornes* بالإنكليزية القديمة، وهي مركبة من كلمتين *Wilde dçor* التي تترجم إلى: "حيوان غير مُروّض" 'wild beast'، وبهذا تكون "البرية" هي الأرض التي لا تسكنها إلا الحيوانات غير المُروّضة. (ولا زالت الكلمة الإنكليزية القديمة *dçor* باقية في كلمة 'deer' [غزالة]، لكننا اليوم لا نستخدمها إلا للدلالة على الرنة reindeer أو اليحمور roe deer. لكنها كانت تُستخدم قديمًا للدلالة على عددٍ من الحيوانات).

في كثير من الأحيان يتعامل البشر مع البرية بطريقة سيئة، إذ يبني كثير من الشعوب منازل، ويقطعون الأشجار، ويزرعون الحقول، ويروضون الحيوانات. وهذه الأشياء تحول البرية إلى مكان غير بري.

وفي أوروبا العصور الوسطى، كان وجود البراري مهددًا، فقد كانت الكنيسة ترى ضرورة السيطرة على المناطق البرية، وكثيرًا ما كانت تضع لذلك مررًا من الكتاب المقدس، مثل:

> "وباركهم الله وقال لهم: أثمروا، وأكثروا، واملأوا الأرض، وأخضعوها، وتسلطوا على: سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض". (سفر التكوين 1: 28).

كانت الوثنية، بعبادتها الطبيعة والأحجار المقدسة، عدوًا للمسيحية. وبتعبير أحد المؤرخين: "الغابات دمرها الرهبان الذين يستخدمون الفؤوس"[1].

---

(1) Oelschlaeger (1991: 72).

في أوروبا القرن السادس عشر، تخلت الكنيسة عن نفوذها إلى السلطة الحكومية. وعلى نحو مطّرد، كانت الدول تنظر إلى المناظر الطبيعية بوصفها موارد اقتصادية يجب استثمارها، فتحسنت أساليب الزراعة، وتواصلت إزالة الغابات، ولم تكن بيد الفلسفة حيلة. عد فرانسيس بيكون الطبيعة موضوعًا للبحث العلمي، يجب قياسه وجمع البيانات له، وتصور ديكارت العالم آلة، نباته وحيواناته تروس غريبة الشَّكل. وبعد نيوتن، تصور النَّاس الكون كله كأنه ساعة.

استغرق الأمر زمنًا طويلًا حتى نشأت توجهات أشد إيجابية نحو البرية في الفكر الغربي، كان لأعمال هنري مور وإدموند بيرك دورٌ في هذا التغير، وكانت الأماكن الطبيعية التي تبدو لانهائية، ومصادر للسمو، هي البرية. فالجبال، والمحيطات، والغابات، ومساقط المياه، والكهوف غنية بالنباتات والحيوانات.

وقد نهلت من تقدير الطبيعة الذي اكتشف حديثًا حركةٌ فلسفيةٌ نشأت في القرن التاسع عشر، واشتهرت باسم [الفلسفة] "الأمريكية المتجاوزة". وكان اسمها صعب النطق وصعب الكتابة، وكأنه مستقى من طبق حساء مليء بالحروف الأبجدية تبجيلًا لـ: أفلاطون، وكانط، وصامويل تايلور كوليريدج، وكانت هذه الحركة تسعى إلى فهم علاقتنا بالطبيعة.

كان فيلسوف ولاية ماساتشوستس رالف والدو إيمرسون **نموذج** المتجاوز الأمريكي، وذاعت شهرته بكتابه **الطبيعة** الذي نشر عام 1836[2]. الذي استهله بالآتي:

> لكي ينعزل المرء عليه أن يتخلى عن غرفته وكذلك عن مجتمعه، فلن أكون منعزلًا بينما أقرأ أو أكتب، بالرغم من عدم وجود أي شخص معي، لكن إن كان المرء يرغب في أن يكون وحيدًا، فلينظر إلى النجوم.
> إن الأشعة التي تصدر عن هذه العوالم السماوية ستفصل بينه وبين الأشياء

(2) أقتبسُ من كتاب nature طبعة 1836.

المبتذلة، وليتصور المرء أن الجو خلق بهذا التصميم الشفاف، ليمنح الإنسان، عبر الأجرام السماوية، حضور السمو الدائم.

يرى إيمرسون أن النَّاس يشتتها المجتمع من حولهم، وأنهم كانوا سيفهمون العالم بشكل أفضل إذا قضوا وقتًا مع الطبيعة منفردين، ويقول: إنك إن **ترى** الطبيعة حقًا، فستُسر بذلك سرورًا عظيمًا:

وسط الطبيعة، تغمر الإنسان بهجة شديدة... حين أسير في مكان عادي، في برك الثلج، عند الشفق، تحت سماء تكسوها السحب، من دون أن أتوقع أن تهبط عليّ ثروة ضخمة، أكون قد استمتعت بأقصى بهجة.

يجد إيمرسون بهجة في "العلاقة الغامضة بين البشر والنبات: فالحقول والغابات "تومئ لي وأنا أومئ لها". ولا يوجد فرق بين الطبيعة ووعي البشر، ولعل لهذه الأفكار تأثير كبير في تلميذه ثورو.

وُلِد هنري ديفيد ثورو في كونكورد، ماساتشوستس، ولم يبتعد عنها قط، وبعد الدراسة في هارفارد، عاد إلى كونكورد في عام 1837. وهناك صار صديقًا لإيمرسون. في ذلك الحين، كان إيمرسون قد بلغ أوج نضجه الفكري، إذ كان قد كتب معظم أعماله المؤثرة ونشرها، وكان ثورو قد قرأ كتاب إيمرسون **الطبيعة** في أثناء وجوده في هارفارد، وكان يُكنُّ تقديرًا للرجل الأكبر سنًا. وتحدث إيمرسون في يومياته عن ثورو بإعجاب شديد: "إنني سعيد للغاية بصديقي الشاب الذي يبدو أن له ذهنًا حرًّا ومتقدًا لم أقابل مثيلًا له من قبل".

أثارت ثورو أفكارُ إيمرسون.

كان إيمرسون متعلقًا بالبرية، فكان كثيرًا ما يترك بيته في المدينة ليتمشى وسط الطبيعة. أما ثورو الذي كان أشد صلابة، فقد فعل ما هو أشد من ذلك، إذ سافر إلى براري نيوإنجلاند، وكان من حين لآخر يذهب إلى كندا مغامرًا. وقد سافر في جولات مضنية، وركب القوارب، وتسلق الجبال. ووصف هذه النزهات في مقالات بعنوان: "نزهة شتائية" أو "نزهة إلى واشوست". وفي آخر

المطاف، قرر ثورو أن السَّفر عبر البراري لا يكفي، وإنما لابد أن **يعيش** فيها. لم يتفق معه إيمرسون، فكتب في يومياته: "خُلقت الضفدعة لتعيش في مستنقع، لكن الإنسان لم يُخلق ليعيش في مستنقع". ويشكو ثورو، بدوره، في يومياته: "أشك أن إيمرسون كان يستطيع دفع عربةِ حقلٍ عبر الشوارع؛ لأن ذلك يناقض طبعه".

مع ذلك اتجه ثورو إلى البراري، ففي عام 1845، سافر ثورو وحده إلى الغابة، وبنى كوخًا يطل على بحيرة اشتهرت باسم بِركة والدن، كان ثورو يطبق فلسفة إيمرسون، ويسعى إلى الفهم عن طريق قضاء الوقت بمفرده مع الطبيعة.

كان ثورو يريد أن يكون كاتبًا وفيلسوف طبيعة في الوقت نفسه، وكان يسجل ملاحظاته خلال تجربة البراري، وفي النهاية نشرها بعنوان: **والدن، أو الحياة في الغابة** (انظر الشَّكل 9-1)[3].

قضى ثورو ستة وعشرين شهرًا في كوخه، لكن كتاب **والدن** أوجز هذا في عام واحد، ويُستهل الكتاب بالآتي:

> حين كتبت الصفحات التالية، أو بالأحرى معظمها، كنت أعيش وحيدًا في الغابة، بعيدًا عن أي جار بنحو ميل، في بيت بنيته بنفسي، على ضفة بركة والدن، في كونكورد، ماساتشوستس، وكنت أكسب قوتي من عمل يدي وحسب. عشت هناك عامين وشهرين، أما الآن، فأنا نزيل مؤقت في الحياة المتحضرة مرة أخرى.

يقدم الكتاب نفسه بوصفه نوعًا من اليوميات، ويوثق بناء ثورو الكوخ، وصيد السمك، والتنزه، وعلى المستوى الأعمق **والدن** عمل فلسفي، فهو يقدم أفكارًا عن كيف نعيش ولماذا.

يُستهل **والدن** بفصل طويل عنوانه "الاقتصاد"، وهو عن القوى الاقتصادية

---

(3) اقتبس من Walden طبعة 2004.

التي تحكم حياتنا. ويحتوي واحد من أشهر أقوال ثورو المأثورة: "جموع الرجال يعيشون حياة اليأس الهادئ". ويبحث ثورو عن بديل لليأس الهادئ. وحله بسيط حياة الروّاد.

يشرح ثورو أن كوخه تكلف 28 دولارًا، ويفصّل نفقاته في محاكاة ساخرة للأعمال التجارية، ويصف كيف بنى كوخه، ثم شكله النهائي، وانتهى به الأمر إلى منزلٍ "محْكَمٍ" من ألواحٍ خشبية يكسوها الجص، يبلغ عرضه عشرة أقدام وطوله خمسة عشر قدمًا، به: عليّة وخزانة، ونافذة عريضة على كل جانب، وبابان سحريان، وباب على الطرف، وقُبالته مدفأة مبنية من الطوب، ويختتم ثورو كلامه قائلًا: "وهكذا وجدت أن الطالب الذي يرغب في مأوى يمكن أن يحصل على واحد يعيش فيه طوال حياته بتكلفة لن تزيد كثيرًا عن الإيجار الذي يدفعه سنويًّا حاليًّا".

والدن

أو

الحياة في الغابة

تأليف

هنري د. ثورو

مؤلف "أسبوع في الكونكورد وأنهار ميريماك"

لم يكن قصدي أن أكتب أغنية للكآبة، وإنما لأتفاخر بنفس حماس الديك الذي يقف فوق مجثمه في الصباح، لا لشيء إلا لإيقاظ جيراني. ص 92.

بوسطن:

تكنور وفيلدز

1854

WALDEN;

OR,

LIFE IN THE WOODS.

By HENRY D. THOREAU,

AUTHOR OF "A WEEK ON THE CONCORD AND MERRIMACK RIVERS."

I do not propose to write an ode to dejection, but to brag as lustily as chanticleer in the morning, standing on his roost, if only to wake my neighbors up. — Page 92.

BOSTON:

TICKNOR AND FIELDS.

M DCCC LIV.

الشَّكل 9-1 صفحة غلاف والدن

ألواح	$8,03 1/2
ألواح خشبية مستعملة للسقف والجدران	$4,00
شرائح خشبية	$1,25
نافذتان مستعملتان بالزجاج	$2,43
ألف قالب طوب قديم	$4,00
برميلان من الجير	$2,40
نسيج من الوبر	$0,31
عارضة من الحديد [لحمل حطب المدفأة]	$0,15
مسامير	$3,90
مفصلات وبراغٍ	$0,14
مزلاج	$0,10
طباشير	$0,01
مصاريف النقل	$1,40
المجموع	$28,12 1/2

ثورو: **والدن**، 1854

ثمة شيءٌ من العجرفة يستحق أن نتوقف عنده. يفخر ثورو بحق بحياته في أرض الغابة، لكن يبدو أنه يفترض أن هذه الحياة متاحة لأي إنسان، وهذا ليس صحيحًا.

عاش ثورو حياة البساطة والزهد، لكنه بنى كوخه على أرض **إيمرسون**، وقليل من النَّاس مَن له أصدقاء بهذا الثراء والسخاء، ويضيف ثورو لاحقًا أنه استطاع الحفاظ على نفسه لعامٍ كامل بالعمل بيديه مدة "ستة أسابيع" فقط، قد يكون هذا صحيحًا، لكن ينبغي ألا نستهين بالمزايا التي بدأ منها ثورو.

يؤدي بنا فصل "الاقتصاد" إلى الفصل التالي، وهو بعنوان: "أين عشتُ؟ وما الذي عشتُ من أجله؟". ويشرح ثورو قائلًا:

ذهبت إلى الغابة؛ لأنني كنت أتمنى أن أعيش بتروٍّ، وألا يكون أمامي إلا

حقائق الحياة الأساسية، وأن أرى إن كنت أستطيع أن أتعلم ما يجب أن أتعلمه، وألا أكتشف عند الموت أنني لم أعش... كنت أريد أن أعيش بعمق وأمتص كل نخاع الحياة، وأن أعيش بثباتٍ حياةً جسورة أهزم فيها كل ما ليس من الحياة.

أراد ثورو أن يعيش على أكمل وجه، وحاول التخلص من كل ما قد ينتقص من هذا، وكان ثورو، مثل إيمرسون، يظن أن المجتمع يمكن أن يكون إلهاء عن ذلك.

وبينما نمضي في فصول الكتاب، نرسم صورة للحياة في بركة والدن. يجمع ثورو الحطب، ويغتسل، ويعزق الأرض، ويتنزه، ويقرأ. وخلال أول صيف، كان يضع **إلياذة** هوميروس على طاولته. كان ثورو يشاهد حياة الغابة من حوله: الفئران، والسناجب، والطيور. وفي فصل بعنوان: "القوانين العليا"، يفكر ثورو في فضائل الغذاء النباتي، ويقول "لا يمكنني أن أصيد سمكًا دون أن أشعر ببعض تقدير الذات". وفي بعض الأحيان لا يفعل ثورو أي شيء، فهو يصف الأيام التي "كنتُ أجلس فيها في الشَّمس عند باب كوخي منذ شروق الشَّمس إلى الظهيرة، مستغرقًا في أحلام اليقظة، وسط أشجار: الصنوبر، والجوز، والسماق".

أحبُّ الفقرات إليّ في كتاب **والدن** تلك التي يصف فيها ما حوله بتفاصيل دقيقة، فها هي بركة والدن في مطلع الشتاء:

كانت البركة في ذلك الوقت تعلوها طبقة ثلجية رقيقة في أكثر الخلجان ظلًّا وضحالة، وذلك قبل أيام، وربما أسابيع من التجمد العام، وبشائر الجليد تحديدًا رائعة ومتميزة؛ لأنها صلبة، داكنة وشفافة... فإذا فحصتها عن كثب في الصباح التالي لتجمدها، ستجد أنَّ الجزء الأكبر من الفقاعات التي تبدو للوهلة الأولى كأنها داخلها، تكون تحت سطحه السفلي، وأن المزيد منها يتصاعد باستمرار من تحتها، في حين أن الجليد لمَّا يصبح بعد صلبًا وقاتمًا نسبيًّا، أي: إنك ترى الماء من خلاله،

ويتراوح قُطر هذه الفقاعات من ثمانين إلى ثُمن بوصة، وهي صافية تمامًا وجميلة، وترى وجهك منعكسًا عليها عبر الجليد، وقد يوجد ما بين ثلاثين إلى أربعين فقاعة في البوصة المربعة، كذلك يوجد داخل الجليد فقاعات عمودية نحيلة مستطيلة يبلغ طولها نحو نصف البوصة، وأخرى مخروطية حادة يتجه رأسها إلى أعلى، وفي أغلب الأحيان، إذا كان الجليد جديدًا تمامًا، ترى فقاعات كروية دقيقة الواحدة فوق الأخرى تمامًا، كأنها عُقد من الخرز.

يمكنني تخيل ثورو ممددًا على الأرض عند الجليد، يُدوّن ملاحظاته وهو يتفحص بدقة فقاعات الهواء المتجمدة.

يصف كتاب **والدن** تفاعلات مختلفة بين ثورو والنَّاس، فالزوار يأتون إلى بركة والدن، ويذهب ثورو إلى كونكورد. مع ذلك، فإن أحد موضوعات الكتاب الأساسية هي الوحدة، يُفتتح فصل عنوانه "العزلة" كما يلي:

هذه أمسية طيبة، حين يصير الجسد كله حاسة واحدة، فيتشرب البهجة من كل المسام، أغدو وأروح في الطبيعة بحرية غريبة، وكأنني جزء منها. وحين أسير محاذاة ضفة البركة الصخري بقميص بدون سترة، بالرغم من أن الطقس: بارد، وغائم، وعاصف، ولا أرى شيئًا محددًا يجذب اهتمامي، تكون تفاصيل كل عناصر الطبيعة بالنسبة لي لطيفة بشكلٍ غير عادي. تتقدم الضفادع الكبيرة لتعلن دخول الليل، وتحمل الرياح المتموجة من فوق الماء تغريد طيور ويبورويل*.

إن الانسجام مع رفرفة أوراق أشجار الألدر والحور، تكاد تسحر عقلي، مع ذلك، فإن سكوني هادئ، مثل البحيرة، وليس مضطربًا. ترتفع هذه الموجات الصغيرة مع قدوم رياح المساء، وهي تبعد عن العاصفة مثل السطح العاكس الأملس. وبالرغم من حلول الظلام الآن، مازالت رياح

(*) whip-poor-will طائر من شرق أمريكا الشّمالية ينشط ليلًا، وله نداء صاخب يشبه اسمه. (المترجمة).

العقل تهب فيزأر العقل في الغابة، ومازالت الأمواج تنطلق، وبعض المخلوقات تهدئ البقية بتغريدها. ولا يصير السكون تامًا أبدًا، فبعض أشد الحيوانات شراسة لا ترقد، بل تبحث عن فريستها الآن فـ: الثعلب، والظربان، والأرنب يتجولون الآن في الحقول والغابة بلا خوف.

إنهم حراس الطبيعة الحلقات التي تربط بين أيام الحياة المفعمة بالحيوية.

العزلة هي الموضوع الأساسي في **والدن**. فما هي تحديدًا؟

فيليب كوش فيلسوف العزلة، وهو يناقش هذا المقطع تحديدًا عند ثورو. يرى كوش أن هناك ثلاث سمات في أمسية ثورو تحقق العزلة:

الأولى: العزلة الجسدية، إذ إن ثورو جسديًّا عند البركة وحده، لا يوجد بشر داخل نطاق استشعار جسده.

والثانية: عدم وجود مشاركة اجتماعية، أي: إن ثورو عمليًّا لا يشارك غيره من البشر، فهو لا يرى أحدًا في الجوار، ولا يبحث عن أحد، ولا يختبئ من أحد، ولا يشتاق إلى أي أحد، ولا يتذكر أي أحد، فذهنه ممتلئ بمحيطه، هذا المحيط الذي يخلو من البشر.

والثالثة: التأمل، فبالرغم من أن أغلب المقطع يصف حالة استغراق في مشاهد المساء وأصواته، فإن السطر الأخير يشير إلى بُعد تأملي، فيفكر ثورو في الرموز، من قبيل "حراس الطبيعة" و"ترتبط في سلسلة"[4].

وبالرغم من أن هذه السمات الثلاث كلها حاضرة في تجربة ثورو عند البركة، فإن كوش لا يعتقد أن المرء يحتاجها كلها ليكون في عزلة، على سبيل المثال: يرى كوش أنك تستطيع أن تنعزل حتى وسط النَّاس: "فالطالب المجتهد حقًّا في إحدى قاعات جامعة كامبريدج التي تشبه خلايا النحل، يكون منعزلًا كدرويش في الصحراء".

---

(4) Koch (1994: 13-4).

لطالما امتدح الفلاسفة العزلة؛ فيصرّح مونتان في **المقالات** بأن "أعظم شيء في الوجود بالنسبة للإنسان أن يعرف أنه يملك نفسه". وبعده بقرنين، كتب روسو حين كان يسير وحيدًا: "إنني نفسي ولنفسي تمامًا"، فلماذا العزلة مهمة إلى هذا الحد في **والدن؟**

يجيب ثورو بأن ذلك؛ لأنه حين يقضي وقتًا مع الطبيعة بمفرده، يشعر أنه يتوحد معها:

> أغدو وأروح في الطبيعة بحريّة غريبة، وكأنني جزء منها... فبراءة الطبيعة التي لا توصف وإحسانها ـ الشَّمس، والرياح، والمطر ـ صيفًا وشتاءً ـ تمنحنا هذه الصحة وهذه البهجة إلى الأبد، وهذا العطف الذي تشمل به جنسنا طوال الوقت... أفلا أفهم الأرض؟ ألست أنا نفسي أشبه أوراق النبات وعفنها؟

يرى ثورو أننا جميعًا نشبه العفن النباتي*.

وكما يشير أحد دارسي ثورو، العزلة مطلوبة لمعرفة الطبيعة؛ لأننا لكي نعرف الطبيعة لابد أن نوليها اهتمامنا، لابد أن نستمع إليها وننتبه لها. وهذا لا يتأتى إلا حين نكون وحدنا. فعندما نكون مع النَّاس، نهتم بهم، ونرعاهم، ونتحدث معهم. أما في العزلة، فيكون بوسعنا أن نغرق في حواسنا، وأن ندقق في: الروائح، والمشاهد، والأصوات[5]. حالما كان ثورو وحده، استطاع أن يستثمر وقته في دراسة روح بركة والدن، واستطاع أن يلاحظ حركات طائر حجل الخشب المتوج، وحركة الفقاعات في الجليد.

يتفق إيمرسون وثورو على أنَّ البشر يمكن أن يفهموا العالم على نحو

(*) طبقة من جزيئات التربة ذات اللون الداكن وشكلها موحّد رائع وتغطي سطح الأرض في المناخات المعتدلة الرطوبة. ويمكن أن تصل هذه الطبقة من العفن، المعروفة باسم التربة الدبالية أو التربة السمراء، إلى عمق 40 سم أو أكثر داخل التربة. (المترجمة)

(5) Cafaro (2004: 111-4).

أفضل إذا فهموا الطبيعة، لكنهما يختلفان حول أي جزء من العالم يمكن أن يوضح ذلك، فيقول إيمرسون في كلمةٍ ألقاها في عام 1837 بعنوان "الباحث الأمريكي": إنَّ الطبيعة أهم مصدر تعلم للباحث؛ ذلك لأن "الطبيعة تقابل الروح، وترد عليها جزءًا بجزء"، فجمال الطبيعة هو جمال عقل الباحث، وقوانين الطبيعة هي قوانين عقله.

ويرى إيمرسون أن مبدأ: "اعرف نفسك"، ومبدأ: "ادرس الطبيعة" مبدأ واحد، ويقول: إن معرفة الطبيعة تجعلنا نعرف نفوسنا، وفي آخر المطاف، ستُظهر لنا هذه المعرفة موارد الطبيعة وموارد أنفسنا الكامنة، أي: الرب كما يفهمه المسيحيون، ويقول إيمرسون في كتابه **الطبيعة**: إن الأشياء المحسوسة تعطي "إشارات لا تتوقف" للطبيعة الروحية، وإن الطبيعة "تعير كل عظمتها وثرواتها" إلى الدين.

ويعتمد إيمرسون على إحدى أفكار أفلاطون: الواقع الحقيقي يتجاوز العالم من حولنا، وما نراه هو مجرد ظلال غير مكتملة له، ونجد نفس هذه الفكرة عند وردذورث:

سامقة بلا حدود
الغابة التي تتحلل ولا تتعفن أبدًا
هدير الشلالات الثابت
والتصدع الضيق عند كل منعطف
والرياح العاتية، رياح حائرة محبطة
تهطل السيول من السماء الصافية الزرقاء
وتدمدم الصخور قُرب آذاننا
صخور سوداء تتساقط جانبي الطريق
وكأن الصوت فيها، يشبه صوت مصابٍ
وتوقع يسبب الدوار للسيل الجامح
السحب المنطلقة ومنطقة السماء
الصخب والهدوء، الظلام والنور

تبدو كلها من صنع عقل واحد، وملامح
وجه واحد، براعم على شجرة واحدة
شخصيات سفر الرؤيا العظيم
أنواع الخلود ورموزه
للأول والأخير والمنتصف ولما لانهاية
Wordsworth `The Prelude' (1799) (وردذورث، المقدمة)

يستهلُّ إيمرسون كتاب **الطبيعة** باقتباس من بلوتينوس، أحد أتباع أفلاطون: "ما الطبيعة إلا صورة للحكمة أو محاكاة لها"، وفي الفصول التالية يقول: "ليس لجمال الطبيعة غاية الجمال"، فالجمال الطبيعي "بشير الجمال الداخلي والأبدي"، والطبيعة مظهر خارجي، يخفي حقيقة خالقها الأبعد غورًا، وتشير كائنات الطبيعة إلى "الحياة الخفية، والعلة النهائية".

ويرى إيمرسون أن الكائنات في الطبيعة رموز: "التبن، والقمح، والأعشاب، والنباتات، والآفات، الأمطار، والحشرات، والشَّمس، إنها **رمز مقدس** من أول غصن في الربيع إلى آخر كومة تضربها ثلوج الشتاء في الحقول"، فالنباتات والحشرات تمثيلات ناقصة لشيء أعمق، وحقيقة أكبر.

تتخذ كتابات ثورو الأولى نفس موقف إيمرسون تجاه الطبيعة. على سبيل المثال: هذا ما كتبه ثورو عن "قمة واشوسيت" في عام 1843:

> يمكن أن نعرف بالتفصيل المكان الذي تشغله الجبال على الأرض، وكيف دخلت إلى المخطط العام في الكون. وعندما نتسلق قممها لأول مرة، ونلاحظ مظاهر اتساقها، لا نرجع الفضل إلى العقل الكامل الذي شكّلها، لكننا حين نرى بعد ذلك خطوطها العريضة في الأفق، نقر بأن اليد التي شكّلتها... كانت على علم تام بمخطط الكون.

وحين نشر ثورو كتاب **والدن**، تغير موقفه، فلماذا؟

يرى أحد الباحثين أن ذلك بسبب تجربة ثورو في جبل كاتادن (أو كاتهدن)[6].

ينتصب الجبال بارتفاع 5200 قدمًا، وهو أعلى جبل في ولاية مين، ومنحدراته قاحلة صخرية وعرة. انتقل ثورو إلى بركة والدن في تموز عام 1845. وفي آب عام 1846، قطع إقامته هناك لمدة قصيرة ليتسلق جبل كاتادن. كانت هذه التجربة اختبارًا لثورو، بدنيًّا وعقليًّا، بطريقةٍ لم تفعلها الحياة في الغابة. كانت بركة والدن تقع في غابة لطيفة، على بعد بضعة أميال من كونكورد، لكن جبل كاتادن بريةٌ قاسية.

في مراحل عدة، تسلق ثورو الجبل بمفرده، وقد سجل التجربة كالآتي:

> بين حينٍ وآخر، عندما كانت أعمدة الرياح تدفعني، كنت أرى صخرة رطبة داكنة عن يميني أو شمالي، يندفع الضباب الخفيف بيني وبينها، كانت تذكرني بمخلوقات الملاحم القديمة وقصائد شعراء المسرح، مثل: أطلس، وفولكان، والعماليق، وبروميثيوس...
> لقد وضعت الطبيعة الشاسعة الضخمة القاسية البشر في وضعٍ سيئ... وكأنها تقول له بصرامة: لماذا جئت إلى هنا قبل موعدك؟ هذه الأرض ليست مُهيأة لك، ألا يكفيك أنني أبتسم في الوديان؟ إنني لم أصنع قط هذه التربة لقدميك، ولا هذا الهواء لتتنفسه، ولا هذه الصخور لتقيم جوارها... فإنك إن تجمدتَ أو متَّ من الجوع أو فقدتَ حياتك، فلن تجد هنا ضريحًا ولا مذبحًا، ولن يصل صوتك إلى مسمعيَّ.

وعند هبوطه [من قمة الجبل]، يواصل ثورو تأمله:

> لعلي أدركت تمامًا، حال هبوطي، أن هذه هي الطبيعة، سواء أكانت بدائية أم جامحة أم غير قابلة للترويض أبدًا، وغير ذلك من صفة يطلقها

---

(6) Oelschlaeger (1991: 145-151).

عليها الإنسان... فالطبيعة هنا وحشية ومخيفة، بالرغم من جمالها، كنت أنظر بوجلٍ إلى الأرض التي أطأها لأرى ماذا صنعت القوى العليا هناك، وشكل عملها وأسلوبه. كانت هذه هي الأرض التي سمعنا عنها التي خُلقت من "الفوضى" و"الليالي القديمة"*... كانت الهيولى الضخمة الرائعة... وقفت خائفًا من جسدي، هذه المادة التي أرتبط بها أصبحت غريبة تمامًا بالنسبة لي... أخاف الأجساد وأرتجف عند لقائها، ما هذا العملاق الذي يستحوذ عليّ؟ كلام عن الأسرار، فكر في حياتنا في الطبيعة - يوميًّا لتظهر لك المادة، لتتصل بها الصخور والأشجار.

كانت تجربة جبل كاتادن هذه جوهرية في تطور فلسفة البراري عند ثورو، فقد اتخذ ثورو هنا موقفًا يتناقض مع موقف إيمرسون.

فالطبيعة بالنسبة إلى إيمرسون طريق إلى الرب، وهي **ترمز** إلى حقيقة أعمق، أما الطبيعة بالنسبة لثورو، فتصبح "وحشية" [غير إنسانية]، إذ توجد أنواع من البرية يعجز البشر عن الحياة فيها.

كتب إيمرسون: "الطبيعة لا تتخذ أبدًا مظهرًا وضيعًا"، بعكس طبيعة ثورو التي تجأر: "إنني لم أصنع قط هذه التربة لقدميك".

طبيعة إيمرسون مسيحية، أما طبيعة ثورو، فصارت وثنية، خلقتها "الفوضى والليالي القديمة". ويضيف ثورو فيما بعد أن جبل كاتادن "مكان للوثنية"، وهو لا يتخلى عن الرب نهائيًّا، بل يتحرك اتجاه تصور مختلف عن الألوهية، ويقول كتاب ثورو **أسبوع في الكونكورد على ضفاف نهر ميريماك** الذي كتبه في نفس وقت **والدن** تقريبًا:

لسنا بحاجةٍ إلى الصلاة لسماء أعلى مما يمكن أن تصل إليه حواسنا المجردة، ألن **نرى** الرب؟... في حياة حسية **بحتة** ... هل لابد من مماطلتنا

(*) Chaos and Old Nights وردت في قصيدة ميلتون الفردوس المفقود، وعدها أمورًا مؤنثة امتدادًا لحواء وولاءها كله لها. (المترجمة).

وإلهائنا في هذه الحياة كأنها مجرد قصة رمزية؟ أليست الطبيعة، إذا قرأت بشكلٍ صحيح، هي الطبيعة التي يُنظر إليها عمومًا على أنها مجرد رمز؟

يرى ثورو أنَّ السماء شيء يمكننا أن نراه في كل مكان من حولنا، في: النباتات، والطيور، والحيوانات. وإله إيمرسون "متجاوز"، فوقنا. لكن إله ثورو "حال"، في العالم من حولنا. كتب ثورو عن إيمرسون قائلًا: "إننا لا نؤمن بنفس الرب".

شُغِلَ ثورو أيضًا بلغز **المادة**، كان إيمرسون يعتقد أن المادة مجرد بوابة إلى اللامادي أو الروحي، أما ثورو، فقد وصل إلى الاعتقاد بأن المادة محيرة، وإنه لأمرٌ شديد الغرابة أن "ترتبط" عقولنا بأجسادنا، بكتلٍ من المادة، وتقابل أجسادنا باستمرار كتل المادة الغريبة الأخرى، كـ: الصخور والأشجار.

ويرى ثورو أن العالم المادي ليس رمزًا لأي شيء أعمق أو أشد غموضًا، فالعالم المادي في ذاته عميق وملغز.

عاد ثورو إلى والدن بعد رحلته المضنية إلى كاتادن، ثم غادر البركة في عام 1847، لكنه استغرق وقتًا في تأليف الكتاب الذي يحمل اسمها.

وفي النهاية، ظهر كتاب **والدن** في عام 1854، وكانت النتيجة فلسفة للطبيعة تختلف تمامًا عن فلسفة إيمرسون.

فالطبيعة عند ثورو قوة قائمة بذاتها، وعلى ضوء ذلك يستكشف كتاب **والدن** علاقة البشر بالطبيعة، وكما كتب الروائي جون أبدايك ذات يوم: "إن اهتمام نثر ثورو بالأمور العملية أو الواقعية هو ما يثير إعجابنا دائمًا"، فالطبيعة عند ثورو: متماسكة، وشيئية، و**واقعية**. وهذا على النقيض تمامًا من إيمرسون. ويتساءل أحد الباحثين[7] إن كان ثورو يحاول العمل على تجاوز تراث إيمرسون الفلسفي في نصوص من هذا القبيل:

---

(7) Cafaro (2004: 116).

في بعض الأحيان، بعد الإقامة في بيت القرية إلى أن يغادر جميع أفراد الأسرة، كنت أعود إلى الغابة... وأقضي ساعات منتصف الليل في صيد الأسماك في قارب على ضوء القمر، تؤانسني البوم والثعالب، وأسمع من حين لآخر، تغريد كالصفير من طائر مجهول قريب جدًا. هذه خبرات لا تُنسى ولا تُقدر بثمن بالنسبة لي، وكان أمر غريب للغاية، ولا سيما في الليالي الحالكة، حين تطوف أفكارك في موضوعات واسعة وكونية شتى في عوالم أخرى، فتشعر بهذه الرجفة الخفيفة التي جاءت لتقطع أحلامك، وتعيد صلتك بالطبيعة.

الطبيعة بالنسبة لثورو ليست مجردة، فهي كل ما يحيط بنا.

عاد ثورو إلى كونكورد بعد أن قضى عامين عند بركة والدن، واستمر في كتابة الفلسفة، وكان يناهض العبودية صراحةً، وصار مرشدًا في "قطار الأنفاق"، وهو شبكة من الطرق السرية والمنازل الآمنة لمساعدة العبيد على الفرار إلى الولايات الحرة وكندا، وتوفي ثورو وهو لمَّا يتم بعد الرابعة والأربعين، ولاقى الموت بتماسك نال إعجاب الكثيرين، وفي استجابة للناس الذي كانوا يسعون إلى إعداده للحياة الآخرة، قال ثورو معاتبًا: "يكفي عالم واحد".

حين نشر كتاب **والدن** اختلف النقاد حوله، ولا يزالون مختلفين، ويشيد البعض بمغامرة ثورو، ففي عام 1922، كتب الشاعر روبرت فروست عن ثورو أنه "يتفوق في كتاب واحد على كل ما كان لدينا في أمريكا"، وفي عام 2004، يقول جون أبدايك: إن كتاب **والدن** يفوق كل ما قدمت الأعمال الكلاسيكية الأمريكية في القرن التاسع عشر من حيث الإسهام في إحساس أمريكا بذاتها[8]. بل لقد تحول كتاب **والدن** إلى لعبة فيديو[9].

اتهم نقاد آخرون ثورو بإساءة تمثيل الحياة في بركة والدن، وكان أكثر ما

---

(8) https://www.theguardian.com/books/2004/jun/26/classics.

(9) https://www.waldengame.com.

أدانوه الكشف عن أن والدة ثورو كانت تغسل له ملابسه الداخلية حين كان في الغابة، وقد اشتكى أحد الكتاب من أن "ثورو التطهري" لم يكن في وضعٍ يسمح له بمعرفة أن جموع النَّاس تعيش حياة يأس هادئة: "إنه لم يتكلم مع هؤلاء النَّاس، فقد كتب ببراعة عن الاستقلالية، ونسي أن يشكر أمه على غسل ملابسه"[10]. فلو أن ثورو تولى أمر غسلها، لَمَا صار أول فيلسوف يُنتقد؛ بسبب عاداته في غسيل ملابسه.

والنقاد لا يحبونه لأسباب أخرى أيضًا، إذ يصف بيل برايسون ثورو بأنه: "متعجرف ومزعج إلى أقصى درجة"، وفي مقالة نشرت عام 2015 في صحيفة **نيويوركر**، تذهب الصحفية كاثرين شولتز إلى بلدة على ضفاف والدن:

> كان ثورو الحقيقي مهووسًا بذاته، ونرجسيًّا، ومغاليًا في ضبط النفس وعنيدًا بكل ما تحمله هذه الكلمات من معنى، لدرجة أنه لم يكن يحتاج شيئًا غير نفسه ليفهم العالم، وينجح فيه... لم يقابل ثورو قط أي شهوة مؤذية ليندد بها، وكان يدين هؤلاء الذين يجمعون التوت البري لصنع المربى ("وكذلك الجزارين الذين ينزعون ألسنة البيسون من أعشاب البراري") وكان يصف الملح بأنه "أسوء أنواع البقالة"، وكان يتفاخر إذا استطاع أن يتخلى عنه، كما كان يشرب كمية قليلة من الماء[11].

لكن سواء أأحببت ثورو أم كرهته، فإن ما يهمنا هو أعماله، ففلسفة الطبيعة التي قُدمت في **والدن**، اتخذت طريقها إلى مجالات عدة في حياة البشر، وأولها حماية البراري.

إن **والدن** أحد النصوص الرائدة في الفلسفة البيئية، فقبل القرن التاسع عشر، لم يكن النَّاس يشعرون بضرورة حماية البراري، فحتى ذلك الحين، كان

---

(10) انظر Garrison Keillor الذي ورد في:
https://newrepublic.com/article/123162/everybody-hates-henry-david-thoreau.

(11) http://www.newyorker.com/magazine/2015/10/19/pond-scum.

عدد البشر يزيد ببطء، وكان من المستحيل تصور أن الموارد ستنفد يومًا ما، وقد اتخذ كتاب إيمرسون **الطبيعة** موقف العصور الوسطى تجاه العالِم الطبيعي، فكتب أن الطبيعة "جُعلت في خدمتنا"، ويكتب إيمرسون إنها تتقبل "سيطرة الإنسان بخنوع تمامًا كالإتان التي امتطاها المخلّص".

أما ثورو، فلم يكن ينظر إلى الطبيعة بوصفها مواردَ ينبغي أن نسيطر عليها، بل كان يعدها خيرًا قيّمًا ينبغي أن نحميه، وهو يدافع بقوة عن القيمة المتأصلة في الكائنات الحية في كتاب **غابات ولاية مين**:

> الخير في أن يكون المخلوق حيًّا لا ميتًا، البشر وحيوانات الموظ وأشجار الصنوبر، ومن يفهم ذلك فهمًا صحيحًا، فسيحافظ على حياتها، ولن يدمرها... لقد دخلت إلى: ساحة الأخشاب، ومحل النجار، والمدبغة، ومصنع المصابيح، ومعمل تنقية زيت التربنتين، لكنني عندما رأيت في آخر المطاف قمم أشجار الصنوبر تلوح من بعيد وتعكس الضوء على ارتفاع كبير فوق أنحاء الغابة، أدركت أن ما سبق لم يكن الاستخدام الأمثل للصنوبر، وليس شكلها، ولا جلدها، ولا شحمها هي أكثر ما أحب فيها، وإنما الروح الحية في الشجرة... [التي] هي خالدة مثلي، ويحتمل أنها ستصل إلى أعالي السماء، ولعل مكانتها تكون أعلى من مكانتي هناك.

يتكرر هذا الموضوع في يوميات ثورو، فعلى سبيل المثال: تشغله ضرورة أن تحافظ البلدات على سماتها الطبيعية، وعلى مساقط المياه فيها ومروجها.

بحلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بدأت أمريكا تفكر في الحفاظ على الحياة البرية، فالغابات استنفدت وصار النَّاس على وعي بانقراض الحيوانات والطيور، وخلال هذه الفترة، انقرضت مخلوقات أمريكية عدة: المنك البحري، والأيائل الشرقية، وفأر المرج. وفي القرن العشرين تشكلت منظمات للحفاظ على الحياة البرية، وأسس العديد منها جون موير الذي نظم حملة لحماية المناطق البرية المختلفة، ومنها وادي يوسمايت في كاليفورنيا. ووصف موير نفسه بأنه "حواريّ" ثورو، وكان يحتفظ فوق رفٍّ في بيته بصورة

مرسومة لثورو، والعديد من فلاسفة البيئة في القرن الحادي والعشرين هم أيضًا من أتباع ثورو، وإن المرء ليناجي نفسه قائلًا: "لا يوجد لدى أي مفكر أكثر مما قدمه هنري ثورو"[12].

أما الطريقة الثانية التي تسلل بها كتاب **والدن** إلى حياة النَّاس، فهي صور الأكواخ المغرية، وظلت هذه الظاهرة منتشرة طوال عقد كامل، بل يوجد كتاب أيضًا بعنوان: "**أفكار موحية لمكانك الهادئ في بقعةٍ ما**".

ويعج جوجل بالإعلانات عن أكواخ ونُزل لقضاء إجازة في مكانٍ "ناءٍ"، كذلك يمتلئ موقع بينإنترست Pinterest بصور الأكواخ المغرية، ويمكن أن تجد مقالات عن الظاهرة في صحف **نيويورك تايمز**، و**فاينانشال تايمز**، وعلى موقع بي بي سي، وكثير منها تستخدم ثورو مرجعًا لها، وهذا مثال من كتاب فين آرنه يورغينسن Finn Arne Jrgensen **الأطلنطي** الذي نشر عام 2012: "ما معنى أن الشباب الذين يتبعون كل الصيحات الجديدة يحبون التحديق في صور الأكواخ":

> لماذا لا يستطيع كل هؤلاء النَّاس التوقف عن النظر إلى الأكواخ؟ ما الذي يجذبهم فيها؟ ببساطة صور الأكواخ المغرية هي تحفيز بصري للحث على حياة أبسط في محيط جميل، ويشبهها المعلقون بعبارة "إظهار ثورو الذي بداخلك"، وتمثل صور الأكواخ عودة إلى: الزراعة المنزلية، والتخلي عن الحياة التقليدية، والاكتفاء الذاتي، والاعتماد على النفس[13].

ويرى يورغنسن أنَّ صور الأكواخ هي أحدث صيحة في تراث طويل من الحلم بالأكواخ، وهي المدخل إلى حياة أبسط في انسجام مع الطبيعة، فقد أصبحت حياة الكوخ اختصارًا لمجموعة من القيم والتطلعات، للاعتماد على النفس،

---

(12) Cafaro (2004: 139).

(13) https://www.theatlantic.com/technology/archive/2012/03/what-it-means-that-urban-hipsters-like-staring-at-pictures-of-cabins/254495/.

وعمل كل شيء بيدك، والحياة بعيدًا عن المدن، والتخلي عن الحياة التقليدية، واستخدام أجسادنا في عمل يدوي بسيط شريف.

إذ يفترض أننا فقدنا كل هذه الأشياء في حياتنا الحديثة، حيث تتدفق المعلومات، وتومض الأجهزة الإلكترونية، ولا يتوقف البريد الإلكتروني، إنها تجعلنا نتمنى زمنًا أبسط، وحياة أبسط، فماذا يمكن أن يكون أبسط من الحياة في كوخ؟

المؤكد، بالنسبة لكثيرٍ منا، أن صور الأكواخ المغرية هي بالفعل مغرية، فحتى إذا كانت أمهاتنا موجودة لتغسل ملابسنا، فإنَّ أغلبنا سوف ينقبض من فكرة حياة واقعية في **والدن**. حياة بدون ماء ساخن، ولا تدفئة مناسبة، ولا كهرباء؟ كنت لأجد أن الحياة لأسبوعين بهذه الطريقة عسيرة، فما بالك بعامين.

وبالرغم من أن هذا رأي كثير منا، فإنه ليس رأينا كلنا، وهذا يؤدي بنا إلى الطريقة الأخيرة التي دخل بها **والدن** حياة البشر: السَّفر في البراري، وهو جزء كبير من إغراء ألاسكا.

في عام 1992، سافر شاب اسمه كريستوفر ماكاندليس بالركوب متطفلًا مجانًا إلى طريق ستامبيدي تريل.

هذا الطريق النائي في وسط ألاسكا الذي لا يظهر على كثير من الخرائط، لم يكن مع ماكاندليس طعامٌ كافٍ للطريق (فقط كيس من الأرز وزنه عشرة أرطال) ولا حذاء المشي لمسافات طويلة المقاوم للماء. ولم تكن معه بلطة، ولا حذاء للسير على الجليد، ولا بوصلة. ولم تكن بندقيته مقاس 22 مللي مناسبة لقتل موظ أو وعل، وهو ما يجب أن يفعله ليأكله لكي يعيش، وكان آخر من ركب معه ماكاندليس قد أنزله مضطرًا على طريق جليدي، شمالي جبل ماكنلي، فابتسم له ماكاندليس حين نزل، ثم اختفى. ولقد عرفنا من يومياته أنه ظل على قيد الحياة في البراري لأكثر من مائة يوم قبل أن يسلم الروح، وبعد وفاته، وجدوا كتبًا عدة بين أغراضه، من بينها كتاب **والدن**. كان ماكاندليس قد ظلل مقاطع عديدة، ومنها المقطع التالي: "إن كنت تستقبل النهار والليل

بسعادة، وتبعث الحياةُ عبيرَ الزهور والأعشاب العطرية... فهذا دليل نجاحك، والطبيعة بأسرها تهنئك".

سجل جون كراكاور تجربة ماكاندليس في كتاب نشر عام 1996 بعنوان **في البراري**، تحول إلى فيلم سينمائي بعد ذلك، وهذا بدوره ألهم كثيرًا ممن يطمحون إلى الحياة البرية، وفي عام 2004، تخلى غاي جريف عن وظيفته المكتبية، وهجر زوجته وأولاده، وطار إلى غالينا في ألاسكا، وسافر من هناك إلى أعماق الغابات، وبنى كوخه الخشبي، وعلى عكس ماكاندليس، عاش جريف ليروي الحكاية، ونشر كتابه: **نداء البرية: قصة هروبي إلى ألاسكا**.

إن كنت سأعيش في كوخٍ مستقبلًا، فإنني على الأرجح لن أبني هذا الكوخ بنفسي، مع ذلك، يغمرني الشعور **بوالدن**. يسأل ثورو أسئلة عميقة: ما البشر؟ ما البراري؟ كيف نتعامل معها؟ وكانت إجابته لا تقل عمقًا: البشر كائنات مادية، كتل غامضة من الأشياء، والطبيعة أيضًا خلقت من كتلٍ مادية، والبشر جزء من الطبيعة، وعلينا أن نهتم بأجزائها الأخرى.

خط المرساة

غلاسكو - نيويورك

10

هل السَّفر مفهومٌ ذكوري؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

امرأةٌ مُستكشِفة... رحالةٌ بتنورة.
الفكرة عبثية تمامًا وخيالية للغاية.
فليمكثن بالبيت ويرعين الصغار، أو يخيطوا قمصاننا الممزقة:
لكن يجب ألا يكنَّ جغرافيات، ولا بوسعهن ذلك، ولن يحدث أبدًا.
إلى الجمعية الجغرافية الملكية، مجلة بنش 1893

(To the Royal Geographical Society, *Punch*, 10 June 1893)

مسألة المرأة. في تسعينيات القرن التاسع عشر، دارت مناقشات عنيفة في الجمعية الجغرافية الملكية في بريطانيا، وكل أعضائها من الرجال، حول هذه المسألة.

إلى أي حد يمكن أن تشارك المرأة في علم الجغرافيا والاستكشاف؟ فسَخَرت الصحف من مناقشاتهم، ونشرت القصيدة السابقة. مع ذلك، لم تقبل الجمعية عضوية أي امرأة قبل عام 1913، أي: بعد عشرين سنة كاملة من نشر هذه الأبيات الساخرة في مجلة بنش.

بعد ذلك بأكثر من مائة عام، يوضح كتابُ رحلاتٍ عن أنتركتيكا لسارة ويلر كيف أنها ظلت فترة طويلة تعتقد أنَّ القارة كانت "ساحة اختبار للرجال ذوي اللحى المتجمدة ليعرفوا كيف يمكن أن يموتوا"، وعادت "فرقة اللحى المتجمدة" إلى الظهور عبر "الأرض المجهولة" بشعيراتهم الجليدية التي تجسد علاقة الرجال القوية بأنتركتيكا.

رأينا كيف تتقاطع الفلسفة والسَّفر بشكلٍ متكرر عبر تاريخيهما الأفعواني،

وسواءً أكَتب الفلاسفة عن تنمية عقولنا أم مواطن الجمال في "الغابات الحالكة"، فإنهم كانوا يحتفون بالسَّفر دائمًا، وقد بدأ هذا يتغير في القرن العشرين، ولمّا اكتسبت الحركات النسوية أرضًا، بدأت الفيلسوفة سيمون دي بوفوار وغيرها يشرن إلى أن السَّفر اشتهر بأنه نشاط **ذكوري**، فأبرز هذا مشكلات، وحين تعمقتُ في المسائل المتعلقة بالسَّفر والمرأة، وجدتُ أن السَّفر تاريخيًّا كان يقترن بالرجال، وذلك يشمل حتى استكشاف أنتركتيكا (القطب الجنوبي)، كذلك وجدت أن **المفهوم** الغربي للسفر مفهوم ذكوري، ومازال أمرًا مزعجًا إلى اليوم.

لنعرف السبب، دعونا نرجع إلى الوراء، وننظر إلى مسألة النوع (الچندر gender) على نحو أعم: ما النوع؟ على مدار التاريخ كان النَّاس يستخدمون كلمتَي "الجنس" و"النوع" بنفس المعنى، أما اليوم، فكثيرًا ما نميّز بينهما.

فجنس الشخص يشير إلى صفاته البيولوجية: أعضائه التناسلية، والكروموسومات، والجوانب الهرمونية. وعندما تسأل امرأة حُبلى في أثناء كشف الموجات الصوتية عما إذا كان ما تحمله في رحمها ولدًا أو بنتًا، فإنها حقيقة تسأل عن جنس الجنين، وقد تجيبها الممرضة بعد أن تفحص الأعضاء التناسلية للجنين على جهاز الموجات الصوتية.

وعلى عكس ذلك، يشير **نوع** الشخص إلى الخصائص التي ينسبها مجتمعٌ ما إلى الرجال والنِّساء. وبحسب صياغة منظمة الصحة العالمية:

> يشير النوع إلى الخصائص المحددة اجتماعيًّا للنساء والرجال، كـ: الأعراف، والأدوار، والعلاقات مع جماعات النِّساء والرجال وبينها، وهي تختلف من مجتمعٍ إلى آخر، ويمكن تغييرها[1].

ويمكننا توضيح هذه الفكرة ببعض الأمثلة.

---

(1) http://www.who.int/gender-equity-rights/understanding/gender-definition/en/.

قارن كيف يتعامل المجتمع البريطاني مع النِّساء الآن، وكيف كان يتعامل معهن في القرن السادس عشر.

ففي ذلك العصر، لم يكن للنساء حق التصويت، ولا العمل بالسياسة، ولا الدراسة بالجامعات، ولا تولي مناصب في الجيش. وكانت هناك قوانين صارمة تحدد إمكانية توريثهن أو عدم توريثهن، وكانت البشرة الشاحبة من أحدث الصيحات في ذلك الوقت (وكانت كثيرًا ما تُكتسب بالنزيف أو مساحيق تبرج بها رصاص سام).

ولو كنت قد وُلدت في إنكلترا إبان العصور الوسطى، لظل **جنسي** كما هو، ولاختلف **نوعي**، أي: فهم المجتمع لدوري كامرأة.

تختلف الأفكار عن النوع باختلاف الزمان والمكان، وأحد العناصر اللافتة في رحلات ويلر في أنتركتيكا هو مدى الاختلاف الذي تُعامل به في المقار البحثية المختلفة، فهي تصف ترحيبًا حارًا في قاعدة ماكموردو، وهي مركز أبحاث تابع للولايات المتحدة، وتلاحظ أنهم حاولوا بدأب زيادة أعداد النِّساء هناك.

وعلى العكس من ذلك، تلقت استقبالًا جاف في روثيرا، القاعدة البريطانية، فكانت معاملتهم لها بين التجاهل والتعالي.

وتكتب ويلر عن أول عشاءٍ لها هناك، فتقول: "هنا يفعل الرجال البريطانيون ما يفعلونه على خير وجه: العودة إلى الطفولة والتصرف بطريقة سخيفة"، وهكذا، حين كانت ويلر تنتقل من مجتمعٍ إلى آخر، كان دور نوعها يختلف.

النوع قضية رئيسة في الفلسفة النسوية، و"النسوية" حركة سياسية، تُطالب بالمساواة بين الرجل والمرأة، وتتلاقى النسوية والفلسفة في مواضع عدة، فيمكننا تطبيق الفلسفة على القضايا النسوية، ويمكننا أن نستكشف القضايا النسوية في الفلسفة، وأحد المسائل التي يطرحها فلاسفة النسوية هي كيف يمكن

لأفكار عن النوع أن تشوه نظرتنا إلى الكون، فالتشوهات يمكن أن تصيب سياساتنا، وقوانينا، وما له قيمة عندنا، والأمور التي نهتم بها، وكثيرًا ما تكون هذه التشوهات إشكالية بالنسبة إلى المرأة، وها هي أمثلة على ذلك.

لطالما أشار المُنظِّرون إلى أن المجتمع البشري مجتمع ذكوري، فقد كتب ثورو: "جموع الرجال يعيشون حياة اليأس الهادئ".

ويخبرنا ألبير كامو بأن "الرجل [الإنسان] هو المخلوق الوحيد الذي يرفض ما خلق عليه"، ويعلن نيل أرمسترونغ من فوق سطح القمر: "هذه خطوة صغيرة لرجل، لكنها قفزة عملاقة للبشرية".

يشير هؤلاء إلى كل البشر بكلمة "الرجل" أو الرجال"، وتنشأ المشكلة عندما يكون "رجل" هو المقياس المعياري "للبشري".

تخيل أن مديرك يوفر تأمينًا صحيًّا خاصًّا لك ولشريكة حياتك، سيشمل هذا التأمين كل ما يمكن أن يصيبك من ظروف صحية قد تمنعك من العمل، **عدا** الحمل والولادة، فهل هذا الاستثناء مقبول؟

في عام 1976، قضت المحكمة العليا في الولايات المتحدة بأنه مقبول، إذ رأت المحكمة أنه بالرغم مما **يبدو** أنه تمييز ضد المرأة في هذا الحكم، فإنه ليس كذلك، وحققت المحكمة ذلك بتعريف جسد الذكر بأنه الجسد البشري "القياسي"، وترى المحكمة أن التأمين يشمل كل شيء يمكن أن يحتاجه الجسد البشري القياسي (بما في ذلك سرطان البروستاتا، وعملية الختان). ومن المقبول ألّا يشمل الأشياء التي لا يحتاجها الجسد غير القياسي، مثل: الحمل[2]. ولحُسن الحظ، تم نقض قرار المحكمة العليا هذا فيما بعد.

وكما يبين تاريخ الفلسفة والعلم، كانت للرجال لزمن طويل مكانة أعلى من النِّساء، فيعلن أفلاطون أن الذكور يفوقون الإناث "في كل شيءٍ تقريبًا"، مع استثناءات قليلة، مثل: القدرة على الحياكة، وخبز الكعك، وطهي

---

(2) See Bem (1993: 74-6).

الخضراوات[3]. ويصف أرسطو الإناث بأنهن ذكور "مشوهون"[4]. ويصف فيلسوف القرن السابع عشر نيكولاس مالبرانش النِّساء بأنهن "ضعيفات العقل"، ويتسمن "بالغباء" و"الضعف" (ويعزي هذه المشكلات إلى رطوبة ألياف المخ عند النِّساء)[5]. ولقد رأينا بالفعل أن كانط يقول: إن النِّساء ينبغي أن يكنَّ جميلات، لا ساميات"، وهو يرى أن التعليم لا يناسب النِّساء؛ لأنه سيجعلهن أقل جاذبية في عين الجنس الآخر: "يمكن للجميلات أن يتركن دوامات ديكارت تدور إلى الأبد دون القلق بشأنها". وفي حين أن تعليم المرأة قراءة الخارطة "أمر رائع"، يضيف كانط أنه ينبغي تعليم المرأة شيئًا عن **الشعوب** وحسب في البلاد الأجنبية، "فلا أهمية كبيرة إن كانت تعرف أم لا تعرف المقاطعات المحددة في هذه: الدول، وصناعاتها، وقوتها، وحكامها[6].

كان هيغل يعتقد أنَّ النِّساء "قادرات على التعلم"، لكنهن عاجزات عن تعلم العلوم "الأشد تقدمًا" والفلسفة. وكتب داروين أن الرجال أشد قدرة من النِّساء على الوصول إلى "مكانة أعلى" في كل شيء، وأن "قدرات الرجال العقلية المتوسطة يجب أن تكون أعلى من قدرات النِّساء"، وهذا التقليل من شأن النِّساء لا يقتصر على فكر الرجال.

ترثي مارجريت كافنديش لهذا الأمر، فتقول: "الطبيعة... جعلت الرجال أشد براعة وفطنة وحكمة من النِّساء، وأشد قوة واجتهادًا وشقاءً".

وبناءً على ذلك، يقدّر النَّاس الأشياء التي تقترن بالرجال تقديرًا أعلى. على سبيل المثال: إننا نربط الأصوات العميقة وطول القامة بالسلطة.

وقد وجدت إحدى الدراسات أن المديرين التنفيذيين ذوي الأصوات العميقة ينجحون في إدارة الشركات الكبرى ويجنون مالًا وفيرًا، وأن النقص

---

(3) Plato (Republic 455c).

(4) Aristotle (Generation of Animals: 737a28).

(5) Malebranche (1997: 326; 279).

(6) Kant (2011: 358).

بنسبة 25% في ارتفاع الصوت صاحبه زيادة تصل إلى 187 ألف دولار في الراتب السنوي[7]. وقد بيّن الباحثون أيضًا أن المرشحين الأطول قامة على الأرجح يفوزون في الانتخابات. ففي 67% من الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة، فاز المرشح الأطول قامة[8]. وفي المعتاد، يتحدث الرجال بأصوات أشد انخفاضًا من النِّساء، كما أنهم أطول قامة. ونتيجة لهذا، يصعب قبول النِّساء بوصفهن شخصيات ذوات سلطة (أخذت مارجريت تاتشر دروسًا في الخطابة لتجعل صوتها منخفضًا، واستخدمت هيلاري كلينتون منبرًا صُنع خصيصًا لتبدو أطول قامة). وإننا لنقرن الأصوات العميقة وطول القامة بالسلطة؛ لأنَّ لدينا تصورًا مسبقًا بأن الرجل أقوى سلطةً.

وما أن نضع أيدينا على تداعيات هذا الاختلاف، حتى نتمكن من تصحيحه، فعندما نكون بصدد اختيار مديرين تنفيذيين أو رؤساء جمهورية، يجب علينا النظر إلى قدراتهم على إدارة الشركات أو البلاد، وليس إلى نغمة أصواتهم أو طول قاماتهم بدون الأحذية، وتهدف النظريات النسوية إلى تحديد هذا النوع من الاقتران، وكانت إحدى الطرائق التي حققت بها ذلك هي تحديد "مفاهيم النوع" 'gendered concepts'.

و"المفهوم" فكرة، مثل: الزرقة أو الديمقراطية، والمفاهيم أساسية في الفلسفة التحليلية، تلك الحركة التي هيمنت على عالم الفلسفة الناطق بالإنكليزية لأكثر من قرن، وامتد تأثيرها إلى ما بعد ذلك. والفلسفة التحليلية متأصلة عند أمثال: برتراند راسل، ولودڤيغ ڤيتغنشتاين الذين أكدوا أهمية "تحليل" المفاهيم، أي: تقسيمها إلى أجزاء، وبناءً على هذا التقليد، قال بعض فلاسفة النسوية بأن المفاهيم مُتحيزة جنسيًّا.

والفكرة الأساسية هي أن بعض المفاهيم مرتبطة بالنوع، ولهذه الارتباطات

---

(7) https://www.psychologytoday.com/blog/naturally-selected/201306/the-sound-leader-ceos-deep-voices-do-better.

(8) https://www.psychologytoday.com/blog/caveman-politics/201210/it-s-weird-candidate-height-matters-in-elections.

عادة تاريخ طويل، ومن ذلك أن الفيلسوفة تشارلوت ويت ترى أن مفهوم أرسطو عن "المادة" أقرب إلى الأنثى من حيث النوع. فالمادة هي الخامة التي يُصنع منها كل شيء، ويصف أرسطو المادة والأنثى في نصوص عدة، ومنها: "المادة تبحث عن شكل، كما تبحث الأنثى عن ذكر والقبيح عن الجميل".

وتشكل نظرية المادة لأرسطو أساس وجهة نظره في موضوعات أخرى عدة، ومنها: فلسفة العقل، وعلم الأحياء، والنظرية الأدبية. والمشكلة هي أن أرسطو، كما رأينا آنفًا، كان يعتقد بأن المرأة أدنى من الرجل، وتعتقد ويت أن هذا التصور للمرأة قد يشوه نظام أرسطو الداخلي برمته[9].

وقد شكل ربط أرسطو المادة بتدني النِّساء أساس ما جاء بعده من فكر لقرون عدة، وهذا يفسر سبب الاعتقاد بأن النِّساء عُرضة للهيستريا، وأن التعليم العالي لا يصلح لهن، وهذا هو التراث الذي ورثه: مالبرانش، وكاڤنديش، وهيغل.

يمكن تطبيق التحيز الجنسي على كل أنواع المفاهيم، ولنأخذ مثالًا عن اللون الوردي: إننا اليوم نربط اللون الوردي بالفتيات، واللون الأزرق بالأولاد. وبصرف النظر عن مدى انتشار هذا الارتباط، فإنه حديث نسبيًّا، فعلى سبيل المثال: نقرأ في مقالة نُشرت في عام 1918 في النشرة التجارية **إيرنشو، قسم حديثي الولادة**:

> القاعدة المعروفة بصفة عامة هي أن اللون الوردي للصِّبية، واللون الأزرق للبنات. والسبب في ذلك هو أن اللون الوردي لون أقوى وأكثر تحديدًا، ومن ثم، فهو مناسب أكثر للولد، أما اللون الأزرق، فهو أجمل للبنت؛ لأنه أكثر رقة وأشد أناقة[10].

---

(9) See Witt (1998).

(10) Ṭhttp://www.smithsonianmag.com/arts-culture/when-did-girls-start-wearing-pink 1370097/#2sj34VwxoPMgmERc.99

بدأ هذا يتغير في أربعينيات القرن العشرين دون سبب واضح، لكن الواضح أنَّ الاقتران الجنسي بين اللون الوردي والبنات صار راسخًا اليوم، وسيكون ارتداء مولود صبي اللون الوردي أمرًا فرديًّا حتمًا، فإن ارتداء اللون الوردي مفهوم يميز الإناث جنسيًّا.

وكذلك مفهوم السَّفر، فتاريخ السَّفر بصفةٍ عامة هو تاريخ الرجال، فالغالبية العُظمى من كتب الرحلات كانت من تأليف رجال: هيردوت، وهوميروس، وتشينغ خه، وماركو بولو، وابن بطوطة، وجون ماندفيل، وقد أبحر الرجال بعيدًا في عصر الكشوف الجغرافية: فرديناند ماغلان، وفرانسيس دراك، وكريستوفر كولمبوس، وجاك كارتيه، وفرانشيسكو بيثارو، وجيمس كوك. وكان معظم السّياح في الجولات الكبرى وسائقي الدبة من الذكور، وقد قرأت في صغري كُتبًا عدة عن السَّفر: **مشاهير المستكشفين**، **والمستكشفون في القرن التاسع عشر**، **وأولاد بارو المغامرون الأصليون المتطرفون: قصة مثيرة للشجاعة المندفعة والجنون الصريح**، ولم يكن للنساء حضور كبير في هذه الحكايات. وشهد عام 1950 هجومًا لاذعًا على مدى شمولية استكشاف العالم، فالكاتب الإسكتلندي هيلتون براون Hilton Brown يبحث في مسألة ندرة سفر النِّساء في الماضي، ويقول: إن ذلك كان "ميزة كبرى".

وأحد أقدم كتب الرحلات في الغرب، **الأوديسا** لهوميروس، وهو يصف رحلة عودة أوديسيوس إلى الوطن بعد حرب طروادة.

كانت زوجته بينولوبي في انتظاره هناك، تقاوم خطابها الذين كانوا يحاولون إقناعها بأن زوجها أوديسيوس لقى مصرعه، وفي حين أن أوديسيوس كان هو المسافر، اقتصر دور بينولوبي على الحفاظ على نار الموقد مشتعلة، وقد حاصر مصيرُ بينولوبي كثيرًا من النِّساء، وكان نادرًا ما تظهر النِّساء في كتب الرحلات التاريخية، وإن ظهرن لا يقمن بأدوار البطولة، فبصفة عامة، كانت النِّساء هنَّ زوجات المثيرين للاهتمام، أو ساقيات في حانة ممتلئات الجسم، أو عاهرات.

ومن هذا القبيل: **مجلات الجولة الكبرى**، ورواية مارك توين **الأبرياء في الخارج**، أو حتى رواية بول ثيروكس **سوق السكك الحديدية العظيم**.

ولعلك تظن أن ثمة عددًا كبيرًا من الرحالة النِّساء أيضًا، بالرغم من أن أغلب تاريخ السَّفر عن الرجال، وربما كان رأيك صائبًا، فقد كانت جين باريت Jeanne Baret (1740-1807) عضوًا في حملة دو بوغنفيل الاستكشافية في ستينيات القرن الثامن عشر، وهي تشتهر بأنها أول امرأة تطوف حول العالم، وسافرت هيستر ستانهوب Hester Stanhope (1776-1839) عبر الأرض المقدسة، وسافرت ماري وولستونكرافت Mary Wollstonecraft (1759-1797) في أنحاء الدول الإسكندنافية بحثًا عن ذهب القراصنة، وتجولت إيزابيلا بيرد Isabella Bird (1831-1904) عبر أنحاء الولايات المتحدة وآسيا، وصارت أول امرأة تنتخبها الجمعية الجغرافية الملكية عضوًا بها، وسافرت ماري كينغسلي Mary Kingsley (1862-1900) عبر أنحاء غرب إفريقيا، وكانت غريترود بيل Gertrude Bell (1868-1926) جاسوسة وعالمة آثار طافت في أنحاء الشرق الأوسط، أما المستكشفة السويسرية إيزابيل إيبرهارت Isabelle Eberhardt (1877-1904)، فقد عاشت في شمال إفريقيا وكتبت عنه.

في أول الأمر، يقول الموظف المسؤول: إنه لا يحب تحمل مسؤولية السماح لي بتعريض حياتي للخطر في تلك المنحدرات، فوضحت له أنه لا أحد سيتحمل المسؤولية سواي، ونبهته إلى أن ثمة سيدة قد صعدت من قبل هي السيدة كويني، فيقول: "نعم، هذا صحيح، لكن السيدة كويني كانت رفقة زوجها وعدد كبير من الرجال، في حين أنني بمفردي، وليس معي سوى ثمانية إيغالو [المرشدين الأفارقة] وليس إدوما [صيادين]*، وهو الطاقم المطلوب لصعود المنحدرات، وكلهم في عرض النهر الآن مع القافلة".

(*) الإيغالو قبيلة يعمل أفرادها أدلة للمستكشفين، والإدوما قبيلة يعمل أفرادها بالصيد. (المترجمة).

فأجبت: "صحيح، يا زعيم، لكن السيدة كويني ذهبت مباشرة إلى ليستورفيل، بينما كل ما أريده أنا هو تسلق مُنحدر النهر الصخري على ارتفاع يكفي لرحلة صيد عادية، وهؤلاء الإيغالو رجال يتقنون العمل على القوارب، ويمكنهم الذهاب في قارب إلى أي مكان يمكن لبشر أن يذهب إليه" "وكان هذا لرفع معنويات مترجمي الذي كان من الإيغالو، "وبالنسبة للزوج، لم يرد في قائمة الجمعية الجغرافية الملكية، ولا في "نصائح للمسافرين"، ولا عند السادة سيلڤر، في قوائم مقالاتهم المفصلة الضرورية للمسافرين في المناخ الاستوائي، أي: ذكر للأزواج".

ماري كينغسلي، **رحلات في غرب إفريقيا**، 1867

وبالرغم من سفر هؤلاء النِّساء، كان هذا النشاط يعدُّ نشاطًا ذكوريًّا، وفي أثناء السَّفر وجدت بعض النِّساء أن من الأسهل ارتداء ما يشبه ملابس الرجال، على سبيل المثال: ارتدت باريت التي انضمت إلى سفينة بوغنفيل ملابس الرجال، وسمت نفسها جون بدلًا من جين، وفي بادية الشام، تجنبت ستانهوب امتطاء الخيل من جانب واحد، وفضلت طريقة الرجال في ركوب حصانها، وارتدت ملابس الرجال كاملة بما فيها: السروال، والصدرية، والعمامة، والسيف، وقيل: إنها حلقت شعرها؛ لكي تتمكن من وضع عمامتها، أما إيبرهارت التي ولدت بعد مائة سنة تقريبًا، فتنكرت أيضًا في زي الرجال منذ صغرها، متمتعة بحرية أكبر يوفرها هذا الزي.

وفي أحسن الأحوال، كان سلوك هؤلاء النِّساء غير الأنثوي يُعد غريبًا، وفي أسوأ الأحوال، كان يُعد غير لائق إلى حد الخطورة، وكانت أسفارهن "يشوبها عدم الاحترام"[11].

ولتجنب أي شك في عدم الاحتشام أو اللياقة، كانت كثير من النِّساء الرحالة يؤكدن أنوثتهن. وكانت إحدى وسائل فعل ذلك هي ممارسة أنشطة نسائية مقبولة في أثناء السَّفر، ومن ذلك، الرسم الذي كان يشغل: ماريان نورث

(11) Enloe (2014: 40).

Marianne North، وكونستانس جوردون كامينغ Constance Gordon Cumming، وأميليا إدواردز . Amelia Edwards

وتكتب إدواردز في كتابها **ألف ميل في أعالي النيل** الذي نشر عام 1877 أن أكثر عمل مبهج في الحياة هو الرسم. مع ذلك، كان العمل في مصر يثير بعض المشكلات:

> كل شيء أصفر اللون عدا السماء والنهر، وهذا معناه، "أن ثمة فارق"، فاللون الأصفر يوجد بكل درجاته من برتقالي وأصفر فاتح (لون الذرة)، ومشمشي، وذهبي، وليموني...
> وربما تكون الحرارة أقل إزعاجًا، لكن الرمال تبعث على الجنون، فهي تملأ: شعرك، وعينيك، وقوارير الماء، وتردم علبة ألوانك، ويجفف الجو حولك.
> ويحول لون الصيني الأبيض إلى عجينة رملية بلون تتبيلة السلطة، أما الذباب، فلديه شهية مَرضية للألوان المائية، فهو يتتبع فرشاتك المُبللة حتى فوق الورقة، ويترك أقدامه في الغراء الأصفر، وينغمس بشغفٍ في كل صحن صغير من الكوبالت الذي يمزج ليكون جاهزًا للاستخدام، لا يوجد شيء لا يقبلونه، ولا شيء يسممهم حتى اللون الأخضر الزيتوني[12].

كان رسم اللوحات يوفر لهؤلاء النِّساء "قناع اللياقة" في رحلاتهن[13].

وثمة طريقة أخرى تؤكد بها المرأة الرّحالة أنوثتها وهي ما ترتديه من ملابس، فتذكر إيزابيلا بيرد مثلًا في كتابها **حياة امرأة في الجبال الصخرية** الذي نشر عام 1879 أن "ثوب الركوب الهاوايي الذي ترتديه هو "ثوب الجبال عند السيدة الأمريكية"، وهو "سترة قصيرة محبوكة، وتنورة تصل إلى الكاحلين،

---

(12) Edwards (1888: 310).
(13) Birkett (1989: 108).

وسروال تركي سابغ يتجمع طرفه في كشكشة تنزل على سطح الحذاء، وهو زي أنثوي عملي تمامًا"، وعلى غِرار ذلك، تسجل ماري كينغسلي في كتابها **رحلات في غرب إفريقيا** المنشور في عام 1867، كيف أن "تنورتها السميكة المفيدة" أنقذتها من الموت في حفرة أشواك:

> لو كنتُ قد اتبعت نصيحة كثير من النَّاس في إنكلترا، وما كان ينبغي أن ينصحوا بها؛ لأنهم لم يفعلوا بأنفسهم ما ينصحون به، أي: لو كنتُ قد ارتديت ملابس الرجال، لكانت الأشواك قد دخلت جسمي حتى العظم، ولانتهى أمري، لكني كنت جالسة في وضعٍ مريح، بفضل تنورتي السميكة المطوية تحتي، ولم يكن يزعجني سوى عدد كبير من الشجيرات تحتها تسعة أعواد شائكة من شجر الأبنوس يبلغ طول بعضها اثني عشرة بوصة، وأنا أصيح بملء فمي ليخرجوني من الحفرة[14].

الحادثة مضحكة، لكن ليس من قبيل المصادفة أن يبرز زي كينغسلي النسائي.

كذلك ذكرت الصحف والجمعية الجغرافية الملكية مغامرات النِّساء المسافرات بطرائق تؤكد أنوثتهن، وما تحت السطور هو أن هؤلاء النِّساء يتسمن بالأنوثة **بالرغم** من هذه المغامرات الذكورية، وكما يوضح أحد المؤرخين، فإنهن يؤكدن مظهرهن الأنثوي، ولا يُظهِر الثوب النسائي إلا مدى تعرضهن للخطر، وبالرغم من كل جهودهن، وجد النَّاس صعوبة في التوفيق بين أنشطتهن الذكورية وجنسهن الأنثوي[15].

الشَّكل 10-1 يظهر رسمًا كاريكاتيريًّا لماري كينغسلي تظهر فيه بالتنورة والكعب العالي، وتحمل بندقية وسيفين قصيرين.

---

(14) Kingsley (2003: 270)

(15) See Birkett (1989) and Wolff (1992).

الشَّكل 10-1 ماري كينغسلي

مع حلول سبعينيات القرن العشرين، حاول النَّاس استعادة أعمال هؤلاء النِّساء الرحالة، وأعيد سرد مغامراتهن، وأعيدت طباعة كتب الرحلات التي كتبنها، وكانت الطريقة التي تناقش بها كتبهن تنقل شعورًا بأن هؤلاء النِّساء كنَّ يفعلن شيئًا ممنوعًا، أو يتعارض مع العرف. إليك عناوين هذه الكتب على سبيل المثال:

- سيدات منطلقات: النِّساء الرحالة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (1981).
- نساء متمردات: دليل إلى النِّساء الرحالة (1990).
- غير مناسب للسيدات: مختارات من كتابات السيدات الرحالة (2001).
- نساء مستكشفات: نساء جرأن على فعلها (2007).
- ليس فقط غطاء للرأس وأرداف مستعارة: المرأة الرحالة في إفريقيا في العصر الفيكتوري (2008).

- بركات التنورة السميكة الجيدة: عالم النِّساء الرحالة (2010).
- نساء مستكشفات: المخاطر، والمسدسات، والأثواب النسائية (2012).
- كيف تتسلقين الجبل الأسود بتنورة: دليل السيدة المغامرة (2012).

تمتدح العناوين إنجازات هؤلاء النِّساء، لكنها تلمّح إلى غرابة ذلك، وتشير سوزان باسنيت Susan Bassnett الباحثة في الأدب، إلى أن ثمة نبرة هزلية هنا يمكن بسهولة عدّها سخرية.

فالرسالة الواضحة هنا هي أن النِّساء الرحالة يختلفن عن باقي النِّساء[16]، فهؤلاء النِّساء في أثناء سفرهن لم يتصرفن كالنِّساء.

ويمكن أن يساعدنا الكشف عن مفاهيم التحيز الجنسي في فهم الطرائق التي شوَّهت رؤيتنا للكون، وتنبع أهمية التحيز الجنسي للسفر هنا من أننا نعطي للمفهوم الذكوري "للسفر" قيمة أعلى من المفهوم الأنثوي "لعدم السَّفر"، وتقول سيمون دي بوفوار، وهي شخصيًّا رحالة عظيمة، إن:

> الأولاد هم مَن يطوفون حول العالم في قصص المغامرات، فهم يسافرون بوصفهم بحَّارة على القوارب، ويعيشون على ثمار نبات الخبز في الغابات، وكل الأحداث المهمة تحدث بسبب الرجال، ويؤكد الواقع هذه الروايات والأساطير.
> فإذا قرأت الفتاة الصغيرة الصحف، أو استمعت إلى أحاديث الكبار، فستلاحظ أن الرجال هم مَن يقودون العالم، اليوم، كما كانوا في الماضي، فمن تعجب بهم من: حكام الدول، والقادة العسكريين، والمستكشفين، والموسيقيين، والرسامين، كلهم رجال[17].

---

(16) Bassnett (2005: 226).

(17) De Beauvoir (1949, 351).

فالرجال يبحرون بالقوارب، ويمكنهم العيش في الغابة، ويستكشفون أراضي جديدة، ونحن نعرف أن لهذه الأمور قيمة وأهمية؛ لأنها موضوعات تتناولها: الصحف، وكتب التاريخ، والروايات. والنِّساء، على العكس من ذلك، يمكثن في البيت، ويعتنين بالشؤون المنزلية، ويربين الأطفال.

وهذه الأمور نادرًا ما تكون موضوعات في الصحف، أو في كتب التاريخ، لذلك يبدو أنها ليس لها قيمة أو أهمية، فالنِّساء لا يقمن بأعمالٍ مثيرة، وهن لسن إلا أخوات مَن يقومون بأعمال مثيرة وزوجاتهم وبناتهم.

وبالرغم من أن الفلسفة تهتم بمفاهيم التحيز الجنسي بصفة عامة، فإنها لم تتحدث كثيرًا عن التحيز الجنسي في السَّفر تحديدًا، لكنه كان محل دراسة مُنظّرين كثر، بعيدًا عن الفلسفة، فيقول أحدهم: إن في مجتمعات عديدة يكون تعريف كل ما هو أنثوي بالوجود في البيت، على عكس كل ما هو ذكري، إذ يرتبط بالخروج والسَّفر[18]. ولأن المُعتاد أنَّ الرجال هم مَن يسافرون لا النِّساء، يصف باحث آخر السَّفر بأنه نشاط "متحيز جنسيًّا"[19]. ويشير منظرو الأدب إلى الطريقة التي كانت كتب رحلات المغامرات، مثل: **روبنسون كروزو**، وتخاطب الصبية، فقد كانت هذه الكتب تعزز القيم الأبوية التي تُعد الرجال أعلى مكانةً[20].

يمثل تحيز السَّفر الجنسي للرجال إشكالية من مناحٍ عدة، والسبب الأول: إن ذلك، تاريخيًّا، أعاق سفر النِّساء، وكان "الرحالة" توماس بالمر يرى ضرورة منع سفر النِّساء، إلا في حالات خاصة جدًّا، وسبب آخر هو أنه حتى وإن كانت النِّساء يسافرن بأعداد كبيرة منذ منتصف القرن العشرين، فإن سفرهن في أغلب الأحيان لا يُعترف به، ولا يُحتفى به. انظر هذه الكتب الأساسية عن السَّفر وتاريخه كتاب فوسيل Fussell **في الخارج** (1980)، وكتاب إيريك جيه.

---

(18) Enloe (2014: 21).

(19) Leed (1991: 90).

(20) Thompson (2011: 169-170).

ليد Eric J. Leed **عقل المسافر** (1991)، وكتاب دو بوتون De Botton **فن السَّفر** (2002)، ستجد أنه لا ذكر للنساء الرحالة بصفة عامة.

واليوم، ما زال الرجال يحتكرون قوائم "أهم" و"أشهر" الرحالة والمستكشفين، ففي مقال نشرته مجلة *Wunderlust* [**العجائب**] عام 2006 عن "أعظم عشرة رحالة في التاريخ"، وجد أن تسعة منهم من الذكور[21].

كذلك وضعت الجمعية الجغرافية الملكية في كتاب **المستكشفون: حكايات المثابرة والاستكشاف** قائمة تضم تسعة وخمسين مستكشفًا فرديًّا، منهم ستة وخمسون رجلًا، وفي عام 2011 وضع موقع expeditioner.com قائمة بعنوان: "أعظم ثلاثين رحلة في التاريخ"[22].

وهذه المقالة تحديدًا لافتة؛ لأنها تضع في القائمة الحيوانات الرحالة أكثر من النِّساء الرحالة، وفاق عدد مرات وجود مقاطع فيديو القطط، وخطاف البحر القطبي الشّمالي، والحيوانات البرية الأفريقية، وجود كيرا سالاك* وسيلفيا إيرل*.

ومثلما لم تقدَّر رحلات النِّساء، لم يقدر ما كتبنه من كتب الرحلات، فقد ظل الرجال يهيمنون على الكتابة عن الرحلات حتى سبعينيات القرن العشرين[23]. وظلت المشكلات بلا حل، وفي مقالة في مجلة **ماتدور** *Matador* نشرت في عام 2017، تشير مؤلفة كتب الرحلات كاري سبيكينغ[24] إلى أن

---

(21) http://www.independent.co.uk/travel/news-and-advice/the-10-greatest-travellers-of-all-time-6104262.html.

(22)

(*) Kira Salak هي كاتبة ومغامرة أمريكية. ولدت في 4 أيلول 1971. وهي أيضًا صحفية اشتهرت برحلاتها إلى مالي وبابوا غينيا الجديدة. أصدرت كتابين عن القصص، وكذلك كتابًا عن القصص الخيالية معتمدة على رحلاتها، وهي أيضًا محررة مشاركة في ناشونال جيوغرافيك. (المترجمة).

(*) Sylvia Earle هي مستكشفة أمريكية، ولدت في 30 آب 1935 في الولايات المتحدة. (المترجمة).

(23) See Hulme (2005: 89-90) and Bassnett (2005).

(24) https://matadornetwork.com/life/travel-writing-genderized-heres-needs-change/

المؤلفين الرجال يهيمنون على قوائم مثل قائمة صحيفة **التليغراف** "أفضل عشرين كاتب رحلات في التاريخ"[25]. وهي تلاحظ أن الكتاب السنوي مجموعة مختارة من **أفضل كتّاب الرحلات الأمريكية** لا يضم إلا عددًا قليلًا من الكاتبات، ففي سبعة عشر مجلدًا نشرت حتى الآن، لم يكن نصيب النِّساء منها إلا الثلث، لكن كلًّا من "بيل برايسون وبول ثيروكس ذُكرا مرتين".

ليس "السَّفر" وحده هو المفهوم المتحيز جنسيًّا، "فالفلسفة" أيضًا ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالذكور. جرب أن تطلب من شخصٍ ما في الشارع أن يذكر اسم فيلسوف، ستجد أن كلهم تقريبًا يذكرون اسم رجل: كونفوشيوس، وأفلاطون، وديكارت، وڤيتغنشتاين، وهايدغر. فدليل الشعراء الذي كتبه جوشوا بوول يقدم قائمة بالكلمات التي تقترن "بالفيلسوف"، وجانب "حكيم" و"متأمل" ضمت أيضًا كلمة "مُلتحٍ"[26]. ولا عجب أن هذا قد أدى إلى مشكلات في الفلسفة الأكاديمية؛ ومنها قلة تمثيل المرأة[27]. وكثير من المجالات الأخرى التي يسيطر عليها الذكور تعاني قضايا مماثلة.

مع ذلك، يلوح قدرٌ كبير من الضوء في الأفق، ففي السَّفر والفلسفة، يجري العمل على تحطيم القوالب النمطية الذكورية.

وزاد عدد الدراسات التي تتناول رحالة، مثل: غرترود بيل Gertrude Bell، وإيزابيلا بيرد Isabella Bird، وفيلسوفات مثل: آن كونواي Anne Conway، وماري أستيل Mary Astell.

كذلك نرى تزايد أعداد المقالات التي تحمل عناوين، مثل: "عشر نساء رحالة ملهمات"[28]. وازدياد الوعي بهؤلاء النِّساء سيزيل تدريجيًّا غلبة اللحى.

---

(25)

(26) Poole (1657: 155).

(27) https://www.bpa.ac.uk/uploads/2011/02/BPA_Report_Women_In_Philosophy.pdf

(28) هذه تحديدًا مقالة متميزة:
http://www.huffingtonpost.co.uk/alice-nettleingham/inspirational-female-travellers_b_9405484.html.

احملها معك بسهولة

في

الميدان، والبحر، والأماكن السّياحية، والأوبرا

النظارات المعظِّمة

ستُظهر لك الأشياء بوضوح من بُعد ميلين إلى ستة أميال

النظارات والعدسات الطبية

لتقوية النظر وتحسينه

تصحح كل عيوب الإبصار

يرسل الدليل المصور مختومًا

سيمونز- طبيب عيون واختصاصي بصريات

687 برودواي- نيويورك

PORTABILITY COMBINED WITH

FIELD,
MARINE,
TOURIST,
OPERA,

IN

GLASSES

Will show Objects Distinctly Two to Six Miles.

SPECTACLES AND EYE-GLASSES,

TO STRENGTHEN AND IMPROVE THE SIGHT,

ADJUSTED TO ALL DEFECTS OF VISION.

Catalogues sent by enclosing stamp.

SEMMONS, OCULIST AND OPTICIAN,
687 Broadway, New York.

11

أخلاقيات سياحة الفُرصة الأخيرة*

"لعل هذا تشاؤمي الطبيعي، لكن يبدو أن جزءًا كبيرًا لدرجة مخيفة من السَّفر في هذه الأيام هو لمشاهدة أشياء ربما لن يمكنك رؤيتها مرة أخرى".

بيل برايسون، إلى أستراليا ونيوزيلندا، (2000)

عندما نسافر إلى مكانٍ ما، فإننا نسافر في وقت محدد، فالسَّفر إلى الولايات المتحدة في عام 2020 لابد أن يكون مختلفًا تمامًا عن السَّفر إليها في عام 1920 (أو حتى في عام 2120)، فالأماكن تتغير، وأحيانًا تزول من الخارطة نهائيًّا، فقد دمر القتال برج الخزف في نانجينغ [الصين] خلال خمسينيات القرن التاسع عشر.

وفي عام 1982، غمر مشروع كهرومائي برازيلي أقوى مسقط مائي في العالم، شلالات غوايرا، تحت بحيرة صناعية، وقد سافرت بحقيبة ظهر واحدة في أنحاء سوريا في عام 2005، وشاهدت الجامع الأموي في حلب وأطلال تدمر، لكن هذه المواقع المهيبة دُمرت إلى حدٍّ كبير في أثناء الحرب.

تُوجد البقاع السّياحية دائمًا، وتختفي من الوجود. مع ذلك، ثمة شعور متزايد بأن بعض الأماكن ستختفي من الأرض قريبًا جدًّا بشكل **جماعي**؛ بسبب تغيّر المناخ، وقد أدى هذا إلى زيادة كبيرة في "سياحة الفرصة الأخيرة"، إذ

(*) وتسمى أيضًا سياحة الموت Doom Tourism، ويشمل هذا الاتجاه زيارة الوجهات أو الأنواع المهددة بالانقراض التي قد تختفي قريبًا نتيجة التهديدات البيئية من التلوث إلى العولمة. مع تحذير العلماء من الأخطار الوشيكة لتغير المناخ والاحتباس الحراري. (المترجمة).

يندفع المسافرون إلى مشاهدة جزر المالديف قبل أن يغمرها البحر، والحقول الجليدية في كولومبيا قبل أن تذوب، فالسّياح لا يريدون أن تفوتهم "الفرصة الأخيرة" لمشاهدة هذه الأماكن.

ألاسكا تواجه بالفعل تغيرًا مناخيًّا، ففصول الشتاء الدافئ تتسبب في ذوبان طبقات الجليد الصقيعية، وتراجع الجليد البحري[1]. هل سمعت أسطورة أن "لدى الإسكيمو خمسين كلمة للدلالة على الثلج؟" وهذه الأسطورة إشكالية؛ لأسباب ليس أقلها أن في القطب الشّمالي شعوبًا أصلية عدة، تتحدث لغات عدة مختلفة[2].

مع ذلك، فهذا شيءٌ من الحقيقة. على سبيل المثال: لدى شعب اليوبيك Yupik people في غربي آلاسكا كلمات عدة مختلفة مقابل كلمة الجليد البحري، لكنَّ الباحثين وجدوا أنَّ بعض هذه الكلمات، مثل: كلمة تاغنينق *tagneghneq* (الجليد السميك الداكن الحائل) صارت نادرة الاستعمال[3].

إنني لم أسافر إلى ألاسكا؛ بسبب مخاوف الفرصة الأخيرة، لكنني سافرت مرة إلى أنتركتيكا، وهذه المخاوف في خاطري، فعندما كنت صغيرة، كنت أستنشق قصصًا عن مستكشفي أنتركتيكا: إرنست شاكلتون، وروالد أموندسن، وأبسلي تشيري - جيرارد، وعندما كبرت، خشيت أنني إن لم أرَ القارة البيضاء في حالتها الأصلية قريبًا، فسوف أفقد هذه الفرصة إلى الأبد.

كانت سياحة "فرصة المشاهدة الأخيرة" موجودة منذ وقتٍ طويل، ففي عام 1989، سافر آلاف السّياح إلى ألمانيا؛ ليشهدوا سور برلين "لآخر" مرة

---

(1) https://climatechange.alaska.gov.

(2) أصل ذلك في كتاب عالم الأنثروبولوجيا فرانز باوز Franz Boas (1911)، ولنظرة عامة حديثة يسهل الوصول إليها عن المناقشة (المثيرة للجدل في ذاتها)، انظر:
https://www.newscientist.com/article/mg21628962.800-are-there-really-50-eskimo-words-for-snow/.

(3) https://www.theguardian.com/environment/2016/dec/19/alaska-sea-ice-vanishing-climate-change-indigenous-people.

قبل سقوطه[4]. لكن السنوات القليلة الماضية شهدت ارتفاعًا حادًّا في هذا النوع من السّياحة، وهذا يرتبط بزيادة الوعي بتغير المناخ.

وقد تعرضت الأرض إلى دورات من السخونة والبرودة خلال تاريخها، لكن ثمة إجماع علمي على أن فترة الاحترار الأخيرة المتسارعة من أفعالنا[5]. ذلك لأن عملية حرق الوقود الحفري مثل النفط والفحم تطلق غاز ثاني أكسيد الكربون وغيره من الغازات في الغلاف الجوي، فلنتخيل أن الغلاف الجوي كأنه غطاء للكوكب يحبس حرارة الشَّمس، وكلما زاد سُمك الغطاء، يقل تسرب الحرارة، فتزيد حرارة الأرض، ويقدّر العلماء أن ارتفاع درجة حرارة الكوكب أسرع عشر مرات من دورة السخونة والبرودة العادية فيه.

يتغير كثير من ملامح الأرض؛ بسبب ارتفاع درجة حرارتها، فالأنهار الجليدية حول الأرض تتراجع، باستثناءات قليلة (وتُخلِّف وراءها ـ كما قال عالم الطبيعة جون موير ذات يوم ـ تجاويف تشبه آثار "الحيوانات المهاجرة")، وتشهد المناطق الشّمالية في العالم غطاءً جليديًّا أقل، وطبقات صقيعية أقل، وتزداد حرارة المحيطات، وبعض الحيوانات المائية لا تظل على قيد الحياة في المياه الدافئة، وهذا ما أدى إلى تحول الشعاب المرجانية إلى "اللون الأبيض" وموتها، وشهد عام 2016 تلاشي مساحات شاسعة من الحاجز المرجاني العظيم في أستراليا[6].

وفي القطبين، تذوب الصفائح الجليدية والجليد البحري، وهذا يؤدي إلى ارتفاع مستويات مياه البحار في الكوكب، وتوجد أجزاء من جزر كريباس بالفعل تحت المياه، وهناك مشروع قيد التنفيذ لإعادة تسكين مواطنيها في جزر فيجي[7]. وقد شهدت السنوات العشر الأخيرة ارتفاعًا في منسوب مياه البحار

---

(4) See Dawson et al. (2011: 254).

(5) https://climate.nasa.gov/evidence/.

(6) http://edition.cnn.com/2016/11/28/asia/great-barrier-reef-coral-death/.

(7) http://uk.businessinsider.com/islands-threatened-by-climate-change-201210?r=US&IR=T/#kiribati-1.

على الكوكب بلغ قدره 4 سنتيمترات، وترى التقديرات العلمية المستقبلية أن ارتفاع مستوى البحار قد يصل إلى مترين خلال القرن القادم، وحتى لو كان الارتفاع نصف متر فقط، فإن هذا سيؤدي إلى مشكلة هائلة للمناطق الساحلية، مثل: جزر المالديف، وسيشل، وجزر سليمان، وجزر مكرونيزيا، وهولندا، وجنوبي ولاية فلوريدا.

أدى ازدياد الوعي بأن هذه الأماكن مُعرضة للخطر إلى زيادة الحافز إلى زيارتها، و"سياحة الفرصة الأخيرة" ليست العنوان الوحيد لهذه الظاهرة، إذ يطلق عليها أيضًا: "سياحة الكوارث"، و"سياحة الموت"، و"سياحة الاندثار"، بل حتى "استراق النظر لتغير المناخ"[8]. هذه المخاوف دفعت دوغلاس آدمز Douglas Adams، ومارك كارواردين Mark Carwardine إلى نشر كتابهما **فرصة أخيرة لتشاهد** *Last Chance to See* (1990).

سافر الكاتب وعالِم الحيوان إلى أماكن غريبة؛ بهدف العثور على أنواع على وشك الانقراض، ومن بينها تنين كومودو الإندونيسي ودرفيل نهر يانغتسي الصيني.

وذكرت مقالة نُشرت في **التايمز** في عام 2014، بعنوان: "عشرة أماكن رائعة زوروها قبل تلاشيها"، من بينها منتزه مونتانا الجليدي الوطني وجزر سيشيل[9]. وفي مقالة نشرت في مجلة **راف غايد** *Rough Guide* في عام 2016، بعنوان: "20 وجهةً يجب أن تراها قبل أن تندثر"، كانت من بينها غابات البرازيل المطيرة، وجبل كليمنجارو في تنزانيا، والحقول الجليدية في الأرجنتين. وتشرح مقالة نشرت عام 2016 في مجلة **كوندي ناست ترافيلر** Cond¦ Nast Traveller أن الاحتباس الحراري هو السبب في اختفاء هذه الأماكن التي ذكرت في العنوان[10].

---

(8) See Eijgelaar et al. (2010) and Dawson et al. (2011).

(9) http://time.com/42294/amazing-places-visit-vanish/.

(10) http://www.cntraveler.com/gallery/10-places-to-visit-before-theyre-lost-to-climate-change.

آثار الاحتباس الحراري: اثنا عشر مكانًا على وشك الاندثار:

1. البحر الميت.
2. جبال الألب.
3. الحاجز المرجاني العظيم.
4. غابات الأمازون.
5. فينيسيا (البندقية).
6. وادي الرون [فرنسا].
7. جزيرة كي ويست [ولاية فلوريدا].
8. جزر المالديف.
9. ألاسكا.
10. نابا فالي [كاليفورنيا].
11. مومباي.
12. الحديقة الوطنية الجليدية [ولاية مونتانا الأمريكية].

كوندي ناست ترافيلر (2016)

ما المشكلة الأخلاقية في "سياحة الفرصة الأخيرة"؟ الأخلاقيات هي فرع الفلسفة الذي يُعنى بالأخلاق، أي: بالصواب والخطأ. وبعض أفعال البشر، كـ: السرقة، والقتل، تُعد بصفة عامة **خطأً**.

في حين أن أفعالًا أخرى مثل: العناية بالمرضى وأعمال البر، تُعد بصفة عامة **صوابًا**، ولا يوجد شيء غير أخلاقي في ممارسة سياحة الموت، أو سياحة الفرصة الأخيرة، في حد ذاتها. فإذا كان المد على وشك أن يجتاح قلعة رملية، فلماذا لا نجري نحو الشاطئ لنصوّر اللقطة الأخيرة لها؟

المشكلة هي أن فعل زيارة الأماكن "المعرضة للخطر" قد تعجّل بزوالها، فالسائح الذي يزور الشعاب المرجانية قد يصطدم بهذه المخلوقات بدون قصد،

أو يترك مخلفات وبقايا واقي الشَّمس في المياه، كذلك يمكن أن يتغير سلوك الأسماك إذا أطعمها السّياح، ويتركز سياح القطب الشّمالي في مناطق محددة، ويمكن أن تتسبب الأعداد الكبيرة في دهس النباتات الرقيقة، كما أن صخب القوارب والطائرات العمودية (الهليكوبتر) تعكر صفو الحياة البرية، كذلك، فإن الفضلات لا تتحلل في درجات التجمد.

وفي بعض الأحيان، تكون الأماكن المهددة أو المعرضة للخطر نائية، فتتطلب نفقات وقود باهظة للانتقال إليها بـ: الطائرات، أو القطارات، أو السفن. والرحلات القطبية تحديدًا ضارة بالبيئة؛ لأنها تسبب انبعاث معدلات مرتفعة من غاز ثاني أكسيد الكربون من كل شخص في كل رحلة[11]. وخلال العقد الماضي، صارت هذه المشكلة تُعرف "بمفارقة" سياحة الفرصة الأخيرة، إذ يهرع السّياح لزيارة مكان ما قبل اندثاره، بالرغم من أن هذا الفعل بالذات يُسهم في تدمير المكان، فإن كانت مسألة زيارة الأماكن المُعرضة للخطر تعرضها لخطر أكبر، فإن زيارتها تتعارض مع الأخلاق.

إننا نؤمن عادة بأن تدمير الأشياء القيّمة أمرٌ لا أخلاقي، فالقتل خطيئة؛ لأنَّ حياة البشر غالية، ومن الخطأ أن تُدمَّر متاحف الفنون؛ لأن الأعمال الفنية قيّمة، فإذا كانت الأنهار الجليدية أو الشعاب المرجانية قيّمة، فإن من الخطأ التعجيل باندثارها.

فلماذا قد نظن أنَّ الأماكن المُعرَّضة للخطر قيّمة؟

تهتم الأخلاقيات البيئية بهذا النوع من الأسئلة تحديدًا، وهي تقدم نوعين من الإجابات:

أولها: إن هذه الأماكن قيّمة بالنسبة **للبشر**، فسكان جزر كريباس يحتاجون إلى جزرهم؛ ليعيشوا فيها، وتلويث الأماكن الطبيعية يضر بصحتنا، وتدمير

---

(11) Eijgelaar et al. (2010).

الشعاب المرجانية يُدمِّر مخلوقات نعدّها جميلة[12].

وثانيها: هي أن هذه الأماكن قيّمة **لذاتها**، فالحفاظ على الحيوانات والنباتات أمرٌ مهم، بصرف النظر عن مدى نفعها للبشر، وعلينا أن نقدّر ثراء الحياة غير البشرية وتنوعها لصالحها وحدها[13].

وهذه المطالبات تكون عادة من أجل الحيوانات والنباتات، لكننا يمكن أن نمدها لتشمل الطبيعة الساكنة. فالأنهار الجليدية والمناطق الساحلية أيضًا ثرية ومتنوعة، وعلينا أن نقدّرها بالمثل، وهذا هو رأي هنري ثورو وجون موير.

كثير من الأماكن المُعرَّضة للخطر تُعد قيّمة بالنسبة للبشر، فإننا جميعًا نريد أرضًا نظيفة نعيش عليها، ونزرع فيها غذاءنا، وتمدنا بالماء، وأنا أيضًا أؤمن بأن هذه الأماكن قيّمة بذاتها، فإن كنت ترى أنها قيّمة **بأي** صورة، فالصواب هو أن تحميها؛ ولأن السّياحة تضر بهذه الأماكن، يبدو أن أفضل السبل لحمايتها هو منع السّياحة إليها، فذلك يمكن أن يحد من الضرر الذي يسببه زوارها من البشر، ويبطئ تدميرها.

لكن بعض المفكرين كانوا يرون أننا ينبغي ألا نمنع سياحة الفرصة الأخيرة؛ لأن منافع السّياحة تفوق مساوئها، فبالرغم من أن السّياحة قد تعجل بزوال الأماكن المعرضة للخطر، فإنها يمكن أن تحميها أيضًا، ويمكننا تحقيق ذلك بإعداد "سفراء سياحيين" للأماكن المهددة.

فالسفير السياسي يمثل بلده في الخارج، ويراعي مصالحها القومية. وعلى المنوال نفسه، يمثل السفير السّياحي مكانًا مهددًا، ويعلن قدر قيمته وسهولة تأثره، والسَّفراء السياسيون على دراية تامة ببلادهم، والسَّفراء السّياحيون على معرفة وثيقة بأماكنهم المعرضة للخطر، وتهدف "الرابطة الدولية لمنظمي السّياحة في أنتركتيكا" The International Association of Antarctica Tour Operators إلى

---

(12) نص كلاسيكي يعبر عن هذه الرؤية Passmore (1974).

(13) هذه المطالبات مُستقاة من قائمة أعدها Naess and Sessions، انظر Naess (1986).

"إنشاء فيلق من السَّفراء لحماية أنتركتيكا المستمرة عن طريق إتاحة الفرصة للوجود في القارة عن كثب"، وهذه الألفة تتيح لهم الارتباط الوجداني بها، وقد صارت سارة ويلر واحدة من هؤلاء السَّفراء في أنتركتيكا[14].

إنَّ خطة اختيار سفراء سياحيين خطة معقولة من حيث المبدأ، ويمكن أن يأسر سياح أنتركتيكا جمالُ القارة وأنظمتها البيئية الفريدة، ولعلهم يرجعون إلى بلادهم بفهم أفضل لكيفية حمايتها، وربما يخبرون أحباءهم "باتفاقية أنتركتيكا" التي تحفظ أنتركتيكا حاليًّا للأغراض السلمية والعلمية، وقد يناقشون سبل التغلب على تغير المناخ بصفة عامة، وبناءً على هذه الخطة، يمكن من الجهة الأخلاقية السماح باستمرار السّياحة.

المشكلة في الخطة هي أنها لا تبدو حلًّا ناجعًا، فقد بيّن عدد من الدراسات أن سياح الفرصة الأخيرة، بالرغم من الآمال العريضة، لا يصبحون سفراء سياحيين، إذ لم تجد إحدى الدراسات في عام 2010 أي دليل على أن سياح أنتركتيكا قد عادوا من رحلتهم بوعي بيئي أكبر[15].

ووجدت دراسة أخرى في عام 2014 أن بعض السّياح بعد العودة من أنتركتيكا صارت لديهم من أوجه عدة توجهات **أقل** صداقة للبيئة، وفضلًا عن ذلك، لم تزد معرفتهم بحيوانات أنتركتيكا إلا بالنَّزْر اليسير.

وتخلص هذه الدراسة إلى أن "السّياح العائدين من أنتركتيكا لا يقومون بدور السَّفراء على ما يبدو؛ لأن كثيرًا من الزوار لا يريدون إلا فرصة أخيرة لأخذ لقطة أخيرة لعالم يتلاشى[16].

وتوصلت دارسة في عام 2016 إلى أن نحو 70% من سياح الحاجز المرجاني العظيم كان دافعهم لزيارته مشاهدته قبل أن يندثر، مع ذلك، لم يكن

---

(14) http://www.wanderlust.co.uk/magazine/articles/interviews/sara-wheeler-interview?page=all.

(15) Eijgelaar et al. (2010).

(16) Vila et al. (2016).

هناك "ارتباط" يُذكر بين قلق السّياح على الشعاب المرجانية، وما يمكن أن تسببه زيارتهم لها من أضرار[17].

على ضوء هذا الدليل، يُتاح للسياح خياران أخلاقيان:

الخيار الأول: إيقاف السّياحة تمامًا في الأماكن المهددة، والخيار الثاني: استمرار السّياحة في الأماكن المهددة، مع بذل جهد أكبر في السَّفر بمسؤولية. وتوجد مشروعات عديدة تمكن النَّاس من التعويض عما يسببونه من انبعاثات الكربون، منها غرس الأشجار[18]. كذلك يمكن لشركات السّياحة والسّياح الأفراد أن يعملوا بجدٍّ على تعريف كل النَّاس بالأماكن المهددة.

وفي رأيي، إن المزيد من معرفة السّياح عن الأماكن المهددة يمكن أن تنفعهم بطرائق غير متوقعة، ويرى بعض الفلاسفة أنَّ المزيد من **المعرفة** عن الأماكن الطبيعية تجلب المزيد من **المتعة**. ويمكن تطبيق هذا الخط الفكري على سياحة الفرصة الأخيرة.

عرفنا بالفعل "الجماليات"، ذلك النسق الفلسفي الذي يُعنى بالجمال والفن، أما "الجماليات البيئية"، فتُعنى بنوع محدد من الجمال: جمال العالم الطبيعي، ويعمل ألين كارلسون في هذا المجال، ويقارن بين تقديرنا للأعمال الفنية التي صنعها الإنسان وتقديرنا للطبيعة[19]. حين كنت في نيويورك، زرت متحف الفن الحديث، وكنت حريصة على مشاهدة لوحة ڤان جوخ **ليلة النجوم** تحديدًا؛ ولأنني أثمّن التصوير الزيتي، كنت أعي **ما** ينبغي تقديره، وفحصت اللوحة المرسومة على القماش، وليس الإطار ولا الجدار المحيط بها، وكنت أعي كذلك **كيف** ينبغي أن أقدرها، ونظرت إلى **ليلة النجوم**، ولم أستمع إليها، ولم أشمها، ولم أتذوقها.

---

(17) Piggott-McKellar and McNamara (2016).

(18) http://www.carbonfootprint.com and http://www.worldlandtrust.org/eco-services/offsetting/individuals.

(19) Carlson (1979).

في المقابل، لا نعي بوضوح ما الذي ينبغي أن نقدره في الطبيعة وكيف نقدره.

يضع كارلسون في حسبانه إجابات مختلفة، على غِرار تقديرنا للأعمال الفنية، ولعل حريًّا بنا أن نقدّر منظرًا جبليًّا بنفس الطريقة التي نُقدِّر بها لوحة ڤان جوخ، أي: أن نقف بلا حراك إعجابًا بالمنظر، لكن كارلسون يرى أن هذا لا يؤتي ثمرًا، فالتلال، بعكس اللوحة، ليست ثنائية الأبعاد، ولا ساكنة، ولا هي مُحاكاة لشيء آخر، ويقول كارلسون: إننا إن أعجبتنا التلال بنفس طريقة إعجابنا باللوحة، فإننا لا ندرك كُنه التلال، إن ما نراه ليس مجرد منظر جبلي، بل نشم أيضًا رائحة الخلنجان، ونسمع صوت الرياح، وتوخز أرجلنا فروع شجيرات الجولق، ويصمم البشر اللوحات لتلائم القماش، وتوجه العين بطرائق محددة، أما البيئات الطبيعية، فلا إطار لها ولا نقاط محورية.

يقول كارلسون: إن هذا لا يعني عدم وجود طرائق أفضل أو أسوأ لتقدير الطبيعة، فالمعرفة الوثيقة بتاريخ الفن وتراثه يمكن أن تساعدنا في تقدير اللوحات على نحو أفضل، وذلك "بالبحث عن الخطوط في مدرسة فلورنسا وعن الألوان في مدرسة بونارد".

وبالمثل، المعرفة الوثيقة بالطبيعة تساعدنا في تقدير البيئات الطبيعية على نحو أفضل، ويمكننا أن نجد هذا النوع من المعرفة في العلم.

حين اخترقتُ حديقة دينالي، رأيت بقعًا من اللون الأخضر تنتشر في كل اتجاه، ولو كان جواري عالِم نباتات، لكانت هذه تجربة مختلفة، إذ كان سيرى الصفصاف والألدر، ولميّز التنوب من أشجار البتولا، فعالِم النبات سيدرك مسألة تقشير الجذوع وأشكال الأوراق الملتوية ويفهمها.

كان كارلسون يرى أن خبرة عالم النبات الجمالية يمكن أن تكون أفضل من خبرتي؛ ذلك لأن اتساع معرفة علماء النبات ستتيح لهم رؤية الحديقة بشكل أشد ثراء، وملاحظة سمات دالة للمنظر الطبيعي. كذلك سيكون بوسعهم معرفة ما يستحق التقدير، وكما أن الناقد الفني والمؤرخ الفني "مؤهلان تمامًا" لتقدير

الجمال في الفن، فإن عالِم الطبيعة وعالم العلوم البيئية مؤهلان تمامًا لتقدير الجمال في الطبيعة.

فإن كانت هذه الحجة صائبة، فإن التعرف على جيولوجية أنتركتيكا أو الحياة البرية فيها، يجب ألا يقتصر على أنتركتيكا فقط. وتحويل السّياح إلى سفراء أمر مفيد من مناحٍ عدة، وهو مفيد للسياح أيضًا؛ لأن تلك المعرفة ستتيح لنا تقدير جمال القارة برؤية خصبة جديدة.

وبنظرةٍ إلى المستقبل، إن باءت محاولتنا لحماية أماكن مثل أنتركتيكا أو الحاجز المرجاني العظيم بالفشل، فستستمر هذه المواقع في التلاشي، وللأسف كلما زاد تعرضها للخطر، سيزداد عدد زوارها. وفي المقابل، إذا نجحنا في حماية هذه الأماكن، فربما يتوقف تعرضها للخطر، وقد يؤدي ذلك إلى انخفاض عدد الزوار.

إن تغير المناخ سيؤثر فينا جميعًا، لكنه يضرب بعض الأماكن قبل غيرها، ولنأخذ مثلًا سكان شيشماريف، وهي قرية جزيرة في ألاسكا شمالي مضيق بيرينغ.

فقد صوّتوا في عام 2002 لصالح إعادة توطينهم في البر الرئيس للولاية؛ لأن جزيرتهم، من دون تحصينات باهظة الثمن ضد أضرار الفيضانات، لن تتمكن من الصمود أمام التآكل الناجم عن تغير المناخ. وللأسف، لما كان برنامج إعادة توطينهم سيتكلف تكلفة باهظة أيضًا، فإنه لمَّا يتم بعد[20].

في الوقت نفسه، في عام 2016، تكفلت حكومة الولايات المتحدة بأموال إعادة توطين سكان جزيرة دي جان شارل، في لويزيانا، فقد كانت جزيرتهم تغرق في البحر[21]. وظهر لاجئو تغير المناخ داخل حدود الولايات المتحدة. مع

(20) https://www.theguardian.com/us-news/2016/aug/18/alaska-shishmaref-vote-move-coastal-erosion-rising-sea-levels.

(21) https://www.nytimes.com/2016/05/03/us/resettling-the-first-american-climate-refugees.html?_r=0.

ذلك، في عام 2017، يمكن القول: إن الرئيس الأمريكي لمّح إلى أن الظاهرة مجرد خدعة[22].

كثير من المشكلات التي عرضناها في هذا الكتاب مازالت محل جدل اليوم، فلم نزل متوجسين بشأن طبيعة الخرائط، وأفضل السُّبل لإدارة العلم، وما الذي تعنيه أفكار الشعوب الغريبة عنا عن الفطرة. لكن، مع تقدم القرن الحادي والعشرين في ظل ما يلوح في الأفق من تغير المناخ، ربما يطغى نوع المشكلات الأخلاقية التي ناقشناها هنا على قضايا فلسفة السَّفر كافة.

(22) https://www.nytimes.com/2017/06/02/us/politics/climate-change-trump-hoax-scott-pruitt.html.

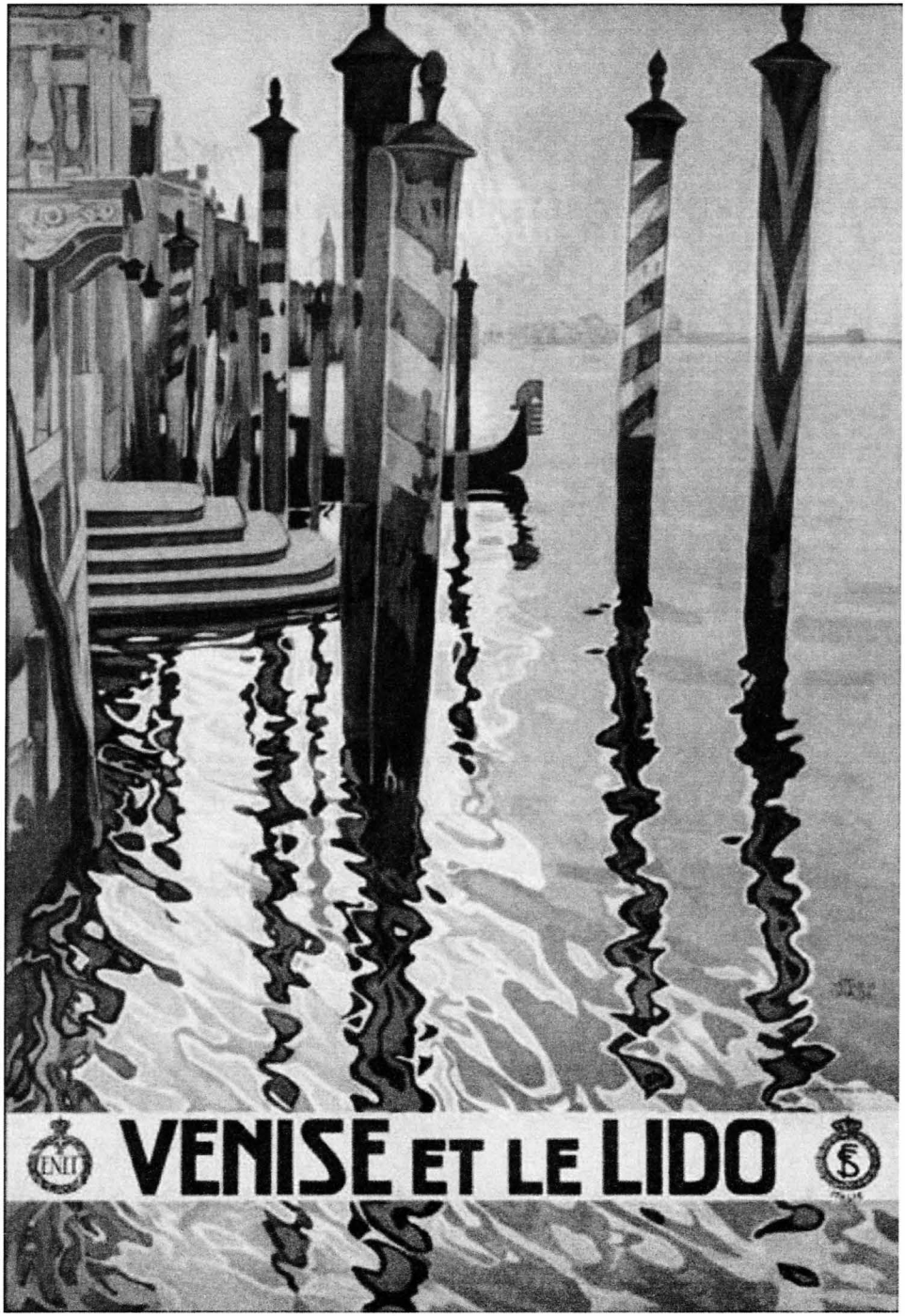

فينيسيا والليدو

12

هل سيبين السَّفر إلى الفضاء الخارجي أن الأرض لا قيمة لها؟

تُضفي الهيئة البشرية على نفسها عظمة هائلة عندما تقابلها مُنعزلة في مشهدٍ لا يمثل الإنسانية من أي وجه... إذ تظهر ضآلة المخلوق البشري وضعفه هناك بوضوح تام... وهذا شعور حقيقي يُمثل البشرية كما هي، وسط قِدم الأرض وحجمها وعظمتها. والأمر يستحق رحلة طويلة شاقة لتحقيقه.

فريا ستارك "أماكن نائية" (1950) Freya Stark, 'Remote Places'

هبطت بي الطائرة في أمستردام، ومعي حقيبة تمتلئ بأشياء غريبة: خردل ألاسكا "موسيتارد". **والكيفيوت**، تلك الطبقة التي تحت صوف ثور المسك.

لحم سمك السلمون المقدد. سأستغني عن معظمها، لكنني خططت للاحتفاظ بشراب البتولا، إذ إنه يتوافق تمامًا مع الفطائر الهولندية المحلّاة.

في مطار شيفول كان حارس الحدود مهذبًا، وقوي البنية، ووسيمًا (وكل حراس الحدود الهولنديين يتسمون بقوة البنية والوسامة، ويبدو أنهم جمعوهم من أرجاء البلاد باتفاق سري؛ ليحققوا معايير الوظيفة).

قال بهذه اللهجة المصقولة الهادئة: "مساء الخير، ما الغرض من زيارتك هولندا؟"

فقلت بالهولندية: "مساء الخير، إنني أقيم في غروننغن" *'Goedenavond. Ik woon in Groningen'*. كانت لغتي الهولندية ضعيفة، لكنني أستطيع أن أتعامل بها بقدر معقول.

فغمز بعينه وهو يقول: "تقيمين في غورننغن؟"

- "نعم".

- "إذًا تفضلي"، طوى الحارس بطاقة صعودي إلى القطار داخل جواز السَّفر، وأعاده لي عبر الفتحة بإيماءة شفقة، وأضاف: "رحلة ممتعة" *"Goede treinreis"*.

كان يتمنى لي رحلة ممتعة بالقطار، وكانت الرحلة إلى غرونغن تستغرق ساعتين باتجاه الشّمال من أمستردام، لكنها بالنسبة للهولنديين المنطقة الجليدية النائية.

أجبت بأسى: "أشكرك"، بالرغم من أن المنطقة الجليدية ليست نائية إلى هذه الدرجة.

لم أتمكن من العمل في القطار المتجه إلى البيت، فقد كان ذهني مشوشًا، وبدلًا من ذلك، كنت أنظر إلى المشهد الذي يمر عبر النافذة، حقول من حبر فوقها سماء حبرية. أميال من المستطيلات مخططة بخنادق الري.

إنه عالم **ضخم**، رأيت أجزاء من ألاسكا، وكنت عائدة إلى مدينة تبلغ مساحة مركزها على أقصى تقدير ميلين مربعين، وبين الرحلتين كنت قد طرت فوق أكثر من 4000 ميلًا من الكوكب، وهذا هو كوكبنا فقط، وتبلغ المسافة بينه وبين القمر نحو 238،900 ميلًا أخرى، وبحسب موقع الأرض في المجرة، تبلغ المسافة بينها وبين المريخ نحو 140 مليون ميلًا.

إننا لم نعرف إلا جزءًا ضئيلًا مما في الفضاء الخارجي، وما نفهمه منه أقل من ذلك. وعند النظر إلى الأمام وإلى الأعلى، أتساءل ماذا يمكن أن تقول الفلسفة عن هذه الأعماق؟ وماذا يمكن أن تقول عن السَّفر إلى الفضاء؟

يمكن أن يغير السَّفر طريقة إحساسنا بأوطاننا، فإنك قد تعتقد قبل السَّفر إلى الخارج أن بلدتك أجمل وأهم مكان في العالم، لكن ذلك على الأرجح لن يكون شعورك عند عودتك، وفي هذا السياق، أحبط سقراطُ ذات مرة مالكَ أرض ثري حين بيّن له أن عزبته "الضخمة" لا يمكن أن تظهر على خارطة

العالم، ويقول ريتشارد لاسيلز سائق الدببة في الجولة الكبرى أن السَّفر يهبط بفخر النبلاء بضع درجات، إذ يرون مدى صغر مساحة أراضيهم وبلادهم.

ويرى الروائي جوستاف فلوبير أن السَّفر يجعلك معتدلًا: "فإنك ترى قدر ضآلة المكان الذي تشغله في العالم"، فالسَّفر يكشف لنا مدى صغر مساحة أوطاننا بإظهار مدى ضخامة مساحة العالم.

والمؤكد أننا لا نقدر الشيء بحجمه، لكننا أحيانًا نعطي للأشياء الكبيرة قدرًا أكبر من الأشياء الصغيرة، فالمنازل الكبيرة عادة سعرها أغلى من المنازل الصغيرة، وشطيرة اللحم المزدوجة ثمنها أغلى من الشريحة الواحدة، ومع ذلك لا يوجد ارتباط أساسي بين الحجم والقيمة، فبعض الأشياء الصغيرة يمكن أن تكون بنفس قيمة أشياء كبيرة.

تخيل أن ڤان جوخ قد رسم مجموعة من اللوحات المصغرة لمناظر طبيعية، وتتألق كل لوحة منها بالألوان، بالرغم من أن مساحة كل لوحة لا تتجاوز بوصة مربعة. بالطبع كانت قيمة هذه اللوحات المصغرة ستتساوى مع قيمة غيرها من لوحات ڤان جوخ، إن لم تزد قيمتها؛ بسبب تعقيدها.

وعلى هذا المنوال، لنأخذ مثالًا عن سكان ليليبوت في رواية **رحلات غليفر**، الموضحة بالشَّكل 12-1.

يصوِّر غليفر هؤلاء النَّاس بأنهم صور مصغرة للبشر، ويبلغ طول قامة الواحد منهم نحو ست بوصات.

ويعيش سكان ليليبوت في منازل صغيرة، ويعملون في بلدات صغيرة، لكن كل واحد من ليليبوت كائن يفكر ويشعر، مثلنا تمامًا.

وإن كان لهؤلاء وجود، فأنا أعتقد أننا كنا سنقدر، ويجب علينا أن نقدر حياتهم تقديرًا عاليًا كما نقدر حياتنا، فإن تقديرنا لحياة الأطفال لا يقل عن تقديرنا لحياة الكبار، وكذلك لا يقل تقديرنا لحياة النحفاء أو قصار القامة عن تقديرنا لحياة البدناء أو طوال القامة .وعند إخلاء مكانٍ ما لا أحد يصيح: "الضخام أولًا".

الشَّكل 12-1 غليفر وسكان ليليبوت

وهكذا، يجب ألا يؤثر حجم الشيء في تقديرنا له، فاللوحة يمكن أن تكون قيّمة بصرف النظر عن حجمها، وحياة المرء ثمينة سواءً أكان عملاقًا أم من سكان ليليبوت، في عام 1951، طرح برتراند راسل هذا الرأي نفسه:

> ما من سبب لتقديس الحجم وحده، فإننا قطعًا لا نحترم شخصًا بدينًا أكثر من شخصٍ نحيف، فقد كان سير إسحق نيوتن أصغر كثيرًا من فرس النهر، لكن تقديرنا له لم يقل بسبب ذلك[1].

إن لم يكن هناك ارتباط بين الحجم والقيمة، فينبغي ألا يقلل حجم موطنك من قيمته. والمشكلة هي أننا حين نصل إلى إدراك مدى صغر أوطاننا، يتغير رأينا فيها في كثير من الأحيان، فماذا يحدث؟

يمكننا الإجابة عن هذا السؤال بالاستعانة بتمييز غاي كاهانا بين **القيمة والأهمية**.

يقول كاهانا: إن الشيء المهم لابد أن تكون له قيمة، لكن مجرد قيمة الشيء لا تجعله مهمًّا.

فالأهمية تقتضي أن يكون للشيء شأن، بمعنى أن ذلك الشيء يستحق انتباهنا واهتمامنا. ويشرح ذلك قائلًا:

> نرى حولنا أن أشياء رهيبة (أو رائعة) كثيرة تصبح بلا أهمية - ولا تستحق أي انتباه على الإطلاق، فإذا شهدتَ مأساة مروّعة، فلن تزعجك بقعة على بذلتك، فبعد أسبوع من جنود مصابين ومشوهين في الحرب الأهلية، كتب ويتمان إلى أمه قائلًا: "... لا شيء مما كنا نسميه أمرًا مزعجًا يستحق أن نتحدث عنه"[2].

---

(1) Russell (2009: 270).

(2) Kahane (2014: 750).

ومثال آخر لذلك: تأمل لوحة ڤان جوخ **أزهار الكرز**، لهذه اللوحة أهمية جوهرية بوصفها عملًا فنيًا.

تخيل أنك تنظر إلى هذه اللوحة في متحف ڤان جوخ بأمستردام جانب عدد كبير من لوحاته الأخرى.

وربما يقول أحد نقاد الفن: إن لهذه اللوحة بالذات أهمية **خاصة**، بوصفها علامة بارزة على التطور الفني عند ڤان جوخ.

تخيل الآن أن كل لوحاته الأخرى تلفت، عندها ستكون للوحة **أزهار الكرز** هذه أهمية **قصوى** بوصفها آخر ما تبقى من أعمال ڤان جوخ.

الفكرة هي أن قيمة الشيء الجوهرية لا يمكن أن تتغير، فالقيمة الجمالية للوحة ڤان جوخ تظل كما هي مهما حدث، لكن إن أصبحت اللوحة فريدة من نوعها، فستزيد قيمتها.

وإحدى السبل التي يمكن أن تتغير بها قيمة الشيء هي وضعه في نطاق جغرافي أكبر.

فكر في الأخبار التي ستضعه في الصحف: المحلية، والقومية، والعالمية.

فإذا نال مبنى جديد في غروننغن جائزة معمارية، فسيتصدر الخبر الصحيفة المحلية *Dagblad van het Noorden* (الذي يعني اسمها حرفيًا: "صحيفة الشّمال اليومية").

لا تفوز مباني غروننغن كثيرًا بجوائز معمارية، لذلك فإن موضوع الخبر مهم في هذا السياق.

وفي المقابل، قد تستحق الجائزة إشارة موجزة في الصحف القومية الهولندية، ولن يكون لها أي ذكر في صحيفة **نيويورك تايمز**.

فبصرف النظر عن مدى **قيمة** مطعم جديد في غروننغن مصمم على شكل كعكة الميرينغ، فإن **أهميته** تقل كلما ابتعدت عن غروننغن؛ ذلك لأنه وُضع في

سياق أوسع، ففي أنحاء هولندا، وفي أنحاء العالم، تفوز مبانٍ كثيرة بجوائز معمارية.

إننا نصبح على وعي بهذا التحول في أهمية الأشياء عندما نسافر، وبصرف النظر عن مدى جمال موطنك، فإن أهميته تقل كلما ابتعدت عنه؛ ذلك لأنك وضعت موطنك في سياق أوسع.

وإنني لو بقيت في القطار طوال الطريق حتى يصل إلى وجهته الأخيرة، لوصلت إلى ليوڤاردن.

إنها نموذج لجوهرة مصغرة، لمدينة تتباهى بمركز من القرون الوسطى تحيط به القنوات، ويتوج ببرج الجرس المائل.

وتتمتع بأهمية قصوى في شمالي هولندا، فهي عاصمة تاريخية وجميلة للولاية، لكنها تقل أهمية كلما ابتعدت عنها. فليوڤاردن، بالمقاييس الأوروبية لا أهمية لها نسبيًّا، فهي واحدة من آلاف مدن العصور الوسطى، وهذا هو سبب أن السَّفر يجعلك متواضعًا، فبالرغم من أن موطنك يحتفظ بقيمته مهما سافرت بعيدًا عنه، فإنك تصبح على وعي بضآلة أهميته.

فإن كان السَّفر من فيربانكس إلى أمستردام يمكن أن يسبب شعورًا بقلة الأهمية، فماذا يمكن أن يفعله السَّفر إلى الفضاء؟ إذ كما يكتب الروائي دوغلاس آدمز في روايته **دليل المسافرين إلى المجرة**: "الفضاء ضخم، ضخم إلى أقصى حد...".

ذكرتُ آنفًا أن الأرض تبعد عن المريخ بنحو 140 مليون ميلًا، وتحتوي مجرتنا "درب التبانة" في كل مكان فيها على نحو 100 مليار إلى 400 مليار نجمة.

ويقدّر العلماء أن الكون المرئي يبعد بنحو 93 مليار سنة ضوئية، والكون كله على الأقل أكبر من الكون المرئي بنحو 250 مرة، وربما يكون غير متناهٍ[3]. وعقولنا ليست مُهيأة لاستيعاب هذه الأرقام.

تعج الفلسفة والخيال العلمي بالتعليقات التي تربط حجم الكون بضآلة أهمية البشر، ويعبر آدمز عن ذلك بقوله:

> بعيدًا في المناطق النائية المجهولة للنهاية غير العصرية للذراع الحلزوني الغربي للمجرة، تقع شمس صفراء صغيرة مهملة.
> يدور حولها كوكب على مسافة ما يقارب اثنين وتسعين مليون ميل وهو كوكب صغير لونه أزرق مخضر لا أهمية له الإطلاق.

تعود بنا هذه المشاعر إلى زمنٍ بعيد.

في عصرٍ قديم، ألّف الفيلسوف شيشرون قصة قصيرة عن هذا الموضوع بعنوان: *The Dream of Scipio* **حلم سكيبيو**، تحكي أن القائد العسكري الروماني سكيبيو إميليانوس يسافر إلى "مكان عالٍ، يمتلئ بالنجوم الساطعة المتلألئة"[4]. ويكتب سكيبيو أنه حين كان يشاهد درب التبانة رأى "البياض الذي لا مثيل له لضوئه المتوهج":

> وحين كنت أرصدها من هذا الموقع، كانت كل الأجرام السماوية تبدو بهيّة رائعة، الآن لم تكن النجوم كتلك التي نراها من هذه الأرض، كذلك كان حجمها جميعًا كما لم نحلم به قط، وكان أقلهم جميعًا هذا الكوكب الذي كان أبعد عن الكرة السماوية وأقرب إلى أرضنا، ويسطع بضوء مستعار، وكان حجم أجسام النجوم يفوق كثيرًا حجم الأرض - كانت الأرض نفسها تبدو لي بالغة الصغر، حتى أنني أحزنني التفكير في

---

(3) http://www.bbc.co.uk/earth/story/20160610-it-took-centuries-but-we-now-know-the-size-of-the-universe.

(4) أقتبسُ من ترجمة عام (1883).

إمبراطوريتنا التي لا تشغل إلا نقطة على سطحها، إن جاز التعبير.

يرى سكيبيو مدى صغر كوكبنا، وكيف أنَّ الإمبراطورية الرومانية العظيمة أصغر كثيرًا، ويقول جد سكيبيو حين يراه على هذا النحو:

> أرى... أنك حتى الآن تهتم بسكن البشرية ومأواها، وإن كان هذا يبدو لك بلا قيمة كما هو في الواقع، فستظل دائمًا تنظر إلى تلك الأجرام السماوية، ولن تهتم بشؤون البشر، وتتساءل: أي شهرة بين النَّاس؟ وأي مجد تناله يستحق السعي؟

هذه تجربة فكرية، فعندما يطلب شيشرون منا أن نتخيل السَّفر في الفضاء بين النجوم، فإنه يطلب منا إعادة النظر في أهمية حياتنا.

يكتب الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال في كتابه *Pensées* (ومعناها **الأفكار** حرفيًّا):

> أشعرُ بالفزع، حين أفكر في قصر مدة حياتي، التي تُبتلع في الأبدية من قبل ومن بعد، وفي الحيز الضئيل الذي أشغله، والذي يمكنني بالكاد رؤيته، غارقًا في ضخامة الفضاءات اللانهائية التي أجهلها، والتي لا تعرفني.

إن صمت هذه الفضاءات اللانهائية الأبدي يصيب كثيرًا منا بالفزع[5].

يشعر كثير من المفكرين بالخوف من ضآلة البشر وضآلة كوكبنا، فهل علينا، حين نفكر في ضخامة الكون، أن نخلص إلى أن البشر والأرض لا أهمية لهما؟

يهتم راسل بهذا السؤال، ويقول: بالرغم من أننا نجد أن ضآلة حجم

---

(5) Pascal (2003: 61).

البشر في الهاوية الفلكية "محيّر وجائر"، فإن رد فعلنا ليس عقلانيًّا؛ ذلك لأنه يرى أن علينا ألا نقدس الحجم، إذ يزعم راسل أن أعماق المكان والزمان لا تبهره[6].

يوضح كاهانا رأي راسل بالتفصيل في مناقشة أوسع، فيقول: إنه بالرغم من وجود بعض الحرج من جنون العظمة في الرغبة في الأهمية الكونية الكبرى، يمكن تلبية هذه الرغبة، ويفسر كاهانا ذلك كالآتي:

يقدّر البشر حياة الإنسان تقديرًا بالغًا، وكثير من البشر أيضًا يقدرون حياة النبات والحيوان تقديرًا بالغًا.

وإننا لنبذل الوقت والمال في سبيل الحفاظ على الحياة البرية، وحماية المحميات الطبيعية، والدفاع عن مناطق الجمال الطبيعي.

لكننا على النقيض من ذلك، نادرًا ما نقدر الأشياء الجامدة، مثل: السحب أو الطاولات.

يتخيل كاهانا أن كويكبًا ضرب الأرض ودمَّر كل صور الحياة عليها، لكنه خلّف سلسلة رائعة من الحفر.

يرى كاهانا أن قليلًا من النَّاس مَن سيعدون هذا "تحسينًا مميزًا"، وهذا يدل على أننا نعطي للحي قيمة أعلى من غير الحي.

لنفرض أننا على حق إذ أعطينا للحياة قيمة أعلى، وأن للنباتات والحيوانات في الواقع قيمة جوهرية أعلى من الجماد، وقد يعني هذا أن لكوكبنا قيمة وأهمية داخل إطار نظامنا الشَّمسي. والشَّمس، والقمر، والمريخ، والمشتري أشياء مذهلة، لكنها مجرد كتل من الصخور والغازات.

قد نكون صغارًا، لكن بوسعنا الحفاظ على أهميتنا، ولعل أهمية الأرض لا تتوقف عند ذلك.

---

(6) Russell (2009: 370).

يرى كاهانا أنه لو وجدت حياة خارج كوكب الأرض على الكواكب الأخرى، فقد تتضاءل أهمية الأرض، فمثلما تتضاءل أهمية غروننغن في السياق الذي يجمعها بغيرها من المدن الأوروبية، يمكن أن يكون كوكبنا أقل أهمية لو كان مجرد كوكب من بين كواكب حية عدة.

لكن إذا كان كوكبنا هو الكوكب الحي **الوحيد** في الكون، فستكون له أهمية كونية عظمى، فكما يقول كاهانا:

> حين نشعر بالذهول من ضآلة حجمنا، مقارنةً بهذا الفضاء الشاسع الذي يحيط بنا، ونخلص إلى أننا لا أهمية لنا، فقد يكون ذلك؛ لأننا ننسى أن نضع في حسباننا مدى فراغ هذا الفضاء الشاسع، وسيستغرق أي مراقب وقتًا طويلًا للغاية ليجدنا في هذا الفضاء الشاسع، لكنه ربما لا يجد، فضلًا عنّا، إلا القليل أو لا شيء على الإطلاق يمكن أن يثير اهتمامه[7].

إن كنا وحدنا في هذا الكون، فستفوق أهمية كوكبنا الأزرق المخضر الصغير حجمه، فقد يكون كوكبنا صغير الحجم وأهم شيء في الكون بأسره.

إنني لا أعرف إن كانت هناك حياة على الكواكب الأخرى أم لا، فهذا سؤال يجيب عليه علماء الفلك وعلماء الأحياء، لكنني أعرف أن الفلسفة توفر أدوات للتفكير في مكانِ البشر في الكون، سواءً أوُجدت مخلوقات أخرى خارج كوكب الأرض أم لا، وكما تبددت مخاوف سكيبيو بشأن الإمبراطورية الرومانية، ربما تتبدد مخاوفنا أيضًا.

كنت لا أزال منزعجة من رحلتي الوشيكة لمغادرة غروننغن، فلما وصل القطار وضعت بطاقة سفري لتُقرأ على الجهاز، وجررت أمتعتي إلى ساحة المحطة، ووقفت وسط كتل من الخرسانة المواجهة للشوارع الرئيسة.

كان الوقت منتصف الليل تقريبًا، ويعبق الهواء بعبير أوراق الشجر المبللة.

---

(7) See Kahane (2014: 753).

استنشقت هواء الليل، وفي فمي طعم مياه القناة تحت المطر، وبدأت السير إلى البيت. كان متحف الفن يلوح في الأفق عن يميني، ويتلاشى تكعيب مصابيح النيون.

كان الحصى يلمع على الأرض، وكانت حقيبتي تتأرجح على الأرصفة غير المستوية، وكانت المدينة قديمة وراسخة، ما جعلني أشعر بضآلتي المؤكدة، فقد امتد تاريخها المتقلب قبلي بكثير، وسيمتد بعدي بكثير، لقد عدتُ إلى الوطن.

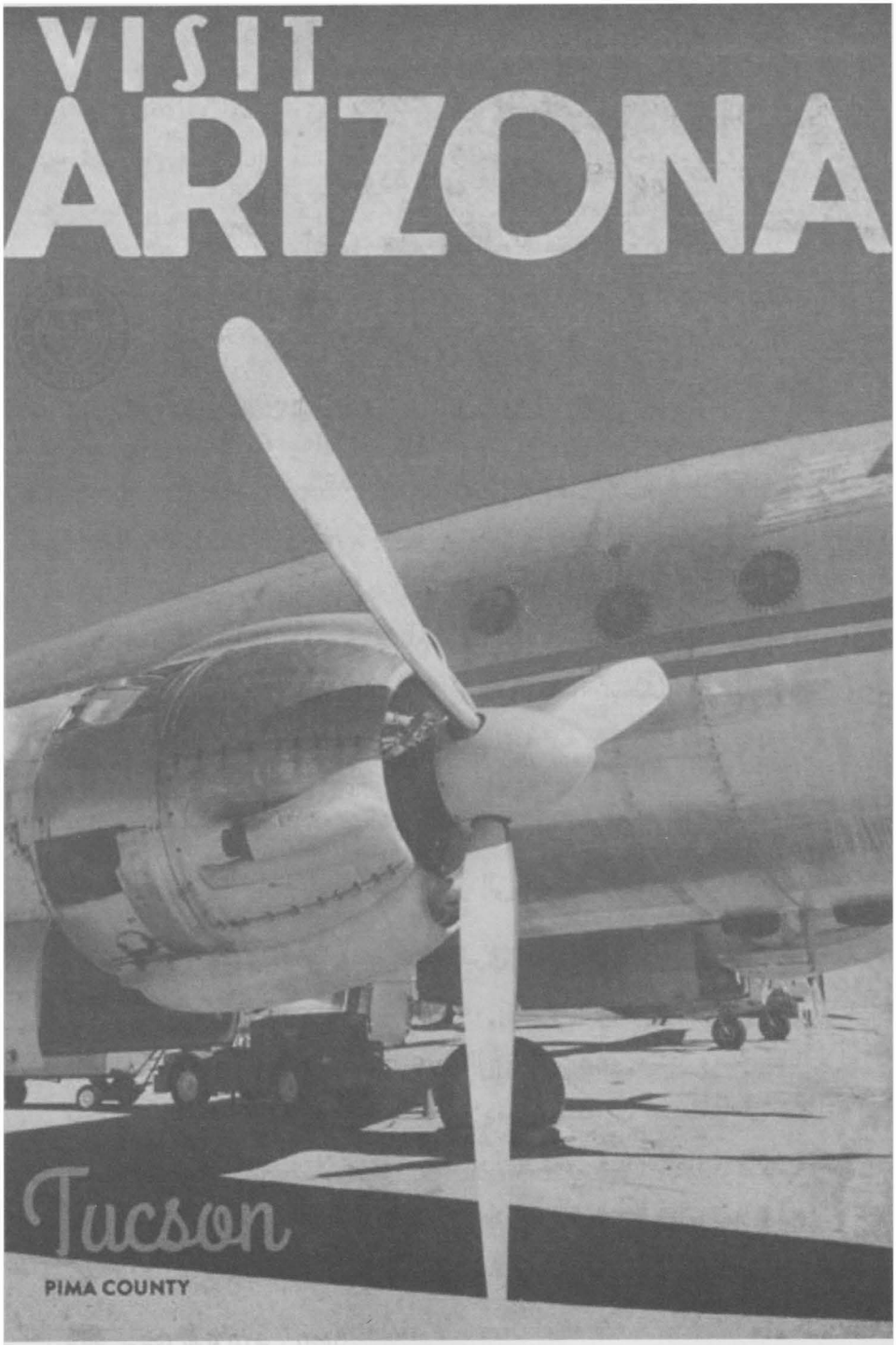

زوروا أريزونا = مدينة توكسون – مقاطعة بيما

العودة إلى الوطن

أفضل عشر نصائح قديمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

1. **تجنب أن تعود فاسدًا لكيلا تتعرض للموت:**

يخبرنا أفلاطون أنه سيقدم تقريرًا إلى مجلس الدولة عند عودة المراقب، بحيث إذا رؤيَ أنه أصبح "أفضل بشكل ملحوظ"، فسيُمنح تقديرًا أعلى، لكن إن بدا للمجلس أن المراقب قد "عاد فاسدًا"، فلابد ألا يتحدث مع أي أحد سواء أكان "صغيرًا أم كبيرًا"، وأن يعيش بمعزلٍ، وإذا أدين بالتدخل في بعض المسائل التربوية أو القانونية، "يحكم عليه بالموت".

أفلاطون، الجمهورية (حوالي 380 ق.م) Plato, *Republic* (c.380bce)

2. **بعد السَّفر إلى الخارج، فكر في السَّفر إلى الفضاء الخارجي:**

أحد ثمار السَّفر أيضًا أننا حين نرى مختلف: الأماكن، والشعوب، والأمزجة، والأزياء، وأساليب الحياة، نتحرر بدرجات مختلفة، من الحذلقة وضآلة الروح، إذ يمكننا أن ننتقد كل شيء بِعَدِّه عبثيًّا وسخيفًا؛ لأنه لا يوافق أسلوبنا الخاص، ولا طابع بلادنا، لكننا إن استطعنا أن ننطلق إلى جيراننا من الكواكب الأخرى، بدلًا من السَّفر عبر البحار، فإننا يمكن أن نجد هذا التنوع هناك، في كل من الطبيعة والبشر، وسيوسع هذا إلى حدٍّ بعيد أفكارنا وأرواحنا، ويساعدنا في علاج أمراض تلك العقول الضيقة.

توماس بيرنت، نظرية الأرض، (1684)

Thomas Burnet, *The Theory of the Earth* (1684)

3. تخلَّ عن الأزياء الأجنبية:

حين يعود من البلاد الأجنبية، يتخلى كذلك عن عاداتها وأزيائها، فيعود إلى الوطن كما كان قبل أن يغادره، وإلى ملابسه وإيماءاته وطريقة حديثه المقبولة المتفق عليها في بلاده.

روبرت دالنيغتون، منهاج للسفر، (1605) Robert Dallington, *A Method for Travell* (1605)

4. **اخدم بلدك:**

حين يعود المسافر إلى بلده "سينال الرضا والشرف والتقدير"، لكن لكي يتحقق ذلك يجب أن يقوم المسافر بمهام عدة، فيجب أن يُظهر "لجميع الرجال أن دينه لم يفسد ولم يتلوث"، وأن ينبذ "كل التكلف، وحيل الحواة، وملابس الأمم الأخرى"، إن لم تكن أفضل مما لدينا، كذلك يجب عليه أن يتصرف بما يمليه عليه ضميره فيما يتعلق بالأمور التي تمس: "الشرف، أو المال، أو الثأر"، والأهم من ذلك كله، يجب عليه أن يكون في خدمة: الرب، والأمير، والدولة.

"الرحالة" توماس بالمر، مقالة في الوسائل التي نجعل بها أسفارنا إلى الدول الأجنبية أشد منفعة وشرفًا (1606)
Thomas `the Travailer' Palmer, *An Essay of the Means how to make our Trauailes, into forraine Countries, the more profitable and honourable* (1606)

5. **تأكد أنك لا تطيل السَّفر:**

خصصت ما يكفي من وقت للغات، وكذلك لقراءة كتب القدماء، تواريخهم وأساطيرهم على حدٍّ سواء، فإن التحدث مع مَن عاشوا في العصور الماضية يشبه السَّفر تمامًا، وإنه لأمر محمود أن تعرف شيئًا عن عادات الشعوب المختلفة، فبذلك يمكن أن نحكم على زمننا حكمًا سليمًا، ونبتعد عن الظن بأن كل ما يخالف أساليبنا سخيفٌ وغير عقلاني، كما يفعل عادةً أولئك الذين لم يروا شيئًا في العالم، لكن مَن ينفق جُلّ وقته في السَّفر، يصبح في النهاية غريبًا في وطنه.

ديكارت، مقالة في المنهج، (1637) Descartes, *Discourse on the Method* (1637)

6. لا تُشعر النَّاس بالضجر من حديث السَّفر:

بعض المسافرين "فاسدي الأخلاق" لا ينجحون في ذلك: "فكل كلامهم عرضٌ تمثيلي ...**يعلي** شأن البلدان الأخرى، **ويقلل** شأن بلدانهم"، ولا يمكنك أن تتبادل معهم أكثر من بضع كلمات قبل أن يهيموا في "الجهة الأخرى من البحر" إعجابًا "بالخمور الفرنسية" و"الفاكهة الإيطالية". لكن الأسوأ من ذلك هم أولئك الذين يتضح من أمراضهم أنهم سافروا "إلى الخارج في أجواء حارة".

چيمس هاول، نصائح للمسافر إلى الخارج، (1642)

James Howell, *Instructions for Forreine Travell*

7. اعلم أن بلدك أحسن البلدان:

فرنسا بلد جميل للتجول، وإيطاليا بلد جميل لمشاهدة المعالم، وإسبانيا بلد جميل لإدراك الأمور، لكن إنكلترا بلد جميل لتعيش فيه، لذلك أتمنى للمسافر رحلة سعيدة، أما أنا، فقد ألقيت مرساتي هنا.

إدوارد لي، ثلاث خطب لاذعة، (1671)

Edward Leigh, *Three Diatribes* (1671)

8. لملم مخيمك بعناية:

- "استكمل" مجموعاتك من النباتات والصخور.
- ارسم رسومات دقيقة لمخيمك.
- قدِّم هدايا من معدات السَّفر إلى الخدم، فإنها ستكون "مجرد نفاية" في إنكلترا.
- نظم "مذكراتك"، وقم بفهرسة يومياتك إن لزم الأمر.
- "تحقق" من سلامة آلاتك عند العودة، لكي نعرف أن قراءتها دقيقة.
- أعد حساب ملاحظاتك، وأرسل نسخة منها بالبريد إلى إنكلترا.

- ارسم خرائط ليثوغرافية [بالطباعة على الحجر]، لمساعدة المسافرين مستقبلًا.

فرانسيس غالتون، فن السَّفر، (1855) Francis Galton, *The Art of Travel* (1855)

9. بعد السَّفر بالقطار، اهتم بالأمتعة والسيدات.

ينبغي "تنظيم" نزول السيدات؛ لتخلصهن بسرعة من "الصخب والضجيج والارتباك الذي لا يفارق وصول أي قطار".

اجمع أمتعتك بسرعة، فإذا وُجدت أمتعتك في مكتب أمانات السكك الحديدية، وكان يمكن التأكد من هويتك، فستُرسل إليك مقتنياتك "مقابل رسوم قدرها 6 دولارات لكل وحدة".

إن كنتَ ستعود إلى محطة القطار لاحقًا، فعليك أن "تلاحظ موقع المحطة بالنسبة للمباني الأخرى المحيطة وعلاقتها بها"، وذلك لكي تصل إليها مرة أخرى بسهولة ويسر.

الكاتب مجهول، دليل المسافرين بقطارات السكك الحديدية، (1862)
Anon, *The Railway Traveller's Handy Book* (1862)

10. وأخيرًا، العودة إلى الوطن:

لن نتوقف عن الاستكشاف.

وستكون نهاية كل استكشاف لنا.

أننا سنعود من حيث أتينا.

ونعرف المكان من أول مرة.

تي. إس. إليوت، "شيءٌ من التطهر"، (1942) T. S. Eliot, `Little Gidding (1942)*

(*) يشير العنوان إلى جماعة أنجليكاني صغيرة في هانتينغدونشاير، أسسها نيكولاس فيرار في القرن السابع عشر وتفرق خلال الحرب الأهلية الإنكليزية، تستخدم القصيدة الصّورة المركبة للنار والتعميد بالنار للتأكيد على ضرورة التطهر والتنقية. (المترجمة).

شكر وتقدير

شارك كثيرون في هذا المشروع من الفلاسفة الذين قدموا نوادر عن السَّفر في المؤتمرات، إلى الأصدقاء وأفراد العائلة الذين استمعوا إليَّ وأنا أتحدث بتفاهات عن لوك والأفيال.

أقدم جزيل الشكر إلى: فليكس رينجيل، وكاثي توماس، وماثيو دانكومب، وإيرين ويلسون، وكريس كاوي، ودوينا- كريستينا روسو، وجوليان باجيني، وآرون غاريبت، وسايمون چيمس، وكاثرين چينكنز، وسو چيمس، وچيريمي دنهام، وكاثي بوديفوت، وإليانور روزاموند باراكلوف، وآندي كوبر، وديفيد فاراسي، وديفيد شتراهان.

كما أنني ممتنة إلى صوفي سكارد في يونايتد آجينت، وإلى فريق إكسفورد يونيفيرستي برس، وبخاصة بيتر مومتيكلوف، ولوسيانا أوفلارتي، وثلاثة محكمين لا أعرف أسماءهم، فبفضلكم جميعًا صار هذا الكتاب أفضل.

المراجع

Adams, Douglas (2016). *The Hitchhiker's Guide to the Galaxy*. Pan: London.

Anderson, E. A. (2005). *Everyone Eats: Understanding Food and Culture*. New York University Press: New York.

Andrews, J. H. (1996). 'What Was a *Map*?' *Cartographica* 33: 1-11.

Anstey, Peter (2011). *Locke and Natural Philosophy*. Oxford University Press: Oxford.

Aristotle (1984). *The Complete Works of Aristotle*. Edited by Jonathan Barnes. Princeton University Press: Princeton, NJ.

Bacon, Francis (1659). *The New Atlantis. A Work unfinished*. London.

Bacon, Francis (1874). *The Letters and the Life of Francis Bacon Including All His Occasional Works, Vol. VII*. Edited by James Spedding. Longmans, Green, Reader, and Dyer: London.

Bacon, Francis (1900). *The Works of Francis Bacon, Vol. VIII: Translations*. Houghton Mifflin: Boston.

Bacon, Francis (1964). *The Philosophy of Francis Bacon: An Essay on its Development from 1603 to 1609 with New Translations of Fundamental Texts*. Edited by B. Farrington. University of Chicago Press: Chicago.

Bacon, Francis (1996). *Francis Bacon*. Edited by Brian Vickers. Oxford University Press: Oxford.

Barrow, Isaac (1734). *The Usefulness of Mathematical Learning Explained and Demonstrated*. Translated by John Kirkby. Stephen Austin: London.

Barrow, Isaac (1859). *The Theological Works of Isaac Barrow*. Edited by Alexander Napier. Cambridge University Press: Cambridge.

Bassnett, Susan (2005). 'Travel Writing and Gender', in *The Cambridge Companion to Travel Writing*, pp. 225-41. Edited by Peter Hulme and Tim Youngs. Cambridge University Press: Cambridge.

Bem, Sandra L. (1993). *The Lenses of Gender*. Yale University Press: New Haven.

Berkeley, George (1713). *Three Dialogues between Hylas and Philonous*. London.

Berkeley, George (2013). *The Correspondence of George Berkeley*. Cambridge University Press: Cambridge.

Berlin, Brent and Paul Kay (1969). *Basic Color Terms: Their Universality and Evolution*. University of California Press: Berkeley.

Birkett, Dea (1989). *Spinsters Abroad: Victorian Lady Explorers*. Basil Blackwell: Oxford.

Bishop, Elizabeth (2014). *Complete Poems*.Chatto&Windus: London.

Black, Jeremy (2011). *The British and The Grand Tour*.Routledge: Beckenham.

Blanton, Casey (1997). *Travel Writing: The Self and the World*.Twayne Publishers: New York.

Blundeville, Thomas (1589). *A Brief Description of Universal Maps & cards and of their use*. London.

Boas, Franz. (1911). *Handbook of American Indian languages*. Government Printing Office: Washington.

Bohls, Elizabeth and Ian Duncan (2005). 'Introduction', *in Travel Writing 1700-1830: An Anthology*, pp. xiii-xxvii, Edited by Elizabeth Bohls and Ian Duncan. Oxford University Press: Oxford.

Boulton, James T. and T. O. McLoughlin (2012). *News from Abroad: Letters Written by British Travellers on the Grand Tour, 1728-71*. Oxford University Press: Oxford.

Boyle, Robert (1665-1666). 'General Heads for a Natural History of a Countrey, Great or Small, Imparted Likewise by Mr. Boyle', *Philosophical Transactions* 1: 186-9.
Boyle, Robert (1772). 'Certain Physiological Essays and Other Tracts' in *The Works of the Honourable Robert Boyle, Vol. I.* London.
Boyle, Robert (1999-2000). *The Works of Robert Boyle*. Edited by Michael Hunter and Edward B. Davis. Pickering and Chatto: London.
Brady, Emily (2013). *The Sublime in Modern Philosophy: Aesthetics, Ethics, and Nature*. Cambridge University Press: Cambridge.
Bryson, Bill (1989). *The Lost Continent: Travels in Small Town America*. Harper & Row: New York.
Bryson, Bill (2010). *Notes from a Big Country*.Transworld Publishers: London.
Burke, Edmond (1990). *Philosophical Enquiry into the Origin of our Ideas of the Sublime and Beautiful*. Edited by Adam Phillips. Oxford University Press: Oxford.
Burnet, Thomas (1684). *The Theory of the Earth, Vol. I.* London.
Byron, George (1812/1829). *Childe Harold's Pilgrimage*. Du Jardin-Sailly Brothers: Brussels.
Cafaro, Philip (2004). *Thoreau's Living Ethics: Walden and Pursuit of Virtue*. University of Georgia Press: Athens, GA.
Camus, Albert (1963). *Notebooks: 1935-1942*. Translated by Philip Thody. Harvest/HBJ Book: New York.
Carey, Daniel (1997). 'Compiling Nature's History: Travellers and Travel Narratives in the Early Royal Society', *Annals of Science* 54: 269-92.
Carey, Daniel (2005). *Locke, Shaftesbury, and Hutcheson: Contesting Diversity in the Enlightenment and Beyond*. Cambridge University Press: Cambridge.
Carlson, Allen (1979). 'Appreciation and the Natural Environment', *The Journal of Aesthetics and Art Criticism* 37: 267-75.
Cavendish, Margaret (1663). *Orations of Divers Sorts*. London.
Cavendish, Margaret (2001). *Observations upon Experimental Philosophy*. Edited by Eileen O'Neill. Cambridge University Press: Cambridge.
Cavendish, Margaret (2015). *The Description of a New World, Called The Blazing-World*.-CreateSpace Independent Publishing Platform: United States.
Chomsky, N. (1965). *Aspects of a Theory of Syntax*. The MIT Press: Cambridge, MA.
Churchill, Awnsham (ed.) (1704). *A Collection of Voyages and Travels, Vol. I.* London.
Cicero, Marcus Tullius (1883). *SomniumScipionis, the dream of Scipio Africanus Minor, being the epilogue of Cicero's treatise on polity*. Translated by W. D. Pearman. Deighton, Bell & Co: Cambridge.
Clarke, Samuel (1717). *A Collection of Papers, Which passed between the late Learned Mr. Leibniz and Dr. Clarke, In the Years 1715 and 1716*. Edited by Samuel Clarke. London.
Clarke, Desmond M. (2006). *Descartes: A Biography*. Cambridge University Press: Cambridge.
Coetzee, P. H. and A. P. J. Roux, (2005). *The African Philosophy Reader*. Routledge: London.
Coleridge, Samuel Taylor (1997). *The Complete Poems of Samuel Taylor Coleridge*. Penguin: London.
Connolly, Patrick (2013). 'Travel Literature, the New World, and Locke on Species', *Society and Politics* 7: 103-16.
Coryat(rep. 1905). *Coryat's crudities: hastily gobled up in five monethstravells in France, Savoy, Italy, Rhetia commonly called the Grisons country, Helvetia alias Switzerland, some parts of high Germany and the Netherlands*. J. MacLehose and Sons: Glasgow.
Cottegnies, Line (2010). 'Utopia, Millenarianism, and the BaconianProgramme of Margaret Cavendish's The Blazing World (1666)', in *New Worlds Reflected: Travel and Utopia in the Early Modern Period*. Edited by Chloë Houston. Routledge: Aldershot.

Dainton, Barry (2010). *Time and Space*. Acumen Publishing Ltd: Stocksfield.
Darwin, Charles (1859). *On the Origin of Species*. John Murray: London.
Darwin, Charles (1958). *The Autobiography of Charles Darwin 1809-1882*. Edited by Nora Barlow. Collins: London.
Darwin, Charles (2008). *The Voyage of the Beagle*.Cosimo Classics: New York.
Dawson, J., M. J. Johnston, E. J. Stewart, C. J. Lemieux, R. H. Lemelin, P. T. Maher, and B. S. P. Grimwood(2011). 'Ethical Considerations of Last Chance Tourism', *Journal of Ecotourism* 10: 250-65.
de Beauvoir, Simone (1949). *The Second Sex*. Translated by Constance Borde and Shelia Malovany-Chevallier. Vintage Books: New York.
De Botton, Alain (2003). *The Art of Travel*. Penguin: London.
Defoe, Daniel (1836). *The True-born Englishman: A Satire*. Leeds.
Descartes, Rene (1984). *The Philosophical Writings of Descartes*. Translated by J. Cottingham, R. Stoothoff, and D. Murdoch. Cambridge University Press: Cambridge.
Dodge, Martin, and Chris Perkins (2015). 'Reflecting on J. B. Harley's Influence and What He Missed in "Deconstructing the Map"', *Cartographica* 50: 37-40.
Edwards, Amelia (1888). *A Thousand Miles up The Nile*. George Routledge and Sons: London.
Eijgelaar, Eke, Carla Thaper, and Paul Peeters (2010). 'Antarctic Cruise Tourism: The Paradoxes of Ambassadorship, "Last Chance Tourism" and Greenhouse Gas Emissions', *Journal of Sustainable Tourism* 18: 337-54.
Emerson, Ralph (1836). *Nature*. James Munroe & Company: Boston.
Enloe, Cynthia (2014). *Bananas, Beaches, and Bases: Making Feminist Sense of International Politics, second edition*. University of California Press: Berkeley.
Everett, Daniel L. (2005). 'Cultural Constraints on Grammar and Cognition in Piraha', *Current Anthropology* 46: 621-46.
Feingold, Mordechai (2007). 'Barrow, Isaac (1630-1677)', *Oxford Dictionary of National Biography*. < <http://www.oxforddnb.com/view/article/1541 > >.
Fernández, Pablo IvánAzócar, and Manfred Ferdinand Buchroithner (2014). *Paradigms in Cartography*. Springer: Heidelberg.
Foglia, Marc (2014). 'Michel de Montaigne', in *The Stanford Encyclopedia of Philosophy*. Edited by Edward N. Zalta. < <https://plato.stanford.edu/archives/spr2014/entries/montaigne/ > >.
Foot, Philippa (1967). 'The Problem of Abortion and the Doctrine of Double Effect', *Oxford Review* 5: 5-15.
Foxe, Luke (1635). *North-west Fox, or Fox from the Northwest Passage*. T. Fawcett and B. Alsop: London.
Fussell, Paul (1980). *Abroad: British Literary Travelling between the Wars*. Oxford University Press: New York.
Fussell, Paul (1987). *The Norton Book of Travel*. Norton: New York.
Gerlach, Joe (2015). Editing Worlds: Participatory Mapping and a Minor Geopolitics. *Transactions of the Institute of British Geographers* 40: 273-86.
Ghica, Elena (1858). *Switzerland the Pioneer of the Reformation*. A. Fullarton& Co: London.
Glausser, W. (1990). 'Three Approaches to Locke and the Slave Trade', *Journal of the History of Ideas* 51: 199-216.
Goatcher, Jeff, Viv Brunsden (2011). 'Chernobyl and the Sublime Tourist', *Tourist Studies* 11: 115-37.
Goodman, Nelson (1955). *Fact, Fiction, and Forecast*. Harvard University Press: Cambridge, MA.
Hakluyt, Richard (1889). *The principal navigations, voyages, traffiques and discoveries of the English nation*. E. & G. Goldsmid: Edinburgh.
Harley, J. B. (1989). 'Deconstructing the Map', *Cartographica* 26: 1-20.
Haviland, John B. (1998). 'GuuguYimithirr Cardinal Directions', *Ethos* 26: 25-47.

Hayden, Judy (2012). 'Intersections and Cross-Fertilization', in *Travel Narratives, the New Science, and Literary Discourse 1569-1750,* pp.11-24. Edited by Judy Hayden. Routledge: London.
Hooke, Robert (1665). *Micrographia.* London.
Howell, James (rep. 1869). *Instructions for ForreineTravell.* London.
Hulme, Peter (2005). 'Travelling to Write (1940-2000)', in *The Cambridge Companion to Travel Writing,* pp. 87-102. Edited by Peter Hulme and Tim Youngs. Cambridge University Press: Cambridge.
Hume, David (1739). *A Treatise of Human Nature, Book I.* London.
Ierodiakonou, Katerina, and Sophie Roux (eds) (2011). *Thought Experiments in Methodological and Historical Contexts.* Brill: Leiden.
Jacob, Christian (2006). *The Sovereign Map: Theoretical Approaches to Cartography throughout History.* Translated by Tom Conley. Edited by Edward H. Dahl. University of Chicago Press: Chicago.
Kahane, Guy (2014). 'Our Cosmic Insignificance', *Noûs* 48: 745-72.
Kant, Immanuel (2011). *Observations on the Feeling of the Beautiful and Sublime and Other Writings.* Edited by Patrick Frierson and Paul Guyer. Cambridge University Press: Cambridge.
Kingsley, Mary (2003). *Travels in West Africa.* Dover Publications: Mineola, NY.
Kitchin, R., and M. Dodge (2007). 'Rethinking Maps'. *Progress in Human Geography* 31: 331-44.
Koch, Philip (1997). *Solitude: A Philosophical Encounter.* Open Court: Chicago.
Lassels, Richard (1670). *An Italian Voyage Or A Compleat Journey Through Italy.* London.
Lee, Henry (1702). *Anti-scepticism: or, Notes Upon Each Chapter of Mr. Lock's Essay Concerning Humane Understanding.* London.
Leed, Eric J. (1991). *The Mind of the Traveller.* Basic Books: New York.
Leigh, Edward (1671). *Three Diatribes or Discourses.* London.
Littlewood, Ian (2001). *Sultry Climates: Travel and Sex since the Grand Tour.* John Murray: London.
Locke, John (1690). *An Essay Concerning Humane Understanding.* London.
Locke, John (1699). *Mr. Locke's reply to the right reverend the Lord Bishop of Worcester's answer to his second letter.* London.
Locke, John (1858). *The Life and Letters of John Locke.* Edited by Lord King. London.
Locke, John (1984). *Locke's Travels in France.* Edited by John Lough. Garland Publishers: New York.
Lopez, Barry (2014). *Arctic Dreams.* Penguin: London.
Macfarlane, Robert (2003). *Mountains of the Mind.* Granta Books: London.
Maillart, Ella (1950). 'My Philosophy of Travel' in *Traveller's Quest: Original Contributions towards a Philosophy of Travel,* pp. 114-26. Edited by M. A. Michael. William Hodge: London.
Malebranche, Nicolas (1997). *The Search after Truth.* Translated and edited by T. M. Lennon and P. J. Olscamp. Cambridge University Press: Cambridge.
Markham, Beryl (1942/1984). *West with the Night.* Virago: London.
Marshall, Tim (2016). *Prisoners of Geography.* Simon and Schuster: New York.
Mayew, William J., Christopher A. Parsons, and Mohan Venkatachalam (2013). 'Voice Pitch and the Labor Market Success of Male Chief Executive Officers'. *Evolution and Human Behavior* 34: 243-8.
Mbiti, J. S. (1969). *African Religions and Philosophy.* London: Heinemann.
McKnight, Stephen A. (2006). *The Religious Foundations of Francis Bacon's Thought.* University of Missouri Press: Columbia.
Michener, James A. (1988). *Alaska.* Fawcett Crest: New York.
Mill, J. S. (2015). On Liberty, Utilitarianism, and Other Essays. Oxford University Press: Oxford.

Milton, John (2005). *Paradise Lost*. Edited by David Scott Kastan. Hackett Publishing: Indianapolis.
Monmonier, Mark (1996.) *How to Lie with Maps*. University of Chicago Press: Chicago.
de Montaigne, Michel (1845). *The Works of Montaigne, second edition*. Edited by William Hazlitt. London.
Monteith, James (1866). *First Lessons in Geography*. A. S. Barnes & Co: New York.
Moore, Richard B. (1973). 'Carib "Cannibalism": A Study in Anthropological Stereotyping', *Caribbean Studies* 13: 117-35.
More, Henry (1878). *The Complete Poems of Dr Henry More*. Edited by Alexander B. Grosart. Edinburgh University Press: Edinburgh.
More, Henry (1995). *Henry More's Manuel of Metaphysics-A Translation of the EnchiridiumMetaphysicum, Vol. I*. Translated by Alexander Jacob. Georg OlmsVerlag Hildesheim: Germany.
More, Thomas (1998). *Utopia*. Dover Publications: New York.
Morton, Timothy (2013). *Hyperobjects: Philosophy and Ecology after the End of the World*. University of Minnesota Press: Minneapolis.
Moulton, Ian Frederick (2000). *Before Pornography: Erotic Writing in Early Modern England*. Oxford University Press: Oxford.
Muir, John (1894/2008). *The Mountains of California. Penguin: New York*.
Muir, John (1915). *Travels in Alaska*. Houghton Mifflin: Boston.
Naess, Arne (1986). 'The Deep Ecological Movement: Some Philosophical Aspects', *Philosophical Inquiry* 8: 1-2.
Newby, Eric (1981). *A Short Walk in the Hindu Kush*. Picador: London.
Newton, Isaac (1999). *The Principia: Mathematical Principles of Natural Philosophy*. Translated by Bernard Cohen and Anne Whitman, assisted by Julia Budenz. University of California Press: Berkeley.
Newton, Isaac (2008). *The Correspondence of Isaac Newton, Volume I: 1661-1675*. Cambridge University Press: Cambridge.
Nicolson, Majorie Hope (1959). *Mountain Gloom and Mountain Glory*. Cornell University Press: New York.
Nugent, Thomas (1749). *The Grand Tour; Or, a Journey through the Netherlands, Germany, Italy, and France*. London.
Nye, David E. (1994). *American Technological Sublime*. MIT Press: Cambridge, MA.
Oelschlaeger, Max (1991). *The Idea of Wilderness*. Yale University Press: New Haven, CT.
Oladipo, Olusegun (2004). 'Religion in African Culture: Some Conceptual Issues', in *A Companion to African Philosophy, pp. 355-3*. Edited by KwasiWiredu. Blackwell: Malden, MA.
Olds, Sharon (2005). *Selected Poems*. Jonathan Cape: London.
Overton, John Henry (1885). 'Barrow, Isaac (1630-1677)', in *Dictionary of National Biography, 1885-1900, Volume III*, pp. 299-305. Smith, Elder & Co: London.
Palmer, Thomas (1606). *An essay of the meanes how to make our trauailes, into forraine countries, the more profitable and honourable*. London.
Parker, Mike (2009). *Map Addict*. Collins: London.
Pascal, Blaise (2003). *Pensées*. Translated by W. F. Trotter. Dover Publications: Mineola, NY.
Passmore, John (1974). *Man's Responsibility for Nature*. Scribner's: New York.
Pepys, Samuel (2000). *The Diary of Samuel Pepys*. University of California Press: Berkeley.
Perkins, Franklin (2014). 'Wandering and Being at Home', in *Landscape and Travelling East and West*, pp. 23-34. Edited by Hans-Georg Moeller and Andrew Whitehead. Bloomsbury: London.
Peterson, Michael P. (2003). 'Maps and the Internet: An Introduction', in *Maps and the Internet*, pp. 1-16. Edited by Michael P. Peterson. Elsevier: Amsterdam.

Piggott-McKellar, Annah E., and Karen E. McNamara (2016). 'Last Change Tourism and the Great Barrier Reef', *Journal of Sustainable Tourism* 25: 397-415.
Plato (1997). *Plato: Complete Works*. Edited by John M. Cooper and D. S. Hutchinson. Hackett: Indianapolis.
Poole, Joshua (1657). *The English Parnassus*. London.
Pugliese, P. (2006). 'Hooke, Robert (1635-1703), Natural Philosopher', in *Oxford Dictionary of National Biography*. http://www.oxforddnb.com/view/10.1093/ref:odnb/9780198614128.001.0001/odnb-9780198614128-e-13693 > .
Raban, Jonathan (1992). *The Oxford Book of the Sea*. Oxford University Press: Oxford.
Ransom, J. Ellis (1940). 'Derviation of the Word "Alaska"', *American Anthropologist* 42: 5501-1.
Relph, E. (1976). *Place and Placelessness*. Pion: London.
Rose-Redwood, Reuben (2015). 'Introduction: The Limits to Deconstructing the Map', *Cartographica* 50: 1-8.
Rousseau, Jean-Jacques (1796). *The Confessions of J. J. Rousseau, to which are appended Reveries of a Solitary Walker, Vol. II*. London.
Rousseau, Jean-Jacques (1921). *Emile or Education*. Translated by Barbara Foxley. J. M. Dent & Sons: New York.
Russell, Bertrand (2009). *The Basic Writings of Bertrand Russell*. Edited by Robert E. Egner and Lester E. Denonn. Routledge: London.
Seller, John (1670). *Atlas Maritimus*. London.
Shelley, Mary (1818/2018). *Frankenstein*. Penguin: New York.
Shelley, Mary (1844). *Rambles in Germany and Italy, in 1840, 1842, and 1843*. Edward Moxon: London.
Smith, Adam (1776). *An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations*. London.
Smith, Justin (2015). *Nature, Human Nature, and Human Difference: Race in Early Modern Philosophy*. Princeton University Press: Princeton, NJ.
Sokolowski, Robert (1998). 'The Method of Philosophy: Making Distinctions', *The Review of Metaphysics* 51: 515-32.
Sorensen, Roy A. (1999). *Thought Experiments*. Oxford University Press: Oxford.
Strachan, Michael (2013). 'Coryate, Thomas (c. 1577-1617)', in *Literature of Travel and Exploration: An Encyclopedia, Vol. 1: A to F*, pp. 285-7. Edited by Jennifer Speake. Routledge: London.
Stillingfleet, Edward (1697). *The Bishop of Worcester's Answer to Mr. Locke's Letter*. London.
Strabo (1917). *Geography*. Translated by Horace Leonard Jones. Harvard University Press: Cambridge, MA.
Swann, Marjorie (2001). *Curiosities and Texts: Culture of Collecting in Early Modern England*. University of Pennsylvania Press: Philadelphia.
Talbot, Ann (2010). *'The Great Ocean of Knowledge': The Influence of Travel Literature on the Work of John Locke*. Brill: Leiden.
Theroux, Paul (2011). *The Great Railway Bazaar: By Train through Asia*. Penguin: London.
Thicknesse, Philip (1768/1770). *Useful Hints to Those who Make the Tour of France*. London.
Thomas, Emily (2018). *Absolute Time: Rifts in Early Modern British Metaphysics*. Oxford University Press: Oxford.
Thompson, Carl (2007). *The Suffering Traveller and the Romantic Imagination*. Oxford University Press: New York.
Thompson, Carl (2011). *Travel Writing*. Routledge: London.
Thoreau, Henry David (1965). *Walden and Essay on Civil Disobedience*.Airmont Publishing: New York.

Thoreau, Henry (2004). *Walden; or, Life in the Woods*. Princeton University Press: Princeton.
Twain, Mark (2010). *Innocents Abroad. Wordsworth Classics: St Ives.*
van den Abbeele, Georges (1991). *Travel as Metaphor from Montaigne to Rousseau*. University of Minnesota Press: Minneapolis, MN.
Vila, Mar, Gerard Costa, Carlos Angulo-Preckler, Rafael Sarda, and Conxita Avila (2016). 'Contrasting Views on Antarctic Tourism: 'Last Chance Tourism' or 'Ambassadorship' in the Last of the Wild', *Journal of Cleaner Production* 111: 451-60.
Wallis, Velma (2013). *Two Old Women*. HarperCollins: New York.
Waters, David W. (1958). *The Art of Navigation in England in Elizabethan and Early Stuart Times*. Hollis and Carter: London.
Wheeler, Sara (1997). *Terra Incognita: Travels in Antarctica*. Vintage: London.
Whewell, William (1834). 'On the Connexion of the Physical Sciences. By Mrs. Somerville'. *Quarterly Review* 51: 54-68.
Whitaker, Ian (1982). 'The Problem of Pytheas' Thule', *The Classical Journal* 77: 148-64.
Whitaker, Katie (2002). *Mad Madge: The Extraordinary Life of Margaret Cavendish, Duchess of Newcastle, the First Woman to Live by her Pen*. Basic Books: New York.
Winkler, Ken (2004). 'Empiricism and Multiculturalism', *Philosophic Exchange* 34: 55-84.
Witt, Charlotte (1998). 'Form, Normativity, and Gender in Aristotle: A Feminist Perspective,' in *Feminist Interpretations of Aristotle*, pp. 118-37. Edited by Cynthia Freeland. The Pennsylvania State University Press: University Park, PA.
Wolfe, Charles (2014). 'Travel as a Basis for Atheism: Free-Thinking as Deterritorialization in the Early Radical Enlightenment', in *Motion and Knowledge in the Changing Early Modern World,* pp. 141-67. Edited by Ofer Gal and Yi Zheng. Springer: Dordrecht.
Wolff, Janet (1992). 'On the Road Again: Metaphors of Travel in Cultural Criticism', *Cultural Studies* 6: 224-39.
Wollstonecraft, Mary (1793). *A Vindication of the Rights of Woman*. J. Stockdale: Dublin.
Wollstonecraft, Mary (1889). *Letters Writing During a Short Residence in Sweden, Norway, and Denmark. Cassell& Company: London.*
Wollstonecraft, Mary (1989). *The Works of Mary Wollstonecraft*. Pickering: London.
Wood, Denis (1987). 'Pleasure in the Idea: The Atlas as Narrative Form', *Cartographica* 24: 24-46.
Wood, Denis (1992). *The Power of Maps*. Guilford Press: New York.
Wood, Denis, and John Fels (1986). 'Designs on Signs: Myth and Meaning in Maps', *Cartographica* 23: 54-103.
Wood, Maureen and Ron Kolek (2010). *A Ghost A Day: 365 True Tales of the Spectral, Supernatural, and Just Plain Scary!* Adams Media: Avon, MA.
Worl, RosataKaahani (2016). 'Alaska', in *The Oxford Handbook of American Indian History,* pp. 301-14. Edited by Frederick E. Hoxie. Oxford University Press: New York.

t.me/soramnqraa

مَنشُورَاتُ نَادِي الكِتَاب

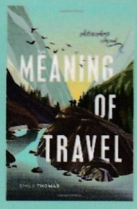

معنى السفر

كيف نفكر في السفر بشكل أعمق ؟ .. هذا هو السؤال الذي دفع إيميلي توماس إلى الغوص في فلسفة السفر، لاستكشاف الأماكن التي يتقاطع فيها الفلسفة والسفر. يجمع كتاب "معنى السفر" بين التأمل الفلسفي والمذكرات الشخصية ويبدأ في عصر الكشوف الجغرافية في القرن السادس عشر، حين بدأ الفلاسفة لأول مرة يأخذون التفكير في السفر والكتابة عنه مأخذ الجد. تغوص المؤلفة في الفلسفة والتاريخ فتخرج بأفكار مونتان عن "الغيرية"، وما كتبه جون لوك عن "آكلي لحوم البشر"، وما مر به هنري ثورو في "البرية"... خلال رحلاتنا مع إيميلي توماس نكتشف جانب الخرائط المظلم ، ونعرف كيف حضت فلسفة المكان على سياحة الجبال، وماذا يدفع المرء إلى غسيل ملابسه الداخلية في أكواخ الغابات... نواجه أيضًا أسئلة عميقة، مثل الجدل حول أخلاقيات "سياحة الفرصة الأخيرة" (السفر إلى أماكن محكوم عليها بالاندثار مثل الأنهار الجليدية أو شعاب المرجان)، وكيف يمكن أن يؤثر السفر إلى الفضاء على فهمنا لمكانة الإنسان في كون هائل... هذا الكتاب هو أول تاريخ على الإطلاق عن الأماكن التي يتقاطع فيها التاريخ والفلسفة، ولسوف يعيد هذا الكتاب تشكيل فهمك للسفر.

إيميلي توماس

مؤرخة للفلسفة ، تركز على التأريخ للميتافيزيقيا من القرن السابع عشر إلى أوائل القرن العشرين. يتعلق الكثير من عملها بالزمان والمكان، كما أنها تهتم أيضًا بجوهر الأمور، والتغيير، والمثالية، والعملية، والنشأة، والهوية الشخصية، والأسئلة الفلسفية حول السفر. تحب التنقيب عن أعمال الشخصيات العظيمة التي لم تدرس جيدًا، بما في ذلك الفيلسوفات اللاتي تعرضن للإهمال والتجاهل في تاريخ الفلسفة بصفة عامة. لها عدة كتب منها:

Early Modern Women on Metaphysics (2018, Cambridge University Press)

جهود النساء في الميتافيزيقا في مطلع العصر الحديث، وعدد خاص بعنوان "الزمن في مطلع القرن العشرين في الفلسفة الأمريكية البريطانية" نشر في المجلة البريطانية لتاريخ الفلسفة 2023

نالت جائزة فيليب ليفرهولم Philip Leverhulme Prize للأبحاث المتميزة عام 2020

* * *

نشوى ماهر كرم الله

مترجمة مصرية لها عدة كتب مترجمة في مجالات مختلفة منها:

هجومٌ على العقل

خرافة الزعيم القوي

مراكز الأبحاث الأمريكية

سرعة الثقة

الحياة الرقمية

فوائت الحياة

سنوات رائعة

كتاب بديع جذاب. ولإيميلي توماس لمسة خفة
لا تقلل مطلقاً من جدية القضايا
التي تناقشها ولا تعقيداتها.

جوليان باجيني • مؤلف كتاب كيف يفكر العالم: تاريخ الفلسفة العالمية

هذا أجمل أنواع السفر ؛ ليس عبر القارات وحسب، بل عبر الزمان والمكان
وعقولنا التي لا يحدها زمان ولا مكان. والرحلة هي مصدر البهجة.
وإيميلي توماس مرشدة رائعة.

مايك باركر • مؤلف كتاب فوق التل الأحمر

أخيرًا، كتاب لا يتحدث عن وجهة السفر؛ بل عن أسباب السفر.
فكتاب معنى السفر يشرح الأسباب التي أغرتنا بالانطلاق
في مسارات لم تُطرق لقرون عدة.

ديا بيركيت • مؤلفة كتاب حية في الفردوس

مكتبة
t.me/soramnqraa

BC PUB
ISBN 978-603-04-4313-0
9 786030 443130
CLUB-BOOK.COM